أعــداء الإســلام

ووسائل التضليل والتدمير

الدكتور جابر قميحة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
الطبعة الأولى

رقم الإيـــداع : ١٥١٨١ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-265-341-9

شركة الأمل للتجهيزات الفنية
عامر شماخ وشركاه
ت : ٥٧٦١٩٦٢

دار التـوزيع والنشـر الإسـلاميـة
مصـر - القاهـرة - السيدة زينب - ص. ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com



تقديم

إن الحمد لله ، نحمده و نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

أما بعد : فإن الله سبحانه وتعالى قد أكرمنا وأكرم البشرية جمعاء بالرسالة الخاتمة.. بالإسلام الذى ارتضاه لنا دينا، ومحمد بن عبد الله الذى بعثه الله نبيا ورسولا، وأرسله بالحق بشيرا و نذيرا، بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** ﴾[فصلت :٢-٥] (١).

رسالة عظيمة خالدة، وكتاب عربى عظيم مبين، ورسول صادق أمين، ومع ذلك رفض مشركو مكة دعوة الحق، وكانوا - وخصوصا كبراءهم - كما وصفهم القرآن بقوله ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** ﴾ [إبراهيم :٣] (٢).

وناصبوا محمدا ﷺ العداء حين سمعوا أول نداء مجهور بالدعوة الجديدة من رسول الله ﷺ، عندما وقف على الصفا يدعو قومه : «**إنى نذير لكم بين يدىْ عذاب شديد**». قال أبو لهب : تبّاً لك . ألهذا دعوتنا؟!! فلما خوفه رسول الله ﷺ بالعذاب قال : «إن كان ما يقوله ابن أخى حقا فإنىَ أفتدى منه بمالى وولدى»، فينزل قوله تعالى : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ...** ﴾(٣).

---

(١) أكنة: أغطية . وقر : ثقل. [تفسير الجلالين ٦٣٠].

(٢) يستحبون : يختارون ويفضلون. سبيل الله: الإسلام . عوجا: معوجة. [تفسير الجلالين ٣٢٩].

(٣) انظر: تفسير الجلالين ٨٢٥.

وكان إعلان يوم الصفا إيذانا ببداية عداوة طويلة المدى للرسول ﷺ والمسلمين، وأخذ استشعار العداوة العاتية صورة عملية بالاضطهاد والإيذاء والتعذيب على ما هو معروف فى السيرة.

وعلى مدى ثلاثة عشر عاما أخذ المشركون يتهمون الرسول ﷺ بالكذب والكهانة والسحر والجنون، ويلاحقونه – إذا ما دعا – مكذبين ساخرين، ويشنون عليه حرب دعاية كاذبة إذا ما جاء الحجيج فى الموسم ، ونشروا من رجالهم، من يقوم بذلك بين العرب الوافدين ، وأم جميل – زوجة أبى لهب – تلقى الشوك فى طريقه حتى يدمى قدميه، وزوجها يجبر ولديه على تطليق زوجتيهما بنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، وغيره يلقى عليه سقط شاة، وآخر يلقى على كتفيه ورأسه سقط بعير!

وعذب المسلمون من المستضعفين بالضرب والجرّ والقيد ووضع الصخور المحماة على صدورهم، وبعضهم لاقى ربه شهيدا مثل ياسر وزوجته سمية بنت خياط أم عامر.

وكان النبى ﷺ حزينا لما ينزل بالمسلمين من شدة وتعذيب، ولكن حزنه الأكبر كان بسبب حرصه الشديد على إسلام قريش، وخصوصا الكبراء منهم تطلعا إلى إسلام من وراءهم من أتباعهم، ومن عامة الناس. وقد لامه الله سبحانه وتعالى على حزنه الشديد هذا فى قوله ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ [الكهف:٦].

وكانت الهجرة الى المدينة حيث استقر النبى ﷺ والمهاجرون من المسلمين بها، وينشئ النبى ﷺ «**الدولة الإسلامية**» التى قامت على أسس الإيمان والمحبة والإخاء، لتكون نقطة ارتكاز، ومنطلقا لنشر الدين الجديد خارج المجتمع المدنى. لكن الأمور لم تكن سهلة فى المدينة؛ فقد ظهر فيها للدعوة الناشئة أعداء ثلاثة لكل منهم منطقه وحيثياته الخاصة، ولكنهم يلتقون فى هدف واحد، وهو القضاء على الوافد الجديد محمد بن عبدالله ﷺ ومن معه من المهاجرين، والقضاء على الدعوة الجديدة التى يرفع لواءها النبى محمد ﷺ والأعداء هم:

١ـ المنافقون : وعلى رأسهم عبدالله بن أبى ابن سلول؛ لأنه شعر أن «**الوافد الجديد**» قد

(١) باخع: مهلك . على آثارهم: بعد صدودهم وتوليهم عنك. الحديث : القرآن . أسفا: غيظا وحزنا. [تفسير الجلالين ٣٨١].

« سحب » الأرض أو البساط من تحت قدميه. وكان القوم من أوس وخزرج قد صنعوا له تاجا، ولم يبق على المناداة به ملكا على يثرب وما حولها إلا سويعات، فلما نادى المنادى بوصول محمد ﷺ انفض الناس من حول ابن سلول، والتفوا حول محمد ﷺ، و اعتنقوا الدين الجديد، فامتلأ قلبه بالحقد والكراهية، وعاش عبدالله بن أبى يدبر المؤامرات، ويحيك الفتن، ويكيد للإسلام ونبيه والمسلمين إلى أن قبضه الله.

٢ـ **اليهود**: وهم أربع قبائل أو أربعة تجمعات: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، وخيبر، وكانوا أصحاب حصون وزراعات وتجارات واسعة، وأموال طائلة. وكان باعث العداوة أنهم طمعوا فى أن يكون « النبى المبعوث » « معهم »، و« لهم »، حتى إنهم كانوا يهددون به غيرهم قبل بعثته، ويقولون «**إنه قد تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم**» (١). فلما بُعث، وعرفوا أنه نبى حق لا يمالئهم، ولا يناصرهم بالباطل كفروا به، وعادوه، ومالؤوا عليه (٢)، و فى ذلك يقول تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٨٩] (٣).

قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هُزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء، وقالت «**اللهم إنا نسألك بحق النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم**».

فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بُعث النبى ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ** ... ﴾ الآية(٤).

* * *

٢ـ **النصارى والأعداء الخارجيون**: ويتمثلون فى الفرس والروم ومن تابعهم من قبائل العرب، وهؤلاء بدءوا يتلمظون بعد أن وسع النبى ﷺ دائرة الدعوة بكتبه التى أرسلها إلى الملوك والأمراء فى هذه المناطق، فبدءوا يشعرون بهذا « الخطر الجديد ».

---

(١) أى نؤمن به ونشترك معه فى قتلكم والقضاء عليكم.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢٠٩.

(٣) كتاب: القرآن. ما معهم: التوراة. يستفتحون: يستنصرون. [تفسير الجلالين ١٨].

(٤) الواحدى: أسباب النزول ٣٥.

فأعداء الإسلام متعددون، وإن كان هدفهم واحدا كما ذكرت آنفا؛ وهو القضاء على الإسلام حرصا على سلطانهم، أو استعادة لمقامهم قبل ظهور هذه الدعوة.

والوسائل التى أخذ بها كل فريق لتحقيق هذا الهدف متعددة، ولكننا نكتشف أنها متشابهة عندهم جميعا، بل تكاد تكون متماثلة: كحرب الدعوة الجديدة، بالإشاعات، ومحاولة اغتيال النبى ﷺ .. إلخ.

وكل أولئك يعد دافعا قويا لدراسة هذا الموضوع «أعداء الإسلام ووسائل التضليل والتدمير».

١- لأن دراسته تعنى دراسة التاريخ الإسلامى دراسة استقصاء واستبطان، حتى يتمكن الباحث من «استخراج» هذه الوسائل، ومعرفة ما خفى منها.

* * *

٢- ولأن دراسته تقوى إيمان المسلم بربه ودينه ونبيه؛ لأنها تقود إلى فضح هذه القوى الإبليسية بما تستعين به من مكر وغش وكذب وخداع، بعكس ما يراه من عظمة الإسلام فى توجيه المسلم إلى سلوك «الدروب النظيفة» لتحقيق أهدافه.

فالهدف مهما كان نبيلا لا يجيز للإنسان اتخاذ الوسائل غير الشرعية، أو غير المشروعة لتحقيقه، إذ إن الغاية فى الإسلام لا تبرر الوسيلة.

* * *

٣- ولأن دراسته فى الماضى تعطينا «**فائدة وقائية**» للحاضر، أى التعلم من الماضى لحماية أنفسنا ومجتمعنا من العدوان الفكرى المذهبى فى واقعنا الحاضر، فالوقاية خير من العلاج، فإذا «فاتتنا الوقاية»، اتخذنا العدة «للعلاج»، وسنرى أن وسائل الشيوعيين والماسونيين لتحقيق هذه الغاية – وهى ضرب القيم والخلق والدين، فى وقتنا الحاضر- لا تكاد تختلف عن الوسائل التى اتبعها أعداء الإسلام قديما من كفار ومنافقين ويهود وزنادقة إلا فى الثوب العصرى الذى ارتدته، فلا إسراف ولا غلو إذا قلنا «ما أشبه الليلة بالبارحة».

* * *

٤- ولأن دراسته تدفعنا إلى ضرورة التحلى بالحذر الشديد فى التعامل مع هؤلاء الأعداء،

ومواجهة ما يقدمونه من أفكار وثقافات.

ومن ناحية أخرى تدفعنا إلى الالتزام بالدقة وبعد النظر، وحسن التدبير فى التخطيط الإعلامى، وتحديد وسائل الدعوة إلى الله على المستوى العالمى.

* * *

وقد جاء هذا البحث فى مدخل وخمسة فصول وخاتمة.

فالمدخل: عرض مفهوم التضليل وجوانبه.

- فحدد معنى التضليل فى الاستعمال اللغوى.
- وعرض المفهوم الاصطلاحى للتضليل.
- كما استعرض مفهوم التضليل فى السياقة القرآنية، وسياقة السنة النبوية.

* * *

وجاء الفصل الأول بعنوان:

(الأصول والجذور: أعداء الإسلام قديما: حقيقتهم وملامحهم النفسية والعَقَدِيّة).

عرضتُ فيه لفئات ثلاث كانت ضارية فى عداوتها لرسول الله ﷺ وللمسلمين. و هذه الفئات هى: الكفار، والمنافقون، واليهود.

وكان لهؤلاء كما سنرى – وسائلهم البغيضة الخسيسة فى محاربة الإسلام والمسلمين.

* * *

وعنوان الفصل الثانى: الوارثون على درب التدمير والتضليل.

وأعنى بهؤلاء أعداء الإسلام حديثا. والعنوان السابق يحمل فى طياته دلالة قوية على أن هؤلاء اتبعوا آثار القدماء من الضالين المضللين، و ساروا على نهجهم فى الدرب المنكود الموكوس.

واخترت من هؤلاء «**الوارثين**» - وما أكثرهم - فئات احتضنت الدعاوى والمذهبيات الآنية التى تحتل مكانها فى عالمنا المعاصر، وأهمها:

١ - **الاستشراق، والاستعمار، والتبشير**، وهى حلقات ثلاث فى سلسلة واحدة « ممسك بعضها - من الكفر - بعضا »، فالارتباط التاريخى والعقدى بين هذه « الثلاثية الضارية » شديد . . جد شديد .

٢ - **العلمانية**: التى يطلق عليها أنصارها « التنويرية »، وهم بالطبع « التنويريون »، أما المتمسكون بدينهم، الذين ينادون ويعملون على الأخذ به، وتحكيمه فى شتى جوانب الحياة، فهم « الظلاميون » أو « التظليميون »!

٣ - **الوجودية**: التى تسربتْ وتسللت إلى شرقنا العربى تحت مظلة الحرية المدعاة ، وشعار حق « الفرد » فى أن يتمتع بالحرية المطلقة دون قيود، وأن يكون له « المقام الأعلى »، وهم يعنون بالقيود القيم الدينية والاجتماعية والسلوكية.

٤ - **الشيوعية**: التى مازالت بعض الدول الأفريقية، ودول أمريكا اللاتينية تعتنقها، وتخلص الود لها، مع أن الاتحاد السوفيتى ما تفتت وانفرط عقده إلا بسببها، وتخلى عنها الروس أنفسهم بعد أن هبطوا إلى ما دون الفقر، وأفلت الدولة حتى إن ضباط الجيش الأحمر يتقاضون مرتباتهم - لا نقودا - ولكن « خضراوات » و« لفات من أوراق التنظيف » الخاصة بدورات المياه، وزجاجات من الفودكا! وذلك ليس بسر؛ لأن الصحف الروسية نفسها نشرت صور هؤلاء وهم « يحملون » مرتباتهم!!

٥ - **الماسونية**: وسنرى كيف كان للصهيونية « الفضل » الكبير عليها نشأة ووجودا وامتدادا، والتى تعيش الآن - بعد أن افتضح أمرها وساءت سمعتها - باسم جديد - أو أكثر من اسم - وأظهرها وأشيعها «**الروتارية**» التى أصبح لها مئات الأندية فى العالم.

* * *

وكل هذه المذاهب تلتقى فى الهدف الأساسى وهو تدمير الأديان والقيم الأخلاقية ، كما تتشابه وسائلها، بل تتماثل فى كثير منها. لذا كان لابد من شرح هذه الوسائل وفضحها وكان هذا هو موضوع الفصل الثالث الذى جاء بعنوان : **من وسائل التضليل والتدمير**.

وهى الوسائل التى اتخذها أهل الضلال والتضليل وأهمها:

١ - الإحسان، والمساعدات الاجتماعية .

٢ – التعليم وخصوصا المرحلة العليا منه.

٣ – التلفيق الدينى بدعوى « توحيد الأديان » ما دام « المصدر » واحداً، والجوهر الأساسى فى الأديان واحدا.

٤ – المغالطات، والتحريف، والإساءة إلى الأصول والقواعد الإسلامية، والتراث الإسلامى، بالهجوم على اللغة العربية، ووصمها بالعجز والقصور، وتجريح شخصية رسول الله ﷺ وصحابته، والتشكيك فى مبادىء الإسلام وقواعده وقيمه.

٥ – البث الإعلامى بتقنية عالية جدا عن طريق الأقمار الصناعية، وقنوات الفضاء، والإنترنت، وغيرها، وقد أطلقت على هذه الآلية الخبيثة «**القصف الإعلامى**»؛ لأنها تؤدى إلى « تخريب الإنسان » عقيدة وفكرا وخلقا، كما يؤدى القصف المدفعى أو الصاروخى إلى تدمير المنازل والمصانع والمبانى، وتخريب القرى والمدن، وكما يدعى القاصفون بالمدافع والصواريخ أنهم إنما يفعلون ذلك لإقرار الأمن والسلام، كذلك يدعى أصحاب القصف الإعلامى أنهم يقدمون ما يقدمون بدافع التثقيف والتنوير!

* * *

وبعد نسف المركز التجارى الأمريكى، والضربات المفاجئة التى نزلت بالولايات المتحدة فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١، أصبحت المسألة أكبر من كونها قصفا إعلاميا، بل تحولت إلى حرب حقيقية.. حرب عسكرية، واقتصادية، وسياسية، ودينية، وإعلامية أي حرب بمفهومها الشامل ضد الإسلام والمسلمين، يمكن اعتبارها واحدة من الحروب الصليبية، وإن فاقت الحروب الصليبية السابقة بالإمكانات المادية والتقنية الهائلة، مع غياب القوة الإسلامية أو العربية القادرة على التحدى والتصدى، بل كان هناك من حكامنا وكبارنا من مالئوا القوى الصليبية إما رهبة، وإما رغبة.

واتسم أعداؤنا – فى تعصبهم الصليبى – بالوقاحة والطيش والاستهتار والاستعلاء، وكان الحكومات والشعوب العربية والإسلامية عهن منفوش، أو غثاء كغثاء السيل، ولا يتسع المقام لاستعراض كل مظاهر هذه الحرب، ولكن نقف – بإيجاز – أمام مظهرها الإعلامى الدعائى الافترائى: فإمبراطور الكون بوش الابن يصف حربه ضد المسلمين بأنها حرب صليبية، كما أنه يزعم أنه بإعلانه هذه الحرب، إنما يدافع عن الحضارة الغربية..

حضارة اليهود والمسيحيين، مواجها بهذه الحرب من يقتل اليهود والمسيحيين، يقصد العرب والمسلمين.

ويصف «تونى بلير» – رئيس وزراء انجليرا – هذه الحرب بأنها حرب المدنية والحضارة فى الغرب، ضد البربرية فى الشرق. وفى ٢٦ من سبتمبر ٢٠٠١ أعلن «سيلفيو بيرلسكونى» – رئيس وزراء إيطاليا – أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية، ولابد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام الذى يجب أن يُهزم لأنه لا يعرف الحرية، ولا يعترف بحقوق الإنسان.

ووتستبد الوقاحة والتعصب الخسيس «بجون اشكروفت» – وزير العدل الأمريكى – فيسب الله سبحانه وتعالى، فيقول: إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس (يقصد السيد المسيح)، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل الإله»(١).

وقد استغل أعداء الإسلام الضربة القاصمة التى نزلت بالولايات المتحدة فى ١١ من سبتمبر ٢٠٠١، وأحداثا أخرى وقعت قبلها وبعدها.. استغلالا سيئًا، ووجدوا فيها فرصة سانحة لا لإلصاق التهم بالمسلمين – فحسب – ولكن بالإسلام وقيمه أيضا، وإن كان لذلك أشباه وسوابق عرضنا لها فى الفصل السابق، **ورأينا الأفاكين الذين تولوا كِبْر الحرب الصليبية ينشرون أكذوبتين ضالتين مضلتين:**

الأولى: أن الإسلام فى طبيعته دين إرهاب، يدعو أتباعه إلى استعمال القوة الغاشمة، وسفك دماء الآخرين لإكراههم على اعتناق مبادئهم وعقائدهم، وأخذ أنفسهم بالسياسة التى يريدون.

والثانى: أن الحضارة الإسلامية **حضارة متخلفة** إذا قيست بالحضارات الأخرى، وخصوصا حضارة الغرب، وكل أولئك، عرضنا له فى الفصل الرابع «**حديث الإفك: إسلام إرهاب وتخلف حضارى**».

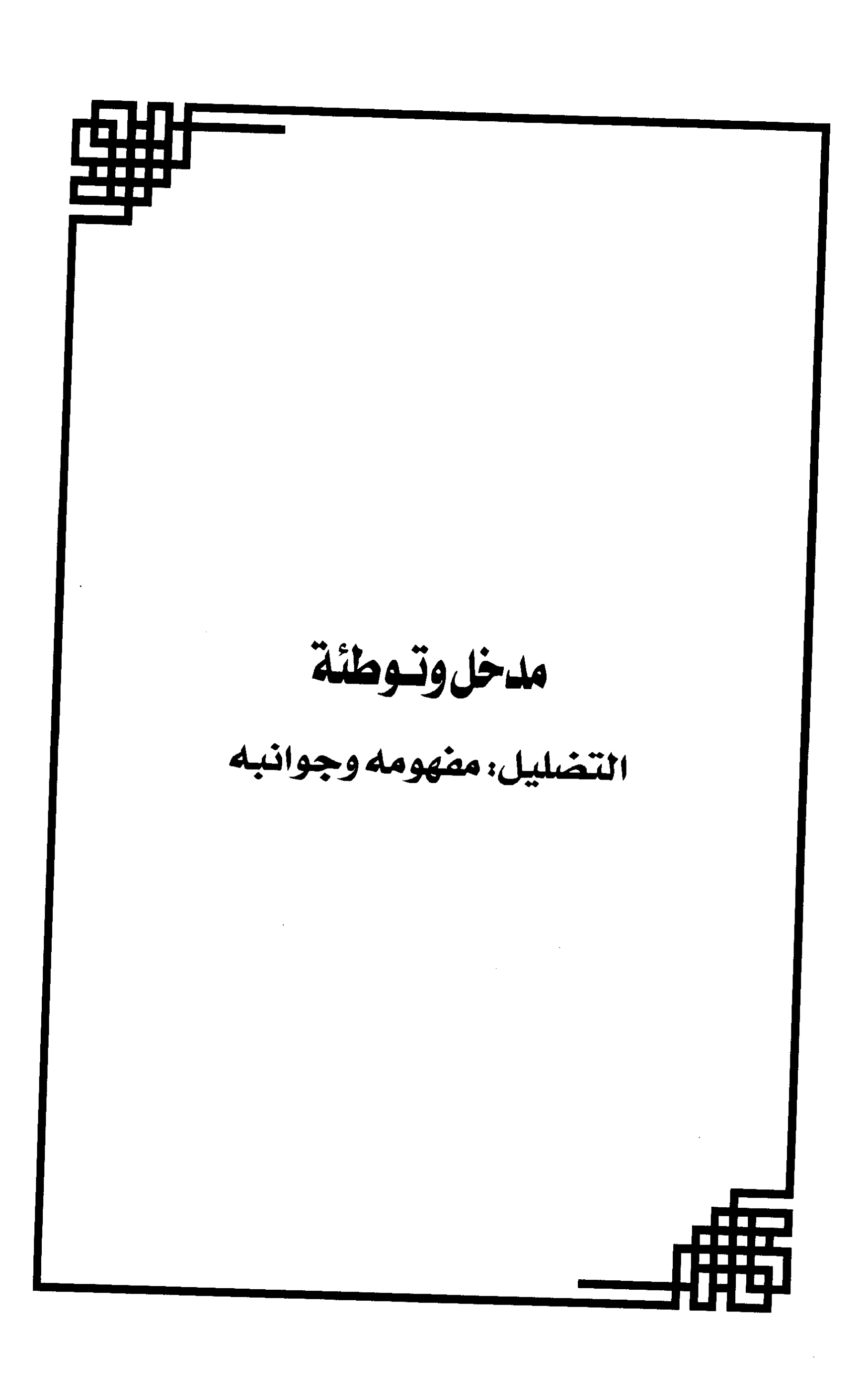
* * *

(١) انظر مقال الدكتور محمد عمارة: الهجمة الأمريكية على الإسلام» صحيفة آفاق عربية ٢٠/٦/٢٠٠٢. ومقال د. وليد عبدالناصر: «اليسار الإيطالى وحوار الحضارات» – الأهرام ٢٨/١١/٢٠٠١ ومقال أسامة أنور عكاشة «العيب فى الذات الأمريكية» – الوفد ١٧/٢/٢٠٠٢.

وخلصنا بعد ذلك إلى **الفصل الخامس** الذى قدمنا فيه بعض «**وسائل الوقاية والعلاج**» التى تتناول جوانب التربية والتعليم والعقيدة والسلوك وغيرها. وتمثل رؤية أدعو الله أن تكون صحيحة سديدة.

ثم جاءت **الخاتمة** بنظره اجتهادية آملة للمستقبل فى ضوء الواقع الصعب الذى نعيشه. والحمد لله رب العالمين، فهو المستعان. وهو ولى التوفيق.

د. جابر قميحة



مدخل وتوطئة

التضليل: مفهومه وجوانبه

المعنى اللغوى:

الضَّلال والضَّلالة والضَّل والضُّل والأُضْلُولة والضُلْضُلَة والضِّلة والضَّلَل ضد الهدى[1].

وضلول كضال، وأضلّه جعله ضالاً، والإضلال ضد الهداية والإرشاد، قال لبيد فى جاهليته:

من هداه سُبُلَ الخير اهتدَى

ناعمَ البال ومن شاء أضَل

فوافق قولُه التنزيل العزيز ﴿ وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل: ٩٣].

ويقال: أضللتُ الشيء إذا غيبته، وأضللت الميت دفنته. وإذا لم تعرف المكان قلت: ضللْتُه، وإذا سقط من يدك شيء قلت أضْللتُه، وإذا سقطتْ الدراهم عنك فقد ضلَّتْ عنك. وتقول للشيء الزائل عن موضعه: قد أضللتُه، وللشيء الثابت فى موضعه إلا أنك لم تهتد إليه ضللتُه، والضالّة من الإبل: التى بمضيعة لا يعرف لها ربّ، والذكر والأنثى فى ذلك سواء.

وقد تطلق الضالة على المعالى، ومنه « الكلمة الحكيمة ضالة المؤمن »، وفى رواية « ضالة كل حكيم »، أى لايزال يتطلبها كما يتطلب الرجل ضالته.

وضل الشيءُ: خفى وغاب، وضل الناسى إذا غاب عنه حفْظ الشيء، ويقال: أضللْتُ الشيءَ إذا وجدتُه ضالاً، كما تقول أحْمدتُه، وأبخلتُه إذا وجدته محموداً وبخيلاً.

والـمُضِل: السراب، ويقال: ضلنى فلان فلم أقدر عليه، أى ذهب عنى.

وأضلّه: أضاعه وأهلكه، والضلال النسيان، وأضل البعير والفرس: ذهبا عنه، قال أبو عمرو: أضللتُ بعيرى إذا كان معقولا فلم تهتد لمكانه، وأضللتُه إضلالا إذا كان مطلقا فذهب، ولا تدرى أين أخَذَ، وكل ما جاء من قِبَلك قلتَ ضللتُه، وما جاء من المفعول به قلت أضللته، قال أبو عمرو: وأصل الضلال الغيبوبة، يقال ضل الماء فى اللبن إذا غاب، وضل الكافر إذا غاب عن الحجة، وضل الناسى إذا غاب عنه حفظه.

---

(١) الفيروز أبادي: القاموس المحيط ١٣٢٤.

قال ابن سيدة: ... وتضليل الرجل: أن تنسبه إلى الضلال، والتضليل تصيير الإنسان إلى الضلال والتَّضْلال. والضَّلْضَلة: الضلال، وأرض مَضلّة ومَضَلّة، يضل فيها ولا يهتدى فيها للطريق، وفلان يلومنى ضلَّةً: إذا لم يوفق للرشاد فى عذله. وفتنة مضلّة: تضل الناس.

ورجل ضِلِّيل: كثير الضلال، ومضَلَّل: لا يوفق لخير، أى ضال جداً، والضِّلِّيل: الذى لا يقلع عن الضلالة، والضليل المبالغ فى الضلال، والكثير التتبع له.

والأُضْلولة: الضلال، قال كعب بن زهير:

كانت مواعيدُ عُرْقوب(١) لها مثلاً

وما مواعيدُها إلا الأضاليلُ

ويقال: فلان ضُلُّ بن ضُلّ: أى منهمك فى الضلال، وقيل: هو الذى لا يُعرف أبوه، وقيل: هو الذى لا خير فيه، وقيل: هو الذى لم يدر من هو، وممن هو.

وضل الرجل: مات وصار تراباً، فَضَلَّ فلم يتبينْ شىءٌ من خَلْقه، وفى التنزيل العزيز: ﴿ **أئذا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ** ﴾[السجدة: ١٠]، معناه: أإذا متنا وصرنا تراباً وعظاماً فضللنا فى الأرض، فلم يتبين شىء من خلْقنا، وأضللتُه: دفنته، قال المخبل السعدى:

أضلَّتْ بنُو قيس بن سعد عميدَها

وفارسَها فى الدهر قيسَ بن عاصم

والضَّلَل: الماء الذى يجرى تحت الصخرة لا تصيبه الشمس، يقال: ماء ضَلَل، وقيل: هو الماء الذى يجرى بين الشجر، وضَلاضِلُ الماء: بقاياه(٢).

الضلال فى الاصطلاح:

والضلال اصطلاحاً: هو العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية، قال تعالى: ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ [يونس: ١٠٨].

---

(١) عرقوب رجل من العماليق يضرب به المثل فى إخلاف الوعد [انظر الميدانى: مجمع الأمثال ١/٢٦٣، ٢/٢٦٧].

(٢) انظر ابن منظور: لسان العرب ٣/٢٦٠١ - ٢٦٠٤.

ويقال الضلال لكل عُدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، فإن الطريق المستقيمْ الذى هو المرتضى صعب جداً(١).

وصح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأٌ ما، ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بَوْنٌ بعيد. قال تعالى فى النبى ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧]، أى غير مهتد لما سيق إليك من النبوة، وقال فى يعقوب: ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقال أولاده: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨]، إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه.

والضلال من وجه آخر ضربان:

الأول: ضلال فى العلوم النظرية: كالضلال فى معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة ونحوهما المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١٣٦].

الثانى: ضلال فى العلوم العملية: كمعرفة الأحكام الشرعية التى هى العبادات، والضلال البعيد فى الآية السابقة إشارة إلى ما هو كفر، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ١٦٧].

* * *

والإضلال ضربان:

الأول: أن يكون سببه الضلال، بأن يضل عنك الشىء، كقولك: أضللتُ البعير أى ضل عنى، أو أن تحكم بضلاله، والضلال فى هذين سبب الإضلال.

والثانى: أن يكون الإضلال سبباً للضلال، وهو أن يزيِّن للإنسان الباطل ليَضل، كقوله تعالى: ﴿ ... لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ [النساء: ١١٣]، أى يتحرون أفعالاً يقصدون بها أن تضل، فلا يحصل من فعلهم ذلك إلا ما فيه ضلال أنفسهم، وقال فى الشيطان: ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ٦٠].

(١) الراغب الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن ٣٠٠.

وإضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال: وهو أن يضل الإنسان، فيحكم الله عليه بذلك فى الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار فى الآخرة، وذلك إضلال هو حق وعدل.

والثانى: هو أن الله تعالى وضع جِبِلَّة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً ألفه واستطابه ولزمه، وتعذر صرفه وانصرافه عنه، ويصير ذلك كالطبع الذى يأبى على الناقل، ولذلك قيل: **العادة طبع ثانٍ**، وإذا كان كذلك... فصح أن ينسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه، فيقال: أضلّه الله... وجعل هذا الإضلال المنسوب إلى نفسه للكافر والفاسق دون المؤمن، بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن فقال: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ**﴾ [التوبة: ١١٥]، ﴿... **فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ**﴾ [محمد: ٤، ٥]، وقال فى الكافر والفاسق: ﴿**فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٨]، ﴿**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ**﴾ [غافر: ٧٤]، ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وعلى هذا النحو تقليب الأفئدة فى قوله: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١١٠]، والختم على القلب فى قوله: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ [البقرة: ٧]، وزيادة المرض فى قوله: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾ [البقرة: ١٠][١].

* * *

فى السياقة القرآنية:

وبالنظر فيما سبق نجد أن مادة (ض. ل. ل) تعطى معنى العدول والانحراف والفقد والتيه والغياب أو التغييب الحسى والتغييب النفسى (النسيان).

والمعنى الأول – أى استعمال الضلال بمعنى الانحراف عن الحق والرشاد – هو الأكثر استعمالاً فى القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ**

---

(١) انظر الراغب الأصفهانى: المفردات ٣٠١ – ٣٠٢.

الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ [النحل: ١٢٥].

* * *

وفى عدد من الآيات استعمل « **الضلال** » بمعنى الغياب والتخلف، كما نرى فى قوله تعالى: ﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً** ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ [القصص: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ [فصلت: ٤٨].

فالآيات الثلاث تشير إلى محنة تنزل بالكافرين فى الدنيا والآخرة، وكيف أن الأصنام التى كانوا يعبدونها غابت عنهم فى شدتهم، وهذا يدل على بطلان عبادتها، وسقوط وصف الإلهية الذى خلعوه عليها.

* * *

واستعمل الضلال بمعنى الدفن، وهو قريب من المعنى السابق، لأنه تغييب للميت فى باطن الأرض، يقول تعالى عن منكرى البعث: ﴿ **وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون** ﴾ [السجدة: ١٠].

وجاء الضلال بمعنى النسيان فى آية واحدة، وهى آية المداينة فى مجال ذكر الشهادة، يقول تعالى: ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أى إذا نسيت إحداهما شيئاً من موضوع الشهادة ذكّرتها الأخرى.

* * *

وجاء الضلال بمعنى التيه وعدم الوصول إلى الهدف المنشود، وذلك على لسان أصحاب الجنة فى قوله تعالى: ﴿ **فلما رأوها قالوا إنا لضالون** ﴾ [القلم: ٢٦].

إنهم الإخوة الذين عزموا على حرمان الفقراء والمساكين من ثمار جنتهم، وتسللوا فى الصبحة الباكرة لجنى ثمارها، حتى لا يشعر بهم أحد، فصيرها الله متفحمة سوداء، فلما وصلوا إليها اعتقدوا أنهم قد ضلوا الطريق إليها، ثم ثابوا إلى الصواب، واستغفروا الله وتابوا إليه.

* * *

ويتعدى الفعل بالهمزة (أضل – يُضل) بمعنى يحمله أو يسوقه إلى الضلال، ولكنه يستعمل بمعنى آخر، كما نرى فى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [محمد: ١]، وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ [محمد: ٨]، فمعنى أضل أعمالهم: أبطل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم الله بها فى الدنيا ولا فى الآخرة، بل أوبقهم(١) بها فأصلاهم سعيرا(٢).

فالإضلال هنا بمعنى الإحباط والإبطال، فالعمل الصادر من الكافر – حتى لو كان خيّراً بالمفهوم العام – لا قيمة له ولا ثواب عليه، وثمة تأويل آخر للآية يعتمد على المعنى الأصلى للإضلال، أى جعل أعمالهم معمولة على غير هدى ولا استقامة، لأنها عملت فى طاعة الشيطان، لا فى طاعة الرحمن(٣).

وبالتأويل الأول فسرت كلمة « **التضليل** » فى قوله تعالى عن أصحاب الفيل: ﴿ **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ** ﴾ [الفيل: ٢].

فالتضليل هنا بمعنى التضييع والإبطال والخسارة والهلاك، وكل أولئك ما أصاب أبرهة ورجاله، لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبْى، والبيت بالتخريب والهدم(٤).

* * *

وقد ذكر الراغب الأصفهانى – على سبيل الإشارة – أن الضلال قد ينسب إلى

---

(١) أهلكهم بسببها.

(٢) محمد بن جرير الطبرى: جامع البيان عن تأويل آى القرآن (تفسير الطبرى) ٢٦ / ٦٠.

(٣) الطبرى السابق الصفحة نفسها.

(٤) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٧٢٨٥.

الأنبياء، ولكن هناك فارقاً شاسعاً بين ضلال الأنبياء وضلال الكافرين، وهذا يحتاج لشيء من التفصيل:

قال تعالى في مقام ذكر نعمائه على نبيه ﷺ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧][(١)].

ومن البدهي أن الضلال هنا غير الضلال المسند إلى الكفار بمعنى العدول والانحراف عن طريق الهدى والحق والسداد. ومن الروايات في تفسير الآية:

١ – كان محمد ﷺ على أمر قومه أربعين عاماً، ثم بعثه الله نبياً ورسولاً، وقريب من ذلك: وجدك في قوم ضلال فهداك.

٢ – وجدك على غير ما أنت عليه اليوم فهداك[(٢)].

وهذا يعني أن المقصود بالهدى – وهو من فضل الله – نقل محمد ﷺ إلى مقام النبوة والرسالة، ويميل ابن كثير إلى هذا الرأي[(٣)]، فيرى أن قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ كقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

٣ – الضلال معناه الغفلة، كما في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢]،

---

(١) سورة الضحى وهي السورة الحادية عشرة نزولاً ومن الروايات التي عرضها ابن كثير في تفسيره «الضلال» هنا: رواية من قال: إن النبي ﷺ ضل في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع، وقيل إنه ضل وهو مع عمه في طريق الشام وكان راكباً ناقة في الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق، ونسب ابن كثير الروايتين إلى البغوي [ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٨/٢٤٤].

هذا وقد ذكر الألوسي الروايتين بتفصيل وإسناد، ونقل رواية ثالثة خلاصتها أن التي أضلته هي مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب، ويعلق الألوسي على الروايات الثلاث بقوله: فضالاً على هذه الروايات من ضل في طريقه إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده، وضعف حمْل الآية على ذلك بأن مثله بالنسبة إلى ما تقدم لا يعد من نعم الله تعالى على مثل نبيه ﷺ التي يمتن سبحانه بها عليه [الألوسي روح المعاني ٣٠/٢٩١ – ٢٩٢]، وربما كانت هذه الروايات وخصوصاً الأولى والثانية من الإسرائيليات.

(٢) الطبري: ٣٠/٩٣. (٣) ابن كثير ٨/٢٤٤.

وقوله: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

والمعنى: أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة.

٤ – وقيل: وجدك طالباً للقبلة فهداك إليها كما فى قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة: ١٤٤] ويكون الضلال بمعنى الطلب.

٥ – وقيل: وجدك محباً للهداية، فهداك إليها، ويكون الضلال بمعنى المحبة، ومنه قول الشاعر:

عجباً لعزّةَ فى اختيار قطيعتى

بعد الضلال فحبْلها قد أخْلَقا(١)

والتأويل الرابع غير سديد لأن آية الضحى مكية بلا جدال، أما آية تحويل القبلة فهى مدنية على اليقين، فبعد هجرة النبى ﷺ من مكة إلى المدينة ظل قرابة عام ونصف العام يصلى نحو بيت المقدس، وكان يحب أن يتوجه نحو الكعبة فاستجاب الله له، فأنزل عليه قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ.... ﴾ [البقرة: ١٤٤] (٢).

فسورة الضحى نزلت قبل البقرة بقرابة عشر سنين، وذكْر نعماء الله سبحانه وتعالى على رسوله جاءت كلها بالفعل الماضى: فآوى – فهدى – فأغنى..

أما التأويل الخامس ففيه تكلف واعتساف، ممَّا لا يتفق مع بلاغة القرآن.

* * *

وينفى الله سبحانه وتعالى الضلال والاستجابة للتضليل عن نبيه ﷺ، كما نرى فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦](٣)، فالآية إدانة للكفار – وقد كانوا أكثر مَنْ فى الأرض – بأنهم على ضلال، وعلى كذب بيِّن، وتبرئة للنبى من أن يطيعهم بعد هذه

---

(١) الشوكانى: فتح القدير ٥/ ٥٧٩ – ٥٨٠. والبيت لكثير [انظر: لأبى الفرج الأصفهانى: الأغانى ١٦/ ٥٩٤٨].

(٢) انظر للواحدى: أسباب النزول ٤٥، وللسيوطى: باب النقول ٢٦.

(٣) يخرصون: يكذبون. [تفسير الجلالين ١٨٢].

الإدانة، يؤكد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [الأنعام: ١١٧].

وكيف يضل رسول الله ﷺ وقد عصمه الله بفضله ورحمته، وأنزل عليه كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلّمه الحكمة وما لم يكن يعلمه من قبل؟ أولئك تحصينات حامية، تبطل كل محاولة من الأعداء لتضليله وإبعاده عن الحق، فالإضلال الخائب عائد عليهم بالإخفاق الذريع في الدنيا، والعذاب في الآخرة، يقول تعالى: ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً** ﴾ [النساء: ١١٣].

* * *

ونسب الضلال إلى يعقوب عليه السلام بمعنى الخطأ ومجانبة الصواب، وذلك على لسان أبنائه، لأنه كان يحب يوسف وأخاه «بنيامين» أكثر منهم: ﴿ **إذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [يوسف: ٨].

وبعد سنوات يحدِّث الأب المفجوع أبناءه أنه يجد ريح يوسف: ﴿ **قَالُوا تَاللَّهِ إنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ** ﴾ [يوسف: ٩٥]، وضلاله القديم - من وجهة نظرهم - هو حبه ليوسف، وتعلقه به، وحزنه الشديد على فراقه حتى ابيضت عيناه من الحزن.

* * *

وأخيراً نرى «الضلال» قد استعمل مرادفاً «للكفر»، كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ **قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ إنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ** ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿ **إنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ** ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]

والخلاصة: أن الضلال – فى السياقة القرآنية – قد استعمل بمفهومه الاصطلاحى الذى عرضناه سابقاً، وهو العدول والانحراف عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية، وجاءت الكلمة فى القرآن الكريم ومشتقاتها بمعان أخرى مثل الخطأ والغياب والتخلف والبطلان والإحباط والنسيان والغفلة والضياع والهلاك، وكلها معانٍ اتسعت لها اللغة العربية، وترتبط بالمعنى الاصطلاحى على نحو من الأنحاء.

* * *

فى سياقة السنة النبوية

فى الحديث الشريف استعملت الضالة بمفهومها المادى المعروف، وهو الناقة التى فقدها صاحبها، فهو يبحث عنها، وذلك فى مقام الدعوة إلى مراعاة حرمة المسجد، كما نهى عن البيع والشراء فيه؛ فالمسجد هو بيت الله له كرامته وحرمته. وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد فيه الضالة فقولوا: لا ردها الله عليك**»(١).

وبنفس المعنى استخدمت «**الضالة**» فى رواية الجارود العبدى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ضالة المسلم حرق النار، ضالة المسلم حرق النار، ضالة المسلم حرق النار، لا تقربنها، قال: فقال رجل: يا رسول الله: اللقطة نجدها؟ قال: انشرها، ولا تكتم ولا تغيِّب، وإن جاء ربها فادفعها إليه، وإلا فمال الله يؤتيه من يشاء**»(٢).

أى أن على ملتقط الضالة أن يعرّفها، ويعلن عنها، ولا يكتمها ويسترها، فإذا ما ظهر صاحبها دفعها إليه.

* * *

وتطرد الأحاديث النبوية فى استعمال الضلال بمفهومه المعنوى، أى الانحراف عن الحق، فنرى فى الحديث التالى ما يصيب المسلم، وما يتعرض له من انحراف إذا تعلق بشىء ليس من دينه، وقد أغناه دينه عن كل مصدر ومورد، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، عن جابر رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه **أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ، ووجه رسول الله يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فنظر إلى وجهه ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله، ومن غضب رسوله، رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، فقال رسول الله ﷺ: والذى نفس محمد بيده، لو بدا لكم**

---

(١) المستدرك: كتاب البيوع (١٩) - حديث ٢٣٣٩ - ٢/٦٥، وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وأخرجه الدارمى فى سننه: كتاب الصلاة (٢) باب النهى عن استنشاد الضالة.. (١١٨) حديث ١٣٧٣ - ١/٣٤٧.

(٢) أخرجه ابن ماجة: كتاب اللقطة (١٨) باب ضالة الإبل... (١) - حديث ٢٥٠٢ - ٢/٢٩٤. وأحمد فى مسنده بإسناد صحيح: ١٦٢٦٦ - ١٢/٥٢١، ٢٠٦٣٢ - ١٥/٣١١، ٢٠٦٣٧ - ١٥/٣١٣.

موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حياً وأدرك نبوتى لاتبعنى(١).

ففى الإسلام الكفاية، وفى القرآن الكفاية والغناء: **عن يحيى بن جعدة قال: أُتى النبى ﷺ بكتف فيه كتاب، فقال: كفى بقوم ضلالاً أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى ما جاء به نبى غير نبيهم، أو كتاب غير كتابهم، ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ....﴾** [العنكبوت: ٥١](٢).

وهذا ما أكده وفصلّه رسول الله ﷺ فيما يرويه على بن أبى طالب كرم الله وجهه، قال: أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **ستكون فتن، قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذى من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، هو الذى من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم»**(٣).

والله سبحانه وتعالى هو مصدر الهداية، وهو الذى يهيىء أسبابها لعباده المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ يلح على هذا المعنى، ويكرره فى خطبه، عن جابر رضى الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ يقوم فيخطب، فيحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله ويقول: «من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة»**(٤).

* * *

---

(١) الدارمى: المقدمة: باب ما يتقى من تفسير حديث النبى ﷺ وقول غيره عند قوله ﷺ (٣٩) حديث ٤٤١ - ١/١٢٢.

(٢) الدارمى: المقدمة: باب من لم ير كتابة الحديث (٤٢)، حديث ٤٨٤ - ١/١٣١ وتمام الآية: ... ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

(٣) أخرجه الدارمى: كتاب فضائل القرآن (٢٣)، باب فضل من قرأ القرآن (١) حديث ٣٢١١ - ٢/٨٩٣.

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده: حديث ١٤٩٢٤ - ١٢/٤٠، وإسناده صحيح.

ويحدثنا رسول الله ﷺ عن نعم أنعم الله بها على أمته منها ألا تجتمع على ضلالة، عن عمرو بن قيس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أدرك بى الأجل المرحوم، واختصر لى اختصاراً، فنحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة، وإنى قائل قولاً غير فخر: إبراهيم خليل الله، وموسى صفى الله، وأنا حبيب الله، ومعى لواء الحمد يوم القيامة، وإن الله عز وجل وعدنى فى أمتى، وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة**»(١).

* * *

وهناك أحاديث متعددة تدور حول الضلال الذى يقود إلى الإضلال، فيتعدى الضلال من صاحبه إلى غيره: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن قبض العلم قبض العلماء، فإذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فيسألون، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»(٢).

فهى ضلالة مركبة، تؤثم صاحبها لأنه ضل، ثم بعد ذلك يحمل من الأوزار مثل ما يحمل من اتبعه، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً**»(٣).

والتأثير بالاقتداء يكون أبلغ وأقوى إذا كان القدوة فى مركز إمامة أو قيادة أو موضع

---

(١) الدارمى: المقدمة. باب ما أعطى النبى من الفضل (٨) - حديث ٥٤ - ١/٣٣. يعمهم بسنة: يصيبهم بمجاعة ماحقة. يستأصلهم: يقضى عليهم جميعاً. [انظر القاموس المحيط ١٦١٠].

(٢) متفق عليه: فقد أخرجه البخارى فى كتاب العلم (٣). باب كيف يقبض العلم (٣٤) - حديث ١٠٠ - ١/٢٣٤. ومسلم: كتاب العلم (٤٧) - باب رفع العلم وقبضه. حديث (١٣) - ٥/٥٢٦.
وكذلك ابن ماجة: المقدمة. باب اجتناب الرأى والقياس (٨). حديث ٥٢ - ١/٥١. والدارمى: المقدمة. باب ذهاب العلم ٢٦. حديث ٢٤٣ - ١/٨٢.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب العلم (٤٧) باب من سن سنة حسنة أو سيئة (١٤) حديث ١٤ - ٥/٥٣١ وأبو داود فى كتاب السنة، باب لزوم السنة. حديث ٤٦٠٩ - ٤/٢٠٠. والترمذى: كتاب العلم (٤٢). باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى ... (١٥) - حديث ٢٦٧٤ - ٥/٤٣، وقال: حسن صحيح. وابن ماجة: المقدمة. باب من سن سنة حسنة أو سيئة (١٤) حديث ٢٠٦ - ١/١١٨.

يمكنه من التأثير فى الجماهير وخصوصاً العوام منهم؛ لذلك قال رسول الله ﷺ فيما يرويه ثوبان : «**إنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين**»(١) .

* * *

فالضلال جعله الإسلام مصطلحاً، ولم تستعمل الكلمة بهذا المفهوم الاصطلاحى فى العصر الجاهلى إلا نادراً كما رأينا فى بيت لبيد . والكلمة – إذا لم يكن معها قرينة تخصص معناها، أو قيد يحوله وجهة أخرى – كان معناها المروق من الإسلام أو الانحراف عنه، أو البقاء على الكفر، فكلمة فالضلال وما اشتق منها ظلت فى الغالب الأعم مرتبطة بالبعد الدينى إذا أطلقت بلا قيد أو تخصيص .

وليس من همنا تتبع تطور الكلمة ودلالاتها على مدار العصور، فهذا مبحث لغوى لا تتسع له صفحات هذا البحث، إلا أن المتتبع لأدبيات عصور ما بعد صدر الإسلام خطباً وشعراً، يجد أن «**الضلال**» ببعده الدينى والعقدى ظل قائماً، بل سائداً، ويكثر ذلك فى أدب الخوارج والأحزاب والفرق، وأصبحت كلمة **التضليل** – أى اتهام الآخرين بالضلال وترادف التكفير – مسوغاً لرفع السلاح فى وجوه الأمراء والولاة .

* * *

وفى العصر الحديث شهد العالم تقدماً هائلاً فى العلوم والمخترعات ووسائل العيش، وأصبح العالم كله – كما يقولون – «إناء بلا غطاء»، فالحدث الذى يقع فى بلد يكون أمام سمع العالم وبصره فى لحظات، وبقدر هذا التعدد فى معطيات العلم ووسائل العيش والمذاهب السياسية والدينية اتسع مفهوم الضلال ومدلوله، وأصبح **التضليل** وسيلة من وسائل الآخرين للسيطرة على العرب والمسلمين، وتعددت حقوله وميادينه التى يعمل فيها من دينية واجتماعية وسياسية وتعليمية وتربوية وغيرها . وساعد هؤلاء الآخرين – كما سنرى – إمكانات هائلة من المال والرجال، وتوظيف أحدث الوسائل العلمية

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الفتن (٣٤) . باب ما جاء فى الأئمة المضلين (٥١) . حديث ٢٢٢٩ – ٤ / ٥٠٤ . وقال : حديث حسن صحيح .

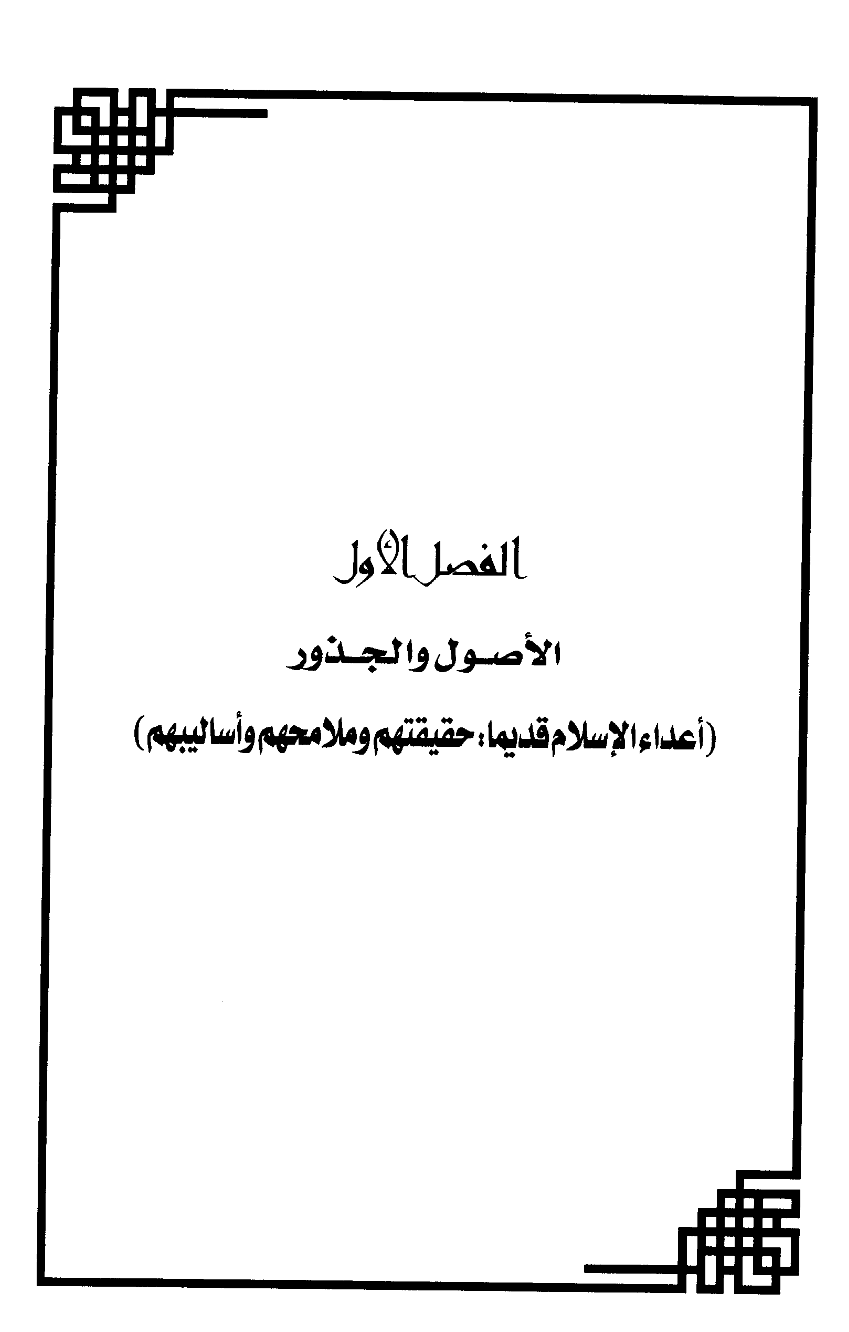
والدارمى : المقدمة : باب فى كراهة أخذ الرأى (٢٣) حديث ٢١٣ – ١ / ٧٥ .

وأخرجه أحمد فى المسند بإسناد صحيح عن ثوبان . حدث ٢٢٢٩٣ – ١٦ / ٢٩٣ .

والإعلامية لتضليل المسلمين. **والهدف الأصلى** من كل أولئك القـضـاء على الهـوية الإسلامية، والانسلاخ من دينهم وقيمهم الإنسانية والأخلاقية.

وقبل أن نعرض لهؤلاء فى العصر الحديث كان لزاماً علينا أن نعرض لأعداء الإسلام قديماً ووسائلهم فى التضليل، وهؤلاء يتمثلون فى الكفار والمنافقين واليهود، ويمثلون – بالوعى أو اللاوعى – مرجعية تاريخية وفلسفية لأرباب الضلال ومذاهبه فى العصر الحديث. وهذا ما نراه فى الفصل الأول من هذا البحث.

* * *



الفصل الأول

الأصـول والجـذور

(أعداء الإسلام قديما: حقيقتهم وملامحهم وأساليبهم)

١- الكفـــار

قضى محمد بن عبد الله – ﷺ – فترة شبابه – قبل أن يبعث نبيا ورسولاً – طيبا نقيا لم يسجد لصنم قط، «وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه إلى كل من رآه، وتجمعان إليه قلوب من عاشروه، وهى صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو.. وحسبك من حب الضعفاء إياه أن فتى مستعبداً يفقد أباه وأسرته – كزيد بن حارثة – ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة، فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه.

وحسبك من حب الأقوياء إياه أن جمع على محبته أناساً بينهم من التفاوت فى المزاج والخصال ما بين أبى بكر، وعمر، وعثمان، وخالد، وأبى عبيدة، وهم جميعاً من عظماء الرجال»(١).

وعرف محمد ﷺ فى شبابه بالصدق، والأمانة حتى اشتهر بين الناس «بالأمين». ومن الأحداث الدالة على ذلك أن قريشا حينما هدمت الكعبة، وشرعت فى بنائها من جديد، واختلفوا فيمن ينال شرف رفع الحجر الأسود ووضعه فى مكانه الأصلى، وكاد الاختلاف يؤدى إلى قتال دام إلى أن أشار عليهم أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله (وكان أسنهم) أن يحكموا أول داخل من باب المسجد، وكان محمد هو أول داخل، فقالوا جميعاً: هذا الأمين رضينا.. فوضع الحجر بيديه فى ثوب وطلب أن تأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده وبنى عليه(٢).

هو موقف اعترفت فيه قريش صراحة بأن محمداً هو (الأمين) قبل أن يبعث نبيا.

ومع بداية الدعوة لما نزل عليه ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد الصفا فقال: «ياصباحاه(٣)، **فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ قال: أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى؟ قالوا: بلى. قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» قال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا، وجمعتنا؟ فنزل**

---

(١) العقاد: عبقرية محمد ١/ ٢١.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ١٩٧.

(٣) كلمة كانوا يقولونها عند وقوع أمر عظيم ليجتمعوا ويتأهبوا له، وصيحة يطلقها رائد القوم لينذرهم بخطر من عدو.

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخره[١].

وهذه ثانية: أقروا فيها بصدق محمد ﷺ ونفوا عنه الكذب.

وإذا كانت قريش لقبت محمداً ﷺ بالأمين بلسان المقال، فإنها قالت ذلك بلسان الحال أيضاً.. فلم يكن القريشيون يأتمنون أحداً على ودائعهم إلا محمداً عليه الصلاة والسلام، وربما كان منهم من يؤذيه نهاراً، ويطرق بابه ليلاً ليحفظ وديعته عنده، وربما كان سبب تخلف «على» عن الهجرة هو إعادة الأمانات إلى أهلها، فهذه شهادة ثالثة جاءته هذه المرة بلسان الحال، شهادة عملية بأمانة الرسول ﷺ.

وإذا كان هذا هو إيمانهم بشخصية الداعى محمد بن عبد الله ﷺ، فما الذى غيّر نظرتهم، وحول حكمهم إلى الضد، مع ثبات خلقه وإقامته الحجة عليهم من أقوالهم وخصوصاً يوم الصفا، وهو ينذر عشيرته الأقربين؟ على أنهم فى مجموعهم - وهم أهل فصاحة وبلاغة - كانوا معجبين بالقرآن حتى قال الوليد بن المغيرة: «**والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لَعَذَق، وإن فرعه لجناة**»[٢].

فلماذا إذن حاربوه، وعذبوا من آمن به، ونفَّروا منه، ونهوا عن الاستماع إليه، بل إنهم كلفوا أتباعهم ومواليهم عند قراءة النبى للقرآن أن يأتوا باللغط والصياح حتى يغلب صوتهم صوته فيسكت عن القراءة؟

- ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ [سبأ: ٣١].

- ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦].

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضينا أن نتعرف على تركيبة المجتمع الجاهلى، فهو مجتمع طبقى: كانت هناك طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها وامتيازاً، فتترفع على الناس، ولا تشاركهم فى عادات كثيرة حتى فى بعض مناسك الحج، فلا تقف بعرفات، وتتقدم على الناس فى الإفاضة والإجازة[٣]. وقد أشار الله سبحانه وتعالى

---

(١) تفسير الطبرى من رواية ابن عباس ٣٠/ ٤٣٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٧٠. وهو يشبه القرآن بالعَذَق أى النخلة التى ثبت أصلها وقوى، وطاب فرعها إذا جنى. وانظر ١/ ٣١٥: كيف كان زعماء قريش يزحفون بالليل سرا للاستماع للنبى وهو يقرأ القرآن.

(٣) أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٧٠.

إلى ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩] . والخطاب لهؤلاء - ويلقبون بالحُمْس(١)- . وكانوا يقولون: نحن فطين الله (أي سكان حرمه)، فينبغي لنا أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئًا من الحل، وكانوا - مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام - لا يخرجون من الحرم، ويقفون بجمع(٢)، ويفيضون منه، ويقف الناس بعرفة، فقيل لهم: أفيضوا مع الجملة(٣).

عصبية مخبولة، واستعلاء شيطاني، وعناد سببه الحرص على المركز الاجتماعي السيادي، وعجبوا أن ينزل هذا القرآن على رجل كمحمد.

- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢] .

نعم استنكروا أن ينزل هذا القرآن على رجل فقير مثل محمد، ولا ينزل على سيد مكة الوليد بن المغيرة، أو سيد الطائف عروة بن مسعود الثقفي.

- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] .

ويؤيد ما ذهبنا إليه ما قاله أبو جهل للأخنس بن شريق: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكَب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه(٤).

وبلغ الشعور السيادي بالفوقية درجة التورم الخبيث، فعرضوا على النبي ﷺ «ثمناً لإسلامهم» أن يبعد عن مجلسه الفقراء، من أمثال أبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] (٥).

(١) الحمْس - جمع أحمس - هم المتشددون في دينهم - والشجعان [لسان العرب ٢/٩٩٥].

(٢) جمع (بفتح وسكون) هو المزدلفة. سمي جمعًا لاجتماع الناس به [ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/١٦٣].

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/٨٠٠.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣١٦.

(٥) وانظر للواحدي أسباب النزول ٢٤٤. وللسيوطي: لباب النقول ١٤٤.

ولما يئس كفار قريش من استمالة النبى ﷺ والاستجابة لهم، بدأت موجات من الإيذاء والتعذيب للمسلمين، وخصوصاً العبيد والضعفاء منهم، ولم يسلم النبى ﷺ من إيذائهم، حتى الإماء اللائى أسلمن نزل بهن تعذيب شديد، مما دفع أبا بكر إلى شرائهن وإعتاقهن(١).

* * *

وآن لنا أن **نسأل عن الوسائل التى اتخذها كفار مكة فى التضليل** لصرف الناس عن الإسلام، والتضليل كى يؤتى ثماره من وجهه نظرهم لابد من أن يستهدف شخصية الرسول من ناحية، والقرآن الذى نزل عليه من ناحية أخرى.

أولا : التضليل بالتعرض لشخصية الرسول :

١ - سبّه ورميه بأبشع الصفات وأخسها : فوصفوه بالشاعرية، والكهانة، والسحر، والجنون، والكذب، وقد عرض القرآن كل هذه التهم المفتراة، ودافع عن نبيه فى آيات متعددة، منها :

- ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الحاقة : ٤٠-٤٢] .
- ﴿ **وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾ [ص : ٤] .
- ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ﴾ [الحجر : ٦] .

* * *

ثانياً : التضليل بتشويه صورة القرآن :

فوصفوا القرآن بأنه سحر، وأنه أضغاث أحلام، وأنه أساطير مملاة على محمد، وأنه قول بشر :

- ﴿ **فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ** ﴾ [المدثر : ٢٤] .
- ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [سبأ : ٤٣] .
- ﴿ **بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ** ﴾ [الأنبياء : ٥] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣١٨ - ٣١٩ - محمد بن سعد : الطبقات الكبرى ٣/١٣٧ - ١٣٩ .

_ ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥] .

_ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] .

* * *

كان هذا هو القاسم المشترك بين تصرف الكافرين: الإساءة إلى الرسول ﷺ، والإساءة إلى الكتاب الذى نزل عليه، ثم هناك **المتابعة والملاحقة** حتى لا يتمكن النبى ﷺ من عرض دعوته، والتدخل لتشويهها، وتشويه شخصيته نفسها.

فمن أساليب الدعوة التى اتبعها الرسول ﷺ **عرض نفسه على القبائل** أيام الموسم، ودعوتهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر وغسان وبنو فزارة وبنو مرة وبنو حنيفة وبنو سليم وبنو عبس وبنو نصر وبنو عذرة وغيرهم، وجعل يقول: «**من رجل يحملنى إلى قومه، فيمنعنى، حتى أبلغ رسالة ربى، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى؟**».

وعمه أبو لهب وراءه يقول للناس: لا تسمعوا منه فإنه كذاب. وكان أحياء العرب يتحامونه لما يسمعون من قريش فيه إنه كاذب، إنه ساحر، إنه كاهن، إنه شاعر، أكاذيب يفترونه بها حسداً من عند أنفسهم وبغيا، فيصغى إليهم من لا تمييز له من أحياء العرب، وأما الألباء فإنهم إذا سمعوا كلامه ﷺ وتفهموه شهدوا بأن ما يقوله حق وصدق، وأن قومه يفترون عليه الكذب فيسلمون(١).

وفى الموسم تفرق عدد كبير من دهماء قريش ينشرون الأكاذيب عن رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس، ولكن رب ضارة نافعة، فقد كانت النتيجة كما قال ابن إسحاق «وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها»(٢).

وفى هؤلاء نزل قوله تعالى:

_ ﴿ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٠-٩٣] .

---

(١) المقريزي: إمتاع الأسماع ٣١.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٧٢.

والمقتسمون هم – كما قال مقاتل والفراء – ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، فأماتهم الله شر ميتة، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حكما على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبى ﷺ قال: صدق أولئك.

وجعلوا القرآن عضين: أى فرقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذبا وسحراً وكهانة وشعرا(١).

* * *

وما سبق جاء من قبيل الملاحقة الداخلية التى لم تتعد مكة وما حولها، ولكن هناك «ملاحقة خارجية»، فبعد هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة أرسلت قريش رجلين جلدين من رجالها هما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة، ومعهما الهدايا للنجاشى وبطارقته. فلما مثلا أمام النجاشى، وصفا المسلمين المهاجرين بأنهم غلمان عصاة سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دين النجاشى، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا يعرفه أحد، وطالبا بردهما إلى قومهما .

واستحضر النجاشى المهاجرين، وتكلم جعفر بن عبد المطلب، فشرح بعض قواعد الدين الجديد، وقرأ بعض آيات القرآن، فبكى النجاشى ومن معه، وقال: «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة». ووجه كلامه لرسولى قريش: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

ولم يستسلم الرسولان للهزيمة بل قصدا النجاشى فى اليوم التالى، وقال عمرو: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيما، فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه.

وكان جواب جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأمن النجاشى على قوله،

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى ٤ / ٣٦٧٤ – ٣٦٧٥، وانظر د. محمد بن مخلف: الحرب النفسية فى صدر الإسلام ٤١٤ – ٤١٥

وقال: «ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت». وأكد حمايته للمهاجرين، وتغريم من سبهم، وأمر برد الهدايا الرشاوى لمبعوثى قريش(١).

* * *

ومن وسائل الكفار فى **التضليل محاولة «تعجيزهم» لرسول الله ﷺ بمطالب لا يهضمها عقل**، ولا يستطيع أن يحققها أو يحقق بعضها إنس أو جن، فإذا ما ظهر عجز النبى عن ذلك، أشاعوا أنه ليس بنبى مرسل، لأنه عاجز عن الإتيان بالمعجزات. ومن هذه الطلبات التعجيزية ما عرضه القرآن الكريم فى الآيات التالية:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٨٩-٩٤].

ومن ناحية أخرى أرادوا «**توظيف الخبرة والمعارف اليهودية فى إحراج الرسول**»، فكفار قريش - فى غالبيتهم العظمى - كانوا أميين، أما اليهود فهم أهل كتاب وعلوم ومعارف وصناعات، فبعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طواف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هى؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم.

وعادا سعيدين إلى مكة، وطُرحت الأسئلة على محمد ﷺ، وبعد خمس عشرة ليلة

(١) انظر التفصيل فى سيرة ابن هشام ١/٣٣٣ - ٣٣٨.

نزلت سورة الكهف، وفيها الإجابة لما طرحوه من الأسئلة عن فتية أهل الكهف، والإسكندر ذى القرنين والروح[١].

قال ابن إسحق: فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدّث وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه، حال الحسد منهم له وبين اتباعه وتصديقه، فعتوا على الله، وتركوا أمره عيانا، ولجّوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، والغَوْا فيه لعلكم تغلبون[٢].

* * *

كان هذا هو منطق الكفار فى مواجهة الإسلام: إنكار، وعزوف عن الحق، مع معرفتهم أنه الحق، واستعلاء بالباطل، وعناد وحقد مسعور على الدعوة والداعى دفعتهم إلى إيذاء المسلمين إيذاءً وحشياً فى أبدانهم وأموالهم، ومطاردتهم، وعزلهم اجتماعياً، بل محاولة اغتيال النبى ﷺ.

كما رموا رسول الله ﷺ بالمناقص والمثالب، واتهموا القرآن بالكذب والسحر، وأنه أضغاث أحلام، وأساطير الأولين، وأنه قول بشر يملى على محمد، وفى المواسم – وقد كان النبى ﷺ يعرض نفسه على القبائل القادمين للحج – أرصد الكفار من أتباعهم من يقوم بالدعوة المضادة تكذيباً وتشويهاً.

ومدوا حملة التشويش والتكذيب والافتراء إلى الحبشة، وهم يلاحقون المسلمين الذين هاجروا فراراً بدينهم إلى هناك، كما استعانوا بخبرة اليهود فى التضليل، فمدهم اليهود بأسئلة اعتقدوا أن محمداً ﷺ عاجز عن إجابتها، وذلك تشكيكاً فى نبوته، كما استجابوا لتحريضات اليهود والتحالف معهم، فحزبوا الأحزاب، وخرجوا «لاستئصال محمد ومن معه»، على حد تعبير عدو الله حيى بن أخطب.

******

(١) انظر: سيرة ابن هشام ١ / ٣٠٠ – ٣١٢.

(٢) السابق: ١ / ٣١٣.

٢ - المنافقــون

لم يستخدم العرب فى الجاهلية لفظ «النفاق» بمعناه الاصطلاحى المخصوص به، وهو ستر الكفر وإظهار الإسلام، أو إظهار الإنسان عكس ما يبطن [١].

ولم يعرف المسلمون النفاق فى العهد المكى؛ لأنه لم تكن هناك داعية تدعو إليه: فالذين أسلموا أسلموا طواعية ، وليس لهم مطمع دنيوى، ولم يكن هناك ظروف تجبرهم على إظهار الإسلام وستر الكفر. وأغلبهم كانوا من الفقراء والمستضعفين.

إنما بدأ النفاق حقا فى المدينة، لذلك ليس هناك آية مكية واحدة فيها كلمة النفاق، وما يشتق منها، وكل الآيات التى تحدثت عن النفاق آيات مدنية.

وفى المدينة كان رأس النفاق هو عبدالله بن أبى ابن سلول.

قال ابن إسحاق: وقدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبدالله بن أبى ابن سلول العوفى، لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولابعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام.. وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام، ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكا. فلما رأى أن قومه قد أبوا إلا الإسلام، دخل فيه كارها، مصرا على نفاق وضغن [٢].

فالرجل إذن موتور محترق، ولا شك أنه قلب الأمر على كل جوانبه:

إنه لن يستطيع أن يحارب النبى ﷺ أو يعاديه عداء صريحا، لأن كل الناس قد انضووا تحت لوائه.

ولن يستطيع أن يبقى كافراً، لأن ذلك يعزله اجتماعيا عن أقرب الناس إليه كابنه عبدالله مثلا.

ولكنه يستطيع أن يغدر، ويخون، ويضرب ضربات خاطفة فى الوقت المناسب، حتى يطفئ نار الحقد، والغيرة التى تضطرم فى أعماقه.

---

(١) انظر: ابن منظور - لسان العرب ٦/ ٤٥٠٨-٤٥٠٩.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٨٤-٥٨٥.

وحتى يتمكن من ذلك لابد أن يكون «مسلما»، مسلما بالاسم، منافقا بالحقيقة، وهذا الحمار الإسلامي مكنه من أن يضرب عدة ضربات في أوقات حرجة، خيبها الله كلها ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقد رسم القرآن الكريم ملامح صورة المنافقين في دقة ووضوح، كما نرى في الآيات التالية:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ٨-١٦].

لقد قدمت آيات سورة البقرة صورة جامعة للمنافقين. وثمة ملامح أخرى عرضتها آيات أخر. منها:

- ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وهم جبناء كذابون، ولا يبالون أن يحلفوا بالله كذبا وزورا، جريا وراء نفع، أو اتقاء لعقاب.

- ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦].
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٦٢].
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤].

_ ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٢] .

* * *

وأبرزت الأحاديث النبوية كثيرا من ملامح النفاق وعلاماته، ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا، وإن كانت خصلة منهن فيه، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر»(١).

ومن البلاغة النبوية هذه الصورة الدقيقة الموجزة للمنافقين «مثل المنافقين كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة»(٢).

وجاء هذا الحديث مصداقا لقوله تعالى: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣].

ولخطورة النفاق حكم الله سبحانه وتعالى على النفاق بأنه كفر، وأن مصير المنافقين والكفار سواء: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

وإن كان المنافق أضر وأسوأ من الكافر، لأنه ساواه فى الكفر، وامتاز عليه بالخداع والتضليل(٣)، ولأن مواجهة الكافر حق لا غبار عليه، فهى «عداوة صريحة» لا ينكرها، ولكن المنافق تحميه «جُنّة» هى الإسلام، وإن كان فى الظاهر، والأحكام تدور على الظاهر، وعلى الله السرائر.

* * *

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الإيمان (٤١) -باب: ما جاء فى علامة المنافق (١٤) حديث رقم ٢٦٣٢ - ٥/٢٠.

وقال: حديث حسن صحيح، وإنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل، وإنما كان نفاق التكذيب على عهد رسول الله ﷺ، هكذا روى عن الحسن البصرى شئ من هذا أنه قال: النفاق نفاقان: نفاق العمل ونفاق التكذيب.

أخرجه أحمد بإسناد صحيح: حديث ٦٧٦٨ -٦/٣٠١، ٦٨٦٤-٦/٦٤٤.

(٢) أخرجه مسلم عن ابن عمر: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٥). حديث ١٥-٥/٦٣٥. تعير: تتردد وتذهب.

(٣) عبدالكريم زيدان: أصول الدعوة ٣٨٢.

وعلى أية حال وجد عبدالله بن أبى ابن سلول فى النفاق سبيله الأوحد «للبقاء»، فهو من ناحية يتقى بإظهار الإسلام القتل أو تعرض المسلمين له بالأذى والمواجهة، ومن ناحية أخرى يضمن لنفسه ولأتباعه «العمل السرى» ضد الإسلام ورسوله، وانتهاز الفرص لإنزال ضرباته.

كان ابن أبى هو رأس المنافقين وأظهرهم، ولا يختلف اثنان على نفاقه، ولكن انضم اليه شخصيات لها شأنها، ولكنها لا تقاس إليه، منهم: نبتل بن الحارث، ومعتب بن قشير، ووديعة بن ثابت، وأوس بن فيظى، ولكل واحد من هؤلاء دور فى الإساءة إلى الإسلام، والتشكيك فى مصداقية النبوة، ومحاولة إشعال الفتنة فى صفوف المسلمين، وقد نزل فيهم قرآن يكشف دورهم الخبيث وأعمالهم الشائنة.

ومع هؤلاء كان هناك مئات من المشركين والأعراب أظهروا الإسلام وأخفوا الشرك.

وكانت كل أعمالهم وتصرفاتهم ترمى إلى القضاء على الإسلام ورسوله ﷺ، وكذلك القضاء على المسلمين أو إعادتهم إلى الشرك، وهو هدف أساسى يتغياه كذلك المشركون ـ كما رأينا ـ واليهود ـ كما سنرى.

* * *

واتبع المنافقون – فى سبيل تحقيق هدفهم – أحط الوسائل، وأخس الأعمال، وأبعدها عن الحد الأدنى من الإنسانية وهى:

١ – محاولة إشعال الفتنة بين المهاجرين والأنصار بإثارة النعرة القبلية الجاهلية:

وكان النبى ﷺ قد خرج لقتال بنى المصطلق، فلاقاهم على ماء لهم يسمى «المريسيع»، فهزم الله بنى المصطلق، و قتل من قتل منهم، ونفل الله رسوله أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

فبينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج، فاقتتلا، وصرخ الجهنى: يامعشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين . فغضب عبدالله بن أبى ابن سلول وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث، فقال: أوَقَدْ فعلوها؟!! قد نافرونا، وكاثرونا فى بلادنا،

والله ما أعدنا وجلابيب (١) قريش إلا كما قال الأول: سمِّنْ كلبك يأكلك، أما والله، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضر من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله، لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم (٢).

وفى هذا الحديث يبدو عبدالله بن أبى محقرا للمهاجرين، فهم فى نظره (جلابيب قريش)، وهم فى نظره الجانب الأذل، ونافخا فى نار الفتنة، مهيجا قومه ضد المهاجرين لطردهم من المدينة، وداعيا لهم ألا يعاونوهم، فلا يمدوا لهم يد المساعدة بشىء.

وثبت بعد ذلك أنه جبان ضالع فى الجبن، فبعد أن بلّغ زيد بن أرقم رسول الله ﷺ حديث ابن سلول، أسرع وأقسم بين يدى رسول الله ﷺ أنه ما قال شيئا.

٢ - الإساءة والتشهير بالنبى ﷺ وأهل بيته:

فمنهم جماعة يؤذون رسول الله ﷺ، ويعيبونه، ويقولون هو أذن سامعة، يسمع من كل أحد ما يقول، فيقبله، ويصدقه (٣).

ومنهم من يقول: إن عاتبنى حلفت له ما قلت هذا، فيقبله، فإنه أذن سامعة، أى مستمع وقابل (٤)، وفى هؤلاء يقول تعالى: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦١].

* * *

وجاء حديث الإفك ليزيد من كشف سوءات المنافقين، ويبرز مدى خطورتهم، وأنهم لايتورعون عن استخدام أحط الوسائل وأحقرها لمحاربة الإسلام والنبى ﷺ، ومنها النيل من عرضه، والتشكيك فى طهارة أهل بيته(٥).

(١) الجلابيب: أزر غلاظ كان المسلمون المهاجرون يلتحفون بها لفقرهم فأطلق عليهم أعداء الإسلام هذا اللقب تحقيراً لهم. [انظر: القاموس المحيط ٨٨. مادة جلب].

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٠ - ٢٩١. (٣) تفسير الطبرى ١٠/ ٢١٥. (٤) القرطبى ٤/ ٣٠٣١.

(٥) جاء الحديث مفصلا على لسان عائشة - رضى الله عنها - فى أغلب كتب السنة والتاريخ. منها: البخارى: كتاب الشهادات (٥٢) - باب تعديل النساء بعضهن بعضا (١٥). حديث ٢٦٦١ - فتح البارى ٥/ ٣١٩ - ٣٢٢. وكتاب المغازى (٦٤) - باب حديث الإفك (٣٤) - حديث ٤١٤١. ٧/ ٤٩٦. ٤٩٩. وكتاب التفسير (٦٥) باب «لولا إذ سمعتموه...» (٦) حديث ٤٧٥٠ - ٨/ ٣٠٦ - ٣٠٩. =

وكانت فرصة لعبد الله بن أبى ابن سلول ليسجل « نصرا جديدا »، يعوض عن إخفاقاته السابقة، فتولى كبر حديث الإفك، وأخذ يشيع أن عائشة « ما نجت من صفوان، ولا نجا منها » وكان ضمن ما قال وأشاع.

« امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها »(١).

وظلت عائشة رضى الله عنها، والنبى ﷺ، والمجتمع المسلم فى أزمة نفسية قاسية، إلى أن أنزل الله سبحانه وتعالى قرآنا يبرئ فيه عائشة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٠](٢).

وأبرز حديث الإفك دروسا وفوائد كثيرة للدين وللنبى ﷺ، وللجماعة المسلمة، وقد ذكر الإمام النووى ثلاثا وخمسين فائدة فى حديث الإفك (٣).

* * *

٣ - الغدر والخيانة لإضعاف الجبهة العسكرية انتصارا للكفار:

فى العام الثالث للهجرة زحفت قريش، ونزلت مقابل المدينة بذى الحليفة لقتال النبى والمسلمين ثأرا لهزيمتها فى بدر. وكان رأى النبى - ﷺ - ألا يخرج المسلمون لقتال الكفار مفضلا البقاء فى المدينة وعرض رأيه هذا على أصحابه بطريقة توحى بأنه رأى اجتهادى، ليس وراءه وحى يلزمهم به فقال:

= ومسلم: كتاب التوبة (٤٩). باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف. حديث ٤٦-٥/ ٦٢٨ - ٦٣٩.
والترمذى: كتاب التفسير (٤٨). باب « ومن سورة النور » (٢٥) حديث ٣١٨٠-٥/ ٣٣٢-٣٣٥.
وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد: حديث ٢٥٤٩٩-١٨/ ٩-١٤.
وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٧-٣٠٣.
ومحمد بن جرير الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٦١٠ - ٦١٩ (تاريخ الطبرى).
وانظر طبقات ابن سعد ٨/ ٦٣-٩٠.
وانظر كذلك الفصل الرابع من بحث المؤلف (الابتلاء وأثره فى حياة المسلمين). مخطوط.

(١) انظر الزمخشرى: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ٣/ ٥٢.

(٢) وآيات التبرئة ممتدة إلى الآية ٢٠.

(٣) وذلك فى شرحه على صحيح مسلم ٥/ ٦٤١-٦٤٤. وانظر للباحث « الابتلاء وأثره فى حياة المسلمين » الفصل الرابع ففيه قول مفصل عن حديث الإفك. (مخطوط).

ـ إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها (١).

كان هذا هو رأى النبى ﷺ وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وأرسل الرسول ﷺ إلى عبد الله بن أبى ابن سلول يستشيره، فكان رأيه هو رأى النبى ﷺ وكبار الصحابة، أى البقاء بالمدينة، واتخاذ عدة الدفاع ، فإن أقام الكفار أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا المدينة قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا (٢).

ولكن كان هناك الرأى الآخر، ووراءه حماسة الشباب وحب الجهاد، وكثير من هؤلاء لم يشهدوا بدرا، ويرتفع صوت حمزة رضى الله عنه:

ـ والذى أنزل عليك الكتاب، لا أطعم طعاما حتى أجادلهم بسيفى خارج المدينة.

ويظهر أن الذين دعوا للخروج كانوا يمثلون غالبية المسلمين، فاستجاب النبى ﷺ لهذا الرأى وهو كاره، فندم الناس، وعرضوا البقاء فى المدينة بعد أن لبس لأمته، واستعد للقتال، ولكنه قال: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل» وسار إلى أحد فى ألف من أصحابه.

قال ابن إسحق : حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، أن خذل عنه عبدالله بن أبى بثلث الناس، وقال: «أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس» فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب(٣).

وما فعله عبدالله بن أبى بن سلول ـ انخذاله بثلث الجيش قبل أن تبدأ المعركة ـ يعد

---

(١) لان أهل المدينة أعلم بدروبها وطرقها ومخابئها من المهاجمين، وكان أهل المدينة قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهى كالحصن.

(٢) انظر: على بن برهان الحلبى: إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون المشتهر بالسيرة الحلبية ٢ /٢١٨، وما بعدها ، وفيها أن هذه كانت أول مرة يستشير فيها النبى رأس النفاق ابن سلول، وهى براعة سياسية، منه فالخطر يهدد المدينة كلها، وابن سلول مازال رأسا من رءوسها . والأحداث ستأتى تترى تكشف عن حقيقته وتفضح نواياه.

(٣) سيرة ابن هشام ٢ / ٦٤ . هذا وقد عرضت السيرة الحلبية ٢ /٢١٩ لرواية مرجوحة مؤداها أن ابن سلول حينما استشاره النبى – ﷺ – أشار بالخروج لقتال الكفار بعيدا عن المدينة . والصحيح ما ذكرناه يؤيده انخذال ابن سلول بثلث الناس قبل الوصول إلى أحد مبررا ذلك بأن محمدا (أطاعهم وعصانى) .

من قبيل الغدر، والخيانة، والنكث بالعهود فى أحرج الأوقات وأشدها،ولا يدخل فى نطاق معارضة رأى برأى، أو مخالفة عن رأى القائد الأعلى فى ظروف عادية؛ لأن النبى ﷺ كان يرى البقاء فى المدينة والقتال عنها وفيها إذا هاجمها المشركون.

وأشار ابن أبى بالرأى نفسه، وقدم له من المبررات التاريخية والواقعية ما يدعمه، ولكن النبى ﷺ استجابة للرأى الآخر الذى نادت به الأغلبية خرج إلى المشركين، ولم يبد ابن سلول وجماعته فى هذه المرحلة اعتراضا، بل خرجوا ضمن الخارجين، وساروا معهم أمدا طويلا « قرابة نصف المسافة من المدينة إلى أحد » وهذا يعنى أنهم سلموا عمليا بما سلم به النبى - ﷺ - من الخروج لقتال الأعداء، وجاء الانسحاب فى أحرج الأوقات التى تكون المخالفة الضئيلة فيها خطأ جسيما بل خطيئة كبرى، قد تجر الى هزيمة نكراء.

وكانت معركة أحد - كما قال ابن إسحاق - يوم بلاء ومصيبة وتمحيص(١)؛ فقد استشهد فيها قرابة سبعين من المسلمين، على رأسهم حمزة عم النبى ﷺ؛ كما جُرح النبى ﷺ، وكسرت رباعيته.

وما فعله ابن أبى وجماعته يمثل « جريمة مبيتة » ولا شك، وهو عمل ليس له اسم فى وقتنا الحاضر إلا « جريمة خيانة عظمى » يستحقون بها القتل، ولكن النبى ﷺ لم يعرض لأحد منهم بعقاب؛ لأنه كان يخاف أن يتولد عن قتلهم من الفساد أكثر مما فى استبقائهم، وقد بيّن ذلك حين قال: « لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » فإنه لو قتلهم بما يعلمه من كفرهم - مع أنهم يظهرون الإسلام - لأوشك أن يظن أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد.. وأن يخاف من يريد الدخول فى الإسلام أن يقتل - مع إظهاره الإسلام - كما قتل غيره(٢).

وتعددت منهم مواقف التخذيل والانسحاب فى وقت الأزمات، مقدمين من التبريرات والتعلات الكاذبة ما يمكنهم من ذلك:

لما خرجت الأحزاب فى العام الخامس الهجرى لقتال النبى ﷺ، أخذ رسول الله ﷺ بمشورة سلمان الفارسى رضى الله عنه بحفر خندق حول المدينة، وعمل جميع المسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/١٠٥.

(٢) انظر ابن تيمية: الصارم المسلول على شاتم الرسول ٣٥٤-٣٥٨، ٤٣٥-٤٣٦.

بهمة فى الحفر، وكان معهم رسول الله ﷺ قدوة لهم، يحفر، ويحمل التراب، ولكن المنافقين لم يعملوا فى الحفر إلا فى بطء شديد، وبقدر ضئيل - ذرا للرماد فى العيون . وكان المسلم اذا نابته النائبة من الحاجة التى لابد له فيها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة فى الخير واحتسابا له(١).

أما المنافقون - على ضعف مجهودهم فى حفر الخندق فكانوا يتسللون الى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن .

وحينما اشتد البلاء فى الخندق، وأحاط الخطر بالمسلمين، أخذت طائفة من المنافقين تفت فى عضد المسلمين، وتتحدث عن «عبثية» القتال، وتطالبهم بالعودة إلى بيوتهم .

وطائفة منهم تستأذن النبى بالعودة الى بيوتهم لأنها «عورة»، أى غير حصينة ويخشى أن يقتحمها العدو فى غيبة رجالها، ولكن الله فضح هؤلاء وهؤلاء فى قوله: **﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾** [الأحزاب : ١٣] .

واعتقد المنافقون أن غزوة تبوك سنة ٩ هـ مجال خصب لتخذيل المسلمين، والفت فى عضد الجيش المسلم، وإضعاف صفه، ومصدر هذا الاعتقاد أن الجو كان حارا شديد الحرارة فى رجب من هذا العام وفى السير مشقة كبرى، وأن الخروج هذه المرة لجبهة خارجية لقتال الروم «بنى الأصفر»، وكذلك يضعف الإمكانات المادية، وسوء الحالة الاقتصادية حتى سمى الجيش جيش العسرة. هذه العوامل جعلت المنافقين يطمئنون الى ما يهدفون إليه من التخذيل والتخلف :

فأحدهم واسمه الجد بن قيس يستأذن النبى ﷺ فى التخلف، لأنه لا يأمن على نفسه فتنة نساء بنى الأصفر، فيأذن له، وينزل فيه قوله تعالى : **﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾** [التوبة : ٤٩] .

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لاتنفروا فى الحرّ، زهادة فى الجهاد، وشكًا فى الحق، وإرجافا برسول الله ﷺ (٢) .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢ / ٢١٦ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٥١٧ .

وتفاقمت عملية «التثبيط»، واتسع نطاقها، وقد بلغ رسول الله ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت «سويلم اليهودي» في مكان يسمى «جاسوم»، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث اليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله وجماعة معه، وأمرهم بحرق البيت على من فيه ففعلوا، ولاذ من فيه بالفرار(١).

وعسكر عبدالله بن أبي بمن معه من أتباعه ناحية جبل بالمدينة يسمى (ذباب)، مظهرا تجهزهم للخروج، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبدالله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الرَّيْب(٢).

وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف المنافقون وقالوا ما خلفه إلا استثقالا له، وتخففا منه، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي سلاحه، وخرج حتى أتى رسول الله ﷺ، وهو نازل بالجرف(٣)، ونقل إليه ما قاله المنافقون، فقال ﷺ: «كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع، فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ على سفره(٤).

واستكمالا لمنظومة التخذيل والتثبيط اتجه بعضهم إلى إعلان التهويل من قوة الروم، حتى يزرعوا الخوف والتردد في نفوس المسلمين، فكانوا يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، ويقولون: أتحسبون جِلاد بني الأصفر «الروم» كقتال العرب بعضهم بعضا، والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال. (أي أسرى).

وعلم رسول الله ﷺ بما قالوا فغمهم ذلك، وانطلقوا إليه معتذرين كالعادة، ولم ينكروا ما قالوه، ولكنهم اعتذروا بأنهم لم يكونوا يقصدون حقيقة ما ذكروا، بل كانوا يخوضون ويلعبون إذهابا لملالة الطريق. فنزل قوله تعالى:

﴿ولَئِن سأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥](٥).

* * *

---

(١) ابن هشام ٢/٥١٧.
(٢) ابن هشام ٢/٥١٩.
(٣) موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام. [ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/١٢٨].
(٤) ابن هشام ٥١٩ - ٥٢٠.
(٥) انظر سيرة ابن هشام ٢/٥٢٥.

٤ - موالاة أعداء الإسلام من اليهود والكفار:

وقد قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨، ١٣٩].

والكافرون المذكورون هنا هم على الأرجح اليهود الذين كان المنافقون يأوون إليهم، ويتخنسون عندهم، و يبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد، والله جل جلاله يسأل في استنكار: لم يتخذون الكافرين أولياء، وهم يزعمون الإيمان؟ لم يضعون أنفسهم هذا الموضع؟ ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكاذبين؟ لقد استأثر الله - عز وجل - بالعزة فلا يجدها إلا من يتولاه، ويطلبها عنده، ويرتكن إلى حماه(١).

* * *

ومن صور هذه الموالاة الفاجرة: موالاة المنافقين لبني النضير، ولهم مع رسول الله ﷺ خبر يتخلص في أنه ذهب إليهم ونفر من المسلمين يسأل بني النضير أن يعينوه في دية قتيلين، فرحبوا به، وجلس مستندا إلى بيت من بيوتهم، وأشار حيي بن أخطب على أحدهم - واسمه عمرو بن جحاش - أن يطرح على النبي ﷺ - صخرة من أعلى الجدار لقتله. فأخبره الوحي بما هموا به، فأسرع عائدا إلى المدينة وأرسل إليهم محمد بن مسلمة برسالة شفوية مؤداها: أنهم نقضوا العهد بما هموا به من الغدر، وعليهم أن يخرجوا عن ديارهم وأمهلهم عشرا، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه.

وبدءوا يتجهزون في أيام للخروج، ولكنهم فجأة توقفوا بسبب رسالة تلقوها من عبد الله بن أبي ابن سلول بأن يقيموا ولا يخرجوا «فإن معي من قومي وغيرهم من العرب ألفين يدخلون معكم فيموتون من آخرهم دونكم».

فأرسل زعيمهم حيي بن أخطب إلى رسول الله ﷺ رسالة مع أخيه جُدي بن أخطب: إنا لانخرج فليصنع ما بدا له.

فسار إليهم النبي ﷺ وحاصرهم خمسة عشر يوما، ونزلوا على أمره وخرجوا جميعا، وتركوا أرضهم وديارهم وأموالهم فيئًا للمسلمين، وفضح الله عبدالله بن أبي، وكشف عن كذبه وعجزه وجبنه، فلم يناصر من والاهم من اليهود بنفسه، ولا برجل واحد من

---

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٧٨٠

رجاله. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [الحشر: ١١، ١٢][١].

* * *

٥ - مسجد التآمر والفساد والإيذاء والضرار:

لم يتورع المنافقون عن اتخاذ مسجد جُنّة لهم يحققون به أغراضهم الخبيثة، ويعقدون به اجتماعاتهم، ويحيكون فيه مؤامراتهم، متسترين وراء ادعاء العبادة، فلما بنوا المسجد جاء خمسة من رءوس المنافقين - وهم الذين بنوا المسجد - وقالوا: يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من أصحابنا إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية[٢]، ونحن نحب أن تأتينا فتصلى فيه.

وكان النبى ﷺ يتجهز إلى تبوك، فقال: إنى على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا - إن شاء الله - أتيناكم فصلينا بكم فيه.

ولكن الله سبحانه وتعالى كشف لنبيه الأهداف الحقيقية من بناء هذا المسجد، وهى الإفساد فى الأرض، والإضرار بالمسلمين والتآمر على النبى ﷺ والمسلمين بزعامة أبى عامر الراهب الذى سماه رسول الله ﷺ بالفاسق. والمنافقون لم يبنوا المسجد إلا استجابة له[٣].

لذلك أرسل النبى ﷺ من حرق المسجد حتى أتت عليه النيران[٤].

---

(١) وانظر المقريزى: إمتاع الأسماع ١٧٨ - ١٨١.

(٢) الليلة المطيرة: الكثيرة المطر. والشاتية: الشديدة البرد.

(٣) وكان أبو عامر هذا قد تنصر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة فى الجاهلية وله شرف فى الخزرج كبير، فلما ظهر رسول الله ﷺ وانتصر فى بدر أكل الحقد قلبه وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله وخرج معهم فى أحد وحاول استمالة قومه إليه فسبوه ولعنوه، ثم ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على محمد فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والريب أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمدا، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا إذا قدم عليهم بعد ذلك فبنوا مسجد الضرار.
(انظر تفسير ابن كثير ٤ /٦٨).

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٢ /٥٢٩ - ٥٣٠ وإمتاع الأسماع للمقريزى ٤٨٠ - ٤٨٣.

وفى أمر مسجد الضرار هذا أنزل الله سبحانه وتعالى الآيات التالية:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨](١).

* * *

٦ - محاولة اغتيال النبى ﷺ:

بعد أن انتهى الرسول ﷺ من تبوك شرع فى العودة إلى المدينة. ولما كان ببعض الطريق مكر به أناس من المنافقين، وائتمروا أن يطرحوه من عقبة. فلما بلغ تلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، فأخبر خبرهم، فقال للناس: اسلكوا بطن الوادى، فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادى، وسلك ﷺ العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن اليمان يسوق خلفه. فبينا رسول الله ﷺ يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه، فغضب، وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع إليهم، فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن فى يده، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأتى حذيفة فساق به. فلما خرج من العقبة ونزل الناس قال: يا حذيفة: هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم قال: يا رسول الله عرفت راحلة فلان وفلان، وكان القوم متلثمين فلم أعرفهم من أجل ظلمة الليل.

ولما جاء الصباح شاع الخبر فى العسكر، وقد أدرك النبى ﷺ دقائق الخطة التى أبطلها الله، وقد شرحها لأسيد بن حضير «يا أبا يحيى أتدرى ما أراد البارحة المنافقون وما هموا به؟ قالوا: نتبعه فى العقبة، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أنساع راحلتى ونخسوها حتى يطرحونى عن راحلتى(٢).

واستطاع النبى ﷺ أن يعرف المتآمرين جميعا، ولكنه رفض أن يتعرض لهم أحد بقتل، فقد كانت هذه سياسته معهم دائما.

---

(١) هذا وقد تنبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته إلى حكمة هدم مسجد الضرار، فلما فتح الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم ألا يبنوا فى موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر. (انظر: لعبد المتعال الصعيدى: القضايا الكبرى فى الإسلام ٦٤].

(٢) انظر: إمتاع الأسماع ٤٧٨.

٣- اليهـــــود

قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا لما كنا نسمع من رجال يهود . . إنه قد تقارب زمان نبى، يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع منهم ذلك، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة :٨٩](١) .

وفى إحدى الروايات أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج بالنبى قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ ابن جبل، وبشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلمة : يا معشر يهود، اتقوا الله، وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكر لكم، فأنزل الله جل ثناؤه فى ذلك من قوله : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ . . .** ﴾ [البقرة : ٨٩](٢) .

ومن عجب أن تهديد اليهود للعرب بنبى يبعث، وأنهم سيكونون معه لقتلهم أتى بعكس ما استهدفه اليهود، فقد كانت قالتهم هذه هى الحافز الأكبر لإسلام عدد من الأنصار فى أول لقاء بينهم وبين النبى ﷺ، فقد قال بعضهم لبعض عندما عرض النبى نفسه عليهم فى الموسم : « يا قوم إنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه » . . فاستجابوا لله والرسول وآمنوا وصدقوا(٣) .

وكانت هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، واعتناق الأنصار الإسلام، وفهمهم لحقيقة النبى وحقيقة دعوته . . كل أولئك أبطل حجة اليهود، أو « حرق الورقة » التى ظلوا يلوحون بها للأنصار والعرب، ويهددونهم بها آماداً طويلة .

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢١١ . يستفتحون : يستنصرون . [القاموس المحيط ٢٩٨] .

(٢) تفسير الطبرى ١ /٥٧٨ .

(٣) إمتاع الأسماع ٣٢ .

وأشهر قبائل اليهود عند هجرة النبى ﷺ إلى المدينة: بنو قينقاع ويقيمون داخل المدنية، وبنو قريظة فى فدك، وبنو النضير على مقربة منها، ويهود خيبر فى شمالها(١).

والثابت تاريخياً أن اليهود فى هذه المنطقة ليس لهم أية أصالة جنسية أو مكانية، فهم «يهود تعربوا»، وليسوا «عربا تهودوا» - إن صح هذا التعبير - يقول ر.ف بودلى: «لقد كان اليهود من أزمان سحيقة عرضة دائماً للطرد من وطنهم (فلسطين) الذى استولوا عليه أصلاً بالقوة. ولنذكر بعض الذين طردوهم: فهناك سرجون الثانى سنة ٧٢٢ ق.م، وبختنصر سنة ٥٨٦ ق.م، وبومباى سنة ٦٣ ق.م، وطيطس سنة ٧٠م، وطردهم هارديان طرداً نهائياً سنة ١٣٥م.. فكلما وقع اضطهاد لليهود رحل المضطهدون إلى ممالك أخرى، وقد تغلغل كثير منهم فى جزيرة العرب، فبعد أن نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة أو (يثرب)، كما كانت تسمى، وهذه القبائل هى: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير وحولوها إلى معقل زراعى»(٢).

فاليهود فى الأصل لم يكونوا من أبناء الجزيرة العربية، وإنما نزحوا إلى هذه المنطقة حينما طردهم الرومان عن فلسطين، فاستغلوا جهل أبنائها من العرب، وأخذوا يقرضونهم أموالهم بالربا الفاحش، حتى أصبحوا أصحاب الأموال فى المنطقة، واستولوا على كثير من الأراضى الصالحة للزراعة، وصار بأيديهم زمام التجارة والصناعة، وحينما أخذ العرب ينهضون بهذا الدين الجديد حسدوهم على نهوضهم، وشأنهم فى ذلك شأن كل دخيل فى وطن يحب أن يستأثر بخيره على أهله، ولا يرضى لنفسه إلا أن يعلو عليهم فيه(٣).

ولما وصل النبى ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وقد اطمأن إلى وحدة المسلمين بهذه المؤاخاة، وهى ولا ريب كلمة سياسية تدل على سلامة تقدير وبعد نظر متين ندرك مقدارهما حينما نقف على ما كان من محاولة الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لإفساد أمرهم. لكن العمل السياسى الجليل حقاً، والذى يدل على أعظم الاقتدار فذلك ما وصل إليه من تحقيق وحدة يثرب، وإلى وضع

(١) انظر د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ٢٣٦.

(٢) بودلى: الرسول: حياة محمد ١٤٨.

(٣) الصعيدى: القضايا الكبرى فى الإسلام ٢٦.

نظامها السياسى بالاتفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف اعتماداً على العهد الذى كتبه لهذه الأطراف جميعًا، والذى يسمى كتاب الموادعة أو دستور المعايشة فى المدينة.

ومن أهم المبادىء والقيم والحقوق والواجبات السياسية والاجتماعية التى حواها هذا العهد:

١- إبقاء الأوضاع السكانية والاجتماعية على ما كانت عليه قبل هجرته.

٢- تقدير مبدأ الأخوة والتعاون بين المؤمنين.

٣- الحرية الدينية، فمن حق كل فرد أن يبقى على دينه دون إكراه.

٤- قيام التلاحم والتعاون بين المسلمين واليهود.

٥- الجهاد واجب على الجميع لا تنفرد به طائفة دون طائفة، بل على الكل أن يساهم فى هذا الواجب منادبة.

٦- المؤمنون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

٧- القاتل يقتل إلا إذا رضى ولى الدم بالعقل (الدية).

٨- لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يأثم امرؤ بحليفه.

٩- ضرورة رعاية حق الجار.

١٠- الشعور بالأمان حق للجميع، سواء أبقى شخص بالمدينة، أم خرج منها إلا من ظلم وأثم.

١١- « على كل الناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم »، أى على كل مواطن أن يتحمل نصيبه الذى يلتزم به لصالح الجماعة.

١٢- ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار (خلاف) يخاف فساده فإن مرده إلى الله، وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره[١].

---

(١) انظر نص هذه الصحيفة كاملاً فى سيرة ابن هشام ٢ /٨٨-٩١ . وانظر قميحة: أدب الرسائل ٥٨-٦٨، ١٥٥-١٥٩.

وهذا يعنى أن النبى ﷺ كان حريصًا على أن يتعايش جميع سكان المدينة وما حولها من مهاجرين وأنصار ويهود وغيرهم.. فى سلام وأمنة من الخوف والعدوان، ولم يكن يبيت لليهود «ضربة غادرة»، كما زعم بعض المستشرقين، لأن الغدر رذيلة حاربها الإسلام، ودعا إلى الوفاء الصادق بالعهود والعقود.

* * *

ومع ذلك، وبدافع من الحقد والحسد ظل اليهود يكرهون محمداً ﷺ والمسلمين، ويسيئون إلى النبى ورسالته ومن معه، منتهزين الفرص، مستخدمين أحط الوسائل وأخسها، فهم كما قال عنهم أحد كبار أحبارهم بعد إسلامه: «إنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور».

* * *

وفى السطور التالية نعرض بعض مواقفهم الشائنة وما اتبعوه من وسائل التضليل وما ارتكبوه من جرائم فى حق الإسلام ونبيه والمسلمين:

١- **الإنكار على من أسلم منهم، والحقد عليه، والإساءة إليه**، مع علمهم بأن محمداً نبى حق، وأنه الرسول الذى بشر به الله فى كتابهم.. وهناك شواهد متعددة على ذلك نكتفى منها بما يأتى:

أ- كان عبد الله بن سلام -كما يقول ابن اسحاق- حبرا عالما. قال: لما سمعت رسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له[١]، فخرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتى، فأمرتهم فأسلموا»[٢].

ويمضى ابن سلام فى استكمال قصة إسلامه فيقول:

وكتمت إسلامى من يهود، ثم جئت رسول الله، فقلت له: يا رسول الله إن يهود قوم بهت، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك، وتغيبنى عنهم، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى، وعابونى، فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه، ثم قال لهم: أى

(١) نتوكف: نترقب.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٥١٦.

رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا، وعالمنا. فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله، إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأؤمن به وأصدقه وأعرفه. فقالوا: كذبت. ثم وقعوا بي، فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟ فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث، فحسن إسلامها[١].

ب- ومن كبار أحبارهم وأعلمهم «مخيريق»، وكان رجلاً غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته، وما يجد في علمه، فلم يزل على دينه حتى كان يوم أحد ووافق يوم سبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ، يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل فكان رسول الله ﷺ يقول: (مخيريق خير يهود)[٢]. وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها[٣].

جـ- وحدثت صفية[٤] بنت حيي بن أخطب أحد زعماء اليهود: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر.. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو ابن عوف غدا عليه أبي وعمي مغلسين[٥]، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر، وهو

---

(١) سيرة ابن هشام ٥١٧.

(٢) أي أنه خير من فيهم لأنه اهتدى إلى الدين الحق، ولا يفهم من هذا أنه بقي على يهوديته.

(٣) السابق ٥١٨.

(٤) صفية بنت حيي بن أخطب، أمها برة بنت سموال، كانت عند سلام بن مشكم، وكان شاعرًا، ثم خلف عليها كنانة ابن أبي الحقيق وهو شاعر فقتل يوم خيبر، وتزوجها النبي ﷺ في سنة سبع من الهجرة. وتوفيت سنة اثنين وخمسين من الهجرة في خلافة معاوية.
(الاستيعاب في أسماء الأصحاب ٤/٣٤٨).

(٥) أغلس: دخل في الغلس. والغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح [مختار الصحاح ٤٧٨].

يقـول لأبى حيى بن أخطب: أهو هو؟ قـال نعم والله. قـال: أتعرفه وتثبته؟ قـال: نعم؛ قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[1].

وقد أسلم - غير عبد الله بن سلام ومخيريق - عدد من اليهود، وحسن إسلامهم، مثل ثعلبة بن سعيه، وأسد بن عبيد آمنوا وصدقوا، ورغبوا فى الإسلام، ورسخوا فيه، ولكن ظلت الغالبية العظمى على يهوديتها وموقفها من الإسلام. أما موقف هؤلاء الأحبار الضالين من أمثال حيى بن أخطب، وأخيه أبى ياسر، فراحوا يشيعون ويعلنون: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وأجدادهم إلى غيره[2].

* * *

٢- إعلانهم كفرهم، وجرأتهم على الله، واستهانتهم بالأديان والأنبياء. ومن ذلك:

أ- ادعاؤهم أنهم - دون غيرهم - على الحق. وقد جاء وفد من كبارهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم، وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم. قالوا: فإنا نأخذ بما فى أيدينا، فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك[3]. فأنزل الله قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة:٦٨].

ب- إعلان بعضهم صراحة شركه بالله فقد جاء بعضهم رسول الله ﷺ، وقالوا: يا محمد، **أما تعلم مع الله إلها غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: الله لا إله إلا هو، بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو**[4].

جـ- جرأتهم على الله، وتهجمهم على ذاته؛ فقد جاءه رهط من يهود، فقالوا: يا محمد: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انْتُقِع[5] لونه،

(١) سيرة ابن هشام ١/٥١٨-٥١٩.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٥٦٨.
(٣) سيرة ابن هشام ١/٥٦٨.
(٤) سيرة ابن هشام: ١/٥٦٨.
(٥) انتقع: تغير. [القاموس المحيط ٩٩٣].

ثم ساورهم(١)، فجاءه جبريل وسكّنه، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].
فلما تلاها عليهم قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب أشد من الأولى، وأتاه جبريل عليه السلام بالجواب: ﴿ **وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، والسماء مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [الزمر: ٦٧](٢).

* * *

د- ادعاؤهم أن عزيرا ابن الله، وإصرارهم على ذلك:

وقد جاء رهط منهم رسول الله ﷺ فقالوا له: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله؟ فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٠](٣).

* * *

هـ- إنكارهم التنزيل بعد موسى:

فقد ذهب بعضهم إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥](٤).

ودخلت عليه طائفة منهم، فقال لهم: أما والله إنكم لتعلمون أني رسول من الله

---

(١) ساورهم: واثبهم وباطشهم [السابق ٥٢٧].
(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٧٢.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٧٠ يضاهئون: يشاكل قولهم قول الذين كفروا .. [تفسير الجلالين ٢٤٤].
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥٦٢.

إليكم. قالوا: ما نعلم وما نشهد عليه، فأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [النساء: ١٦٦][1].

و- جحودهم نبوة عيسى عليه السلام

وأتاه وفد منهم، وسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤] فلما ذكر عيسى ابن مريم جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم، ولا بمن آمن به، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩][2].

٣- الإساءة إلى الإسلام، والتنكر لنبيه، وتنفير الناس منه، ونسج الافتراء حوله:

ومن مظاهر ذلك ما يأتى:

أ- بلغ التبجح ببعضهم درجة بشعة حتى أن أحدهم وهو عبد الله بن صوريا قصد رسول الله ﷺ، ودعاه إلى اعتناق اليهودية قائلاً: «ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد»[3].

ب- دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وحذرهم نقمة الله، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه[4].

وبعضهم رد قائلاً: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم، وخيراً منا.

وبعضهم سأل رسول الله ﷺ: على أى دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم ودينه، قال: فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال رسول الله ﷺ: فهلم إلى التوراة فهى بيننا وبينكم، فأبوا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٦٣.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٥٦٧.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٥٤٩.

(٤) سيرة ابن هشام ١/٥٦٣.

كتاب اللَّه لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤](١).

جـ- وأغرب من ذلك أن يتناجى بعض رءوس اليهود، ويقول بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر. فأتوه، فقالوا له: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعتك يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك؟ فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠](٢).

* * *

د- قال ابن اسحاق: وكان حيي بن أخطب، وأخوه أبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسدا، إذ خصهم الله تعالى برسوله ﷺ وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩](٣).

* * *

هـ- وحقروا من شأن النصر العظيم الذي أحرزه المسلمون في بدر. وبعد هذا النصر جمع رسول الله ﷺ يهود بني قينقاع، فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشا، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا(٤)، لا يعرفون القتال. إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس،

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥٢ - ٥٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٦٧.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٤٨.

(٤) الأغمار جمع غمر وهو الذي لم يجرب الأمور.

وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله فى ذلك من قوله: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣][(١)].

وداوموا الحط من قيمة النصر الذى أحرزه المسلمون فى بدر، والتهكم عليه، وأبانوا عن سوء نيتهم، واستهانتهم بالمسلمين أن جاءت امرأة رجل من الأنصار إلى سوق بنى قينقاع، فجلست عند صائغ فى حلى لها، فجاء أحد بنى قينقاع فحل درعها من ورائها بشوكة، ولا تشعر، فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا بها، فقتله أحد المسلمين، فاجتمع عليه بنو قينقاع، وقتلوه ونبذوا العهد إلى النبى ﷺ، وتحصنوا فى حصنهم، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فقال ﷺ: أنا أخاف بنى قينقاع. وزحف إليهم بعد بدر ببضعة وعشرين يومًا، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاكتفى بإجلائهم عن المدينة، فلحقوا بأَذْرِعات الشام بنسائهم وذراريهم، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى هلكوا جميعًا[(٢)].

و- واتخذوا من عملية تغيير القبلة مادة للتشنيع ومحاولة الفتنة، فقد ذهب رهط من اليهود إلى النبى ﷺ، وقالوا له: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها، ونحن نتبعك، ونصدقك، وإنما يريدون بذلك فتنته عن دينه فأنزل الله فيهم ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [البقرة: ١٤٢][(٣)].

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٥٥٢.

(٢) إمتاع الأسماع ١٠٤-١٠٥. وأذرعات: بلد فى أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمَّان (ياقوت الحموى: معجم البلدان ١ / ١٣٠).

(٣) سيرة ابن هشام ١ / ٥٥٠.

ز- تشويههم الدعوة الإسلامية أمام وفد نجران:

حين اجتمعت الأحبار من يهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ قال أبو رافع القرظى أحد أحبار اليهود: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ قال رجل من أهل نجران نصراني يقال له «الرِّبِّيس» (ويروى الريس أو الرئيس): أوَذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثنى الله، ولا أمرنى.

* * *

ح - السخرية من الإسلام والقرآن:

دخل أبو بكر بيت «المدراس»[1] على يهود، وقد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فنحاص»، وكان من علمائم وأحبارهم، ومعه حبر آخر من أحبارهم، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل؛ فقال فنحاص لأبى بكر: ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيًا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذى نفسى بيده، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك.

فذهب إلى رسول الله ﷺ شاكيًا وشرح أبو بكر للنبى ﷺ ما حدث، وأنكر فنحاص أن يكون قد قال ما قال، ومن الآيات التى نزلت فى هذا الموقف ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق**﴾ [آل عمران: ١٨١] [2].

ط- التوجه إلى الرسول ﷺ «بأسئلة التعجيز»، وهى لا يقصد من ورائها المعرفة، ولكن إظهار النبى ﷺ بمظهر العاجز عن الجواب، وتلبية المنشود فيشكك الناس فى نبوته.

---

(١) المدراس: هو البيت الذى يتدارس فيه اليهود كتابهم. [القاموس المحيط ٧٠٢] مادة: درس.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٥٥٩.

من ذلك أن أحدهم واسمه رافع بن حريملة قال لرسول الله ﷺ: إن كنت رسولاً من الله - كما تقول - فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه[1].

ومن ذلك تحديهم القرآن، وطلبهم من الرسول أن يُنزل عليه كتاب آخر من السماء: فقد ذهب رهط من كبار أحبارهم إلى رسول الله ﷺ. وقالوا له: أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به لحق من عند الله، فإنا لا نراه متسقًا كما تتسق التوراة.

فقال لهم: أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به.

فقالوا: يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن؟

فقال لهم: أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإنى لرسول الله، تجدون ذلك مكتوبًا عندكم فى التوراة.

فقالوا: يا محمد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء.. فأنزل علينا كتابًا من السماء نقرؤه ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتى به. فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم وفيما قالوا: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء: ٨٨][2].

* * *

ومن أسئلة التحدى والتعجيز كذلك ما وجهه بعضهم إليه بقولهم: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا كما تقول؟ فأنزل الله قوله: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٧][3].

* * *

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٤٩.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٧٠-٥٧١.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٥٦٩.

٤ - محاولتهم إفساد المسلمين، وسعيهم فى الوقيعة بينهم :

وكان بعض اليهود يأتون رجالاً من الأنصار، كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم، من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها، ولا تسارعوا فى النفقة؛ فإنكم لا تدرون علام يكون(١).

وسعوا كذلك فى الوقيعة بين الأنصار، فيروى أن رأسًا من رءوسهم اسمه «**شاس بن قيس**» مرّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فأمر فتى شابا من يهود كان معهم، فقال له : اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل ما أمره به شاس، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، وغضب الفريقان، وثاروا إلى السلاح، وتواعدوا الظاهرة (أرض الحرة) للقتال، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم، فقال : **يا معشر المسلمين : الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم؟!**

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس الذى أنزل الله فيه ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [آل عمران :٩٨، ٩٩](٢).

* * *

٥ - الغدر، والتآمر، وتحريض الكفار على قتال النبى ﷺ والمسلمين :

بعد أن أحرز المسلمون نصرهم الباهر على الكفار فى بدر بعث النبى ﷺ عبد الله

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٥٦٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٥٥٦-٥٥٧.

ابن رواحة، وزيد بن حارثة إلى أهل المدينة مبشرين بالنصر، ومصرع من صُرع من قريش، فقال كعب بن الأشرف اليهودى حين بلغه ذلك: أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء؟!!.. فهؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها[1].

فانطلق إلى مكة، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ، وينشد الأشعار، ويبكى أصحاب القليب[2].

ولم يكتف بذلك، فلما رجع إلى المدينة أخذ يشبب بنساء المسلمين إلى أن بعث إليه النبى ﷺ من قتله[3].

ولما انكسر المسلمون فى أحد أظهرت اليهود القول السيىء، فقالوا: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب هكذا نبى قط، أصيب فى بدنه، وأصيب فى أصحابه[4].

وفى العام الخامس للهجرة انطلق نفر من زعماء اليهود، منهم سلام بن أبى الحقيق النضرى، وحيى بن أخطب النضرى، وهوذة بن قيس الوائلى فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، وقدموا على قريش فى مكة، فدعوهم إلى حرب الرسول ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه[5].

وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**[6] **وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (51) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥١.

(٢) السابق ٢/ ٥٢. وأصحاب القليب هم قتلى قريش في بدر. فقد أمر النبى ﷺ بحفر قليب وطرح جثثهم فيه.

(٣) انظر السابق ٤/ ٥٤-٥٧.

(٤) إمتاع الأسماع ١٦٥.

(٥) ابن هشام ٢/ ٢١٤.

(٦) الجبت والطاغوت: كل ما يعبد من دون الله. [انظر ابن كثير ٢/ ٢٠٣ - ٢٠٤].

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك، واتعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان، من قيس غيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه(١).

* * *

وتمت دائرة الغدر بانطلاق حيى بن أخطب النضرى إلى بنى قريظة حتى أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ وعاهده، فلما سمع كعب بوجود حيى أمر بإغلاق باب حصنه دونه رافضًا دخول حيى، وقال له: إنى قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا..

وما زال به حيى حتى فتح وجالسه، وتمكن أن يلينه بعد أن حدثه عن الأحزاب، وأنهم لن يبرحوا هذه المرة حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، وعاهده «..**لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك**».

فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ(٢).

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ أرسل رهطا من المسلمين، منهم سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.. فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك قال: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين(٣).

* * *

٦ - محاولة اغتيال الرسول ﷺ:

وكان هناك محاولتان جادتان لاغتيال الرسول ﷺ:

المحاولة الأولى -وقد أشرنا إليها- كانت من تدبير طائفة من بنى النضير، فقد

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٥.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٠-٢٢١.

(٣) السابق ٢/ ٢٢٢.

قصدهم رسول الله ﷺ، ومعه دون العشرة من أصحابه، فوجدهم فى ناديهم، فجلس يكلمهم أن يعينوه فى دية قتيلين فقالوا: نفعل.. ورسول الله ﷺ مستند إلى بيت، فخلا بعضهم إلى بعض، وأشار عليهم حيى بن أخطب أن يطرحوا عليه حجارة من فوق البيت الذى هو تحته فيقتلوه، فانتدب لذلك عمرو بن جِحَاش ليطرح عليه صخرة، وهيأ الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ، وأشرف بها، فجاءه الوحى بما همّوا به فنهض رسول الله ﷺ كأنه يريد حاجة، ومضى إلى المدينة، ولحق به أصحابه(١).

أما المحاولة الثانية فكانت بعد أن انتهى النبى ﷺ من أمر خيبر ووقوع الصلح. قال ابن اسحاق: فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له **زينب بنت الحارث** امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية(٢)، وقد سألت أى عضو من الشاة، أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء ابن معرور وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم، ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت من قومى ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكا، استرحت منه، وإن كان نبيا، فسيخبر، فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر من أكلته التى أكل(٣).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبى ﷺ يقول فى مرضه الذى مات فيه:

يا عائشة: ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من هذا السم(٤).

* * *

---

(١) انظر: إمتاع الأسماع ١٧٨ - وسيرة ابن هشام: ١/٥٦٣، ٢/١٩٠.
(٢) مصلية: مشوية. وصلَيْت اللحم وغيره - من باب رمى - شويته [مختار الصحاح ٣٦٨] مادة: ص ل ا.
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى (٦٤). باب الشاة التى سمت النبى (٤١). حديث ٤٢٤٩- ٧/٥٦٨. وكتاب الطب (٧٦) باب ما يذكر فى سم النبى (٥٥). حديث ٥٧٧٧ - ١٠/٢٥٥.
والدارمى: المقدمة. باب (١١). حديث ٦٨ - ١/٣٦.
وانظر سيرة ابن هشام ٢/٣٣٨. والمقريزى: إمتاع الأسماع ٣٢١.
(٤) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى. باب مرض النبى ﷺ ووفاته (٨٣) حديث ٤٤٢٨ - ٧/٧٣٧.

كانت هذه صورة الفئات الثلاث التى واجهها رسول الله ﷺ ونصره الله عليهم جميعًا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، وهذه الفئات الضالة كان يجمع بينها - كما رأينا آنفا - هدف رئيسى جوهرى واحد هو القضاء على محمد ﷺ والإسلام.. ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا وسائل ضالة مضلة من كذب، وخداع، وغدر، ونكث بالعهود والوعود، واستخدام القوة الغاشمة، فالغاية واحدة، والوسائل إن لم تكن متماثلة، فإن بينها تشابه توأمى حتى فى صورة التنفيذ.

ومن ثم كانت موالاة هؤلاء خروجًا عن الحق، ومروقًا من الدين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١].

وقال تعالى فى موالاة المنافقين لليهود طمعًا فى نصرتهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ⁽١٤⁾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة:١٤، ١٥].

* * *

٤- النصارى والقوى الخارجية

الإيمان بالأنبياء والرسل والكتب السابقة أصل من أصول الدين الإسلامى، فلا يصح إسلام المرء إلا به، وقد تواترت الآيات القرآنية التى تقطع بذلك، كقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ....﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقد عرَّف رسول الله ﷺ الإيمان بقوله: «... **أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

* * *

والمسلمون يؤمنون بأن النصرانية دين توحيد مطلق، وأنها تعترف أن الله وحده هو الخالق القادر المختص بالعبادة، وأن المسيح عبدالله ونبيه ورسوله، وأنه بشر، وإن ولد بصوره غير الصورة المطردة المعهودة يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقد أرسل المسيح عليه السلام إلى بنى إسرائيل بخاصة، يقول تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩]. وفى إنجيل متى يقول المسيح عليه السلام: «**لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة**»(٢) وقد بُعث المسيح إليهم مصدقا لما بين يديه من التوراة، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شئون معاشهم ومعادهم، ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التى منحها الله تعالى لهم، بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها(٣).

---

(١) انظر الحديث بتمامه فى صحيح مسلم: كتاب الإيمان وهو الحديث الثانى من الأربعين النووية.

(٢) انجيل متى: الإصحاح ١٥ / ٢٥ وانظر أحمد شلبى: المسيحية ٥٩ – ٦٩.

(٣) الإمام محمد عبده: الأعمال الكاملة. المجلد الثالث ٢٩٥.

ولأن بنى إسرائيل قد استغرقتهم المادية الطاغية، وشغلتهم الدنيا، وأصبح جمع المال هو غايتهم على حساب الأخلاق والقيم الإنسانية العليا جاءت المسيحية جرعة روحية قوية لتقضى على هذا النزوع الدنيوى الحاد، فهى - فى مجموعها - قيم روحية خالصة- تنزع الإنسان من غمرات الواقع المادى الخسيس، وتسمو بروحه؛ فهو لم يخلق لهذه الأرض، وإنما خلق لملكوت السماء.

فاليهودية والمسيحية كلاهما «ديانة مرحلية» وجاءت الثانية كرد فعل قوى لغلو بنى إسرائيل وإغراقهم فى المادية، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هى غاية بنى الإنسان، بل إن التوراة التى بين أيديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه أو جحيمه، وأن الثواب والعقاب فى الدنيا لا الآخرة..(١)

ثم جاء الإسلام الدين الخاتم للناس كافة موفقا بين المادى والروحى، بين الواقعى والمثالى، بين مطالب الجسد والروح والعقل فى اعتدال وتوازن.

***

والمسيحية دخلت جزيرة العرب، وانتشرت فيها بالتبشير لا الهجرة كما فعل اليهود، فقد دخل بعض رجال الدين النصرانى جزيرة العرب، ونشروا دعوتهم بين البدو، وعاشوا معهم عيشتهم، حتى عرفوا بأساقفة الخيام، أو أساقفة أهل الوبر.

وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب، ويعظون، ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار، وكان من هؤلاء النصارى شعراء كقس بن ساعدة الإيادى، وأمية بن أبى الصلت، وعدى بن زيد.

ومال كثير من العرب إلى الرهبنة، وبناء الأديرة، ومنهم «حنظلة الطائى» الذى يقال أنه بنى ديرا بالقرب من شاطىء الفرات، يعرف «بدير حنظلة»، وترهب فيه حتى مات(٢) وكانت نجران أهم مركز للنصرانية جنوب بلاد العرب، وربما جزيرة العرب كلها، وكان فيها أكبر كنيسة وأفخمها.

---

(١) انظر لمحمد أبى زهرة: محاضرات فى النصرانية ١٠.

(٢) انظر د. محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام: أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم ٢٦٢، ٢٧٠ وأحمد أمين: فجر الإسلام ٤٦.

يقول ياقوت الحموى: « ... وكعبة نجران يقال لها بيعة بناها بنو عبدالمدان بن الديان الحارثى على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة للكعبة، وسموها كعبة نجران، وكان فيها أساقفة معتمون، وهم الذين جاءوا إلى النبى ﷺ، ودعاهم إلى المباهلة، وكانت قبة من أدم من ثلاثمائة جلد، كان إذا جاءها الخائف أمن، أو طالب حاجة قضيت، أو مسترفد أُرفد ... »[١] .

ولم تخل مكة ويثرب من المسيحيين، فيقال إن معظم الرقيق فى مكة كانوا من النصارى، وكذلك الجوارى الروميات، وكان فى الأحابيش كذلك عدد كبير منهم، وفى يثرب عاش بعض النصارى فى موضع يسمى « سوق النبط » .

وكان انتشار النصرانية فى الشام أوقع وأوسع بحكم قرب هذه المناطق من الإمبراطورية الرومية التى كانت النصرانية دينها الرسمى، فتنصر الغساسنة، وأصبحوا قوة عسكرية يعتمد عليها الروم، ويشتركون معهم فى القتال، وكذلك قبائل أخرى مثل كلب، وقضاعة، وجذام، وعاملة .

وتنصرت قبائل إياد، ومنهم من سكن السواد والجزيرة، ومنهم من سكن الشام . وتنصر عدد كبير من قبيلة طيء منهم عدى بن حاتم الطائى، وتسربت النصرانية إلى الحيرة منطقة المناذرة على الرغم من تبعيتها للفرس المجوس . ومن الحيرة والشام تسربت النصرانية إلى كثير من المدن والمحلات، منها دومة الجندل، وأيلة، وتيماء، واليمامة، وغيرها[٢] .

* * *

ولسنا فى مقام التأريخ المفصل للنصرانية فى بلاد العرب، ولكن هناك من الحقائق التى ينقلها التاريخ ما يرتبط بموضوع بحثنا، وهى فى مجموعها تطرح طبيعة العلاقات بين النصارى وغيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى . ومن أهمها الحقائق الثلاث الآتية :

الحقيقة الأولى : أن النصارى فى جزيرة العرب لاقوا على أيدى اليهود أذى كثيرا، بل

---

(١) معجم البلدان ٥ / ٢٦٨ .

(٢) انظر محمود عرفة : مرجع سبق ٢٦٧ - ٢٦٨ ، وعن كيفية دخول النصرانية إلى اليمن، انظر معجم البلدان ٥ /٢٦٦ - ٢٦٧ .

نكبات، وأشهرها تلك «المحرقة» التى أقامها الملك اليهودى ذو نواس الحميرى لنصارى نجران حتى يتركوا دينهم، ويعتنقوا اليهودية. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾[1] [البروج: ٤ – ٨].

وينكر – أو يستبعد – أحمد أمين[2] هذه الواقعة، ونزول هذه الآيات فيها، لأن كلا من اليهود والنصارى ليؤمن بالله العزيز الحميد، وهى حجة واهية لأن ذانواس الحميرى عرف بظلمه وجبروته ومسألة العقيدة قد لا تهم هذا النوع من الطغاة، بقدر الهيمنة وبسط السلطان: على أن أحمد أمين ذكر قبل ذلك بأسطر أن هذا الملك «أوقع بأهل نجران وقتلهم».

* **

والحقيقة الثانية: أن النصارى كانوا حريصين على ألا يكون فى الجزيرة مذهب أو ديانة أخرى، فيروى أن نجاشى الحبشة أرسل إلى اليمن جيشًا قضى على الملك الحميرى «ذونواس» وجيشه، وضم إليه اليمن، وإرضاء له بنى قائده «أبرهة الأشرم» كنيسة فى صنعاء لم يُبن مثلها من قبل ضخامة وارتفاعا، وجمالا، وأراد أن يصرف كل العرب إلى الحج إليها فزحف بجيش كبير، ومعه عدد من الأفيال «ليهدم الكعبة بأن يجعل السلاسل فى أركانها وتشدها الفيلة، فتهدمها مرة واحدة» ولكن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ﴿ .. **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾[3] [الفيل: ٣ – ٥].

والحقيقة الثالثة: أن القرآن – كما ذكرنا من قبل – عرض ملامح المسيحية فى صورتها الصحيحة وكذلك شخصية المسيح من ميلاده إلى رفعه، ولا يكون المسلم مسلما إلا إذا آمن بكل أولئك، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

ولأمر ما كان أول من بشر بنبوة محمد ﷺ قبل بعثة نصرانى مشهور فى أوساط مكة هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد زوج النبى

(١) وانظر: تفسير ابن كثير ٨ / ٢١٠ والسيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٤ – ٣٥.

(٢) فجر الإسلام ٤٥.

(٣) وانظر تفسير ابن كثير ٨ / ٢٧٧ – ٢٧٨.

محمد ﷺ، ومما قاله لها « . . إن محمد النبى هذه الأمة، وقد عرفْتُ أنه كائن لهذه الأمة نبى يُنتظر، هذا زمانه »[١] ولما نزل الوحى لأول مرة على محمد فى غار حراء، وقص على خديجة ما حدث، ذهبت إلى ابن عمها ورقة، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فكان جوابه: « . . لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبتْ »[٢] فلما لقيه وهو يطوف بالكعبة، وسمع منه ما رأى وما سمع، قال له مثل ما قاله لخديجة، وقال: « ولتكذَّبَنَّه، ولتؤذَينَّه، ولتُخرجَنَّه، ولتقاتلنّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنْصرنَّ الله نصرا يعلمه » ثم أدنى رأسه منه، فقبل يافوخه[٣] وعاش الرجل – وإن لم يسلم– متعاطفا مع النبى ﷺ ومن أسلم، وخصوصا العبيد والمستضعفين، ويروى أنه مرّ ببلال وهو يعذب، ويقول: أحد أحد، فيردد ورقة: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف وتابعيه ممن يعذبونه، فيقول مهددا، أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنّانا[٤].

ولما رأى رسول الله ﷺ اشتداد الأذى والبلاء على أصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه[٥].

فكانت أول هجرة للمسلمين إلى أرض يحكمها ملك نصرانى عادل صادق، وقد أكرمهم الملك: نجاشى الحبشة، وأمنهم، ورفض أن يعيدهم مع رسولى قريش: عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص[٦].

ومن الحبشة قدم وفد من النصارى على رسول الله ﷺ وهو بمكة بعد أن سمعوا به وهم بالحبشة، وحاوروا رسول الله ﷺ، فتلا عليهم القرآن، ففاضت أعينهم من الدمع، وآمنوا به وصدقوه، فنزل قوله تعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ**

---

(١) السيرة النبون لابن هشام ١ / ١٩١.
(٢) السابق ١ / ٢٣٨.
(٣) السابق ١ / ٢٣٨.
(٤) السابق ١ / ٢٣٨ أى لأجعلن قبره موضع حنان أى موضع عطف ورحمة، فأتمسح به متبركا، كما نفعل بقبور الصالحين والشهداء.
(٥) السابق ١ / ٢٣٨.
(٦) انظر السابق ٣٣٤ – ٣٣٨.

أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ – ٨٣].

وقيل أنها نزلت فى النجاشى ومن حوله من القسيسين والرهبان فى مجلسهم حينما قرأ عليهم جعفر بن زبى طالب سورة مريم، فآمنوا بالقرآن، وفاضت أعينهم من الدمع(١).

وسواء أوقعت هذه الحادثة فى مكة أم فى الحبشة، فإنها تدل على مصداقية قوله تعالى أنهم كانوا أقرب مودة للذين آمنوا، ويزيد الإيمان بهذه الحقيقة إذا أدخلنا فى الاعتبار شخصية ورقة بن نوفل الذى كان يبشر بظهور النبى، وكان يشجعه، ويخفف عنه وهو يلاقى من قريش من عنت وإيذاء، كما وقف بجانب المستضعفين من المسلمين فى مكة.

وشرع الإسلام فى التعامل مع الذميين قواعد ومبادئ تقوم على الرحمة والعدل والإنسانية، من ذلك ما روى عن عبدالله بن عمرو أن النبى ﷺ قال: «**من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما**»(٢).

وجاء فى العهد الذى كتبه ﷺ لعمرو بن حزم الأنصارى وقد بعثه إلى بنى الحارث بن كعب «**وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن عنها...**»(٣).

وجاء فى عهده ﷺ لنصارى نجران «... ولنجران وحاشيتهم **جوار الله وذمة محمد على أموالهم وأنفسهم، وأخيهم وثلتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعبادتهم، وبيعهم، وملتهم.. لا يغير أسقف من سُقَيِّفاه (أى مركزه الدينى)، ولا راهب من رهبانيته..**»(٤).

وقد أكد أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – هذا العهد بعهد مماثل يكاد يكون فى أسلوبه ومضمونه كعهد النبى ﷺ لأهل نجران، وقد أملاه أبو بكر – فى مرض موته –

---

(١) الواحدى: أسباب النزول ١٦٥ – ١٦٦.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الديات (٨٧) باب: إثم من قتل ذميا بغير إثم (فتح البارى ١٢/ ٢٧٠].

(٣) انظر العهد بتمامة فى جمهرة رسائل العرب ٦٤ – ٦٦.

(٤) الخراج لأبى يوسف ١٥٩ – وتاريخ الطبرى ٣/ ١٢٨.

على عثمان بن عفان رضى الله عنهما[١].

كما أوصى النبى ﷺ بأقباط مصر فقال «**إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما، أو قال ذمة وصهرا...**»[٢].

وكانت توجيهات الخلفاء الراشدين ووصاياهم لقادة جيوشهم تدور فى هذا الفلك إنسانية ورحمة وعدلا، ونجتزى - فى هذا المقام بسطور من وصية أبى بكر - رضى الله عنه - لبعث أسامة وهو يودعه «.. لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخًا كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..»[٣].

ويطول بنا المقام لو رحنا نسترسل فى عرض الطوابع الإنسانية فى سياسة المسلمين فى تعاملهم مع أهل الذمة بعامة، والنصارى بخاصة، ومن أوضح الأمثلة فى هذا المقام ما تمتع به أقباط مصر فى ظل الحكم الإسلامى بعد فتحها من عدل وحرية بعد أن لاقوا من الظلم والاضطهاد ما لاقوا على أيدى الرومان، وهم على دين واحد[٤].

* * *

وما عرضناه فيما سبق يمثل صورة وضيئة طيبة لبعض النصارى مثل ورقة بن نوفل، ونجاشى الحبشة أصحمة، وبعض القسس والرهبان من الأحباش ونصارى نجران، كما رأينا موقف الإسلام ونبيه وخلفائه من النصرانية والنصارى ولكن الوجه الدميم القبيح لنصارى الشمال... نصارى الدولة الرومية كان أوضح وأقوى، فكان لهم من المواقف والسياسات العدوانية الكثير والكثير.

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ٦ - الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ / ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: وصية النبى ﷺ بأهل مصر.
وهو يشير بالرحمة والصهر - إلى مارية القبطية أم ابنه إبراهيم، وكان المقوقس قد أهداها إليه.

(٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٢٢٧. وانظر كذلك عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأهل إيلياء (بيت المقدس) سنة ١٥ هـ فى تاريخ الطبرى ٣ / ٦٠٩. وانظر لجابر قميحة أدب الخلفاء الراشدين ١٤٧.

(٤) وقصة ابن القبطى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص مشهورة فقد أمر عمر بن الخطاب بأن يضرب ابن القبطى ابن عمرو بل طلب منه أن يضرب عمراً نفسه.

ومن ذلك ما ينقله التاريخ من أن نصارى الشام كانوا يروجون لعبادة الأوثان، وذلك بصنعهم التماثيل والأوثان لبيعها للوثنيين كى يعبدوها(١).

وكانت دولة الروم النصرانية تنظر إلى النبى والمسلمين نظرة حقد وعداء، ومعهم عرب الشام وغيرهم ممن تنصروا من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلىّ فجمعوا لمواجهة المسلمين فى مؤته سنة ٨ هـ مائة ألف، وهى المعركة التى استشهد فيها القادة المسلمون الثلاثة: زيد بن ثابت وجعفر بن أبى طالب وعبدالله بن رواحة. ولولا عبقرية خالد بن الوليد وانسحابه بالمسلمين انسحابا منظما لاستؤصل المسلمون جميعا(٢).

* * *

وبعدها علم رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعوا لحرب المسلمين جموعا كبيرة بالشام، وأنهم استنفروا لذلك قبائل العرب المتنصرة مثل لخم، وجذام، وغسان، وعامله، وبدأ زحفهم إلى البلقاء.

فسار إليهم النبى ﷺ فى رجب سنة ٩ هـ ولكن الروم بجموعهم الكثيفة تراجعوا، وفروا قبل الالتحام، وكان فرارهم - وهم البادئون، وهم فى بلادهم، ولجوءهم إلى التحصن داخلها حتى لا يدركهم المسلمون - أعظم دليل على قوة المسلمين... فهؤلاء الروم الذين هزموا الفرس، وأخرجوهم من جنوب الجزيرة، واستردوا منهم الصليب المقدس، وأعادوه إلى القدس فى احتفال رائع، هم الذين فروا، وانسحبوا من الميدان عندما واجهوا المسلمين»(٣).

وحرصا على السلام صالح النبى ﷺ بعض زعماء النصارى على الجزية مثل يُحنّه بن رؤبة صاحب «أيلة» وأكيدر بن عبد الملك الكندى صاحب دومة الجندل، وكذلك أهل جرباء وأذرح(٤).

وفى هذه الغزوة التي لم يحدث فيها قتال أرسى النبى ﷺ مبدأ الشورى: فبعد تراجع الروم شاور المسلمين فى التقدم، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن كنت

(١) انظر: جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٤٤.

(٢) انظر التفصيل فى سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٣ - ٣٨٠.

(٣) د. محمد السيد الوكيل: تأملات فى سيرة الرسول ٢٨٩.

(٤) سيرة ابن هشام ٥٢٥ - ٥٢٦.

أمرت بالمسير فسر، فقال لو أمرت به ما استشرتكم فيه، قالوا: يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله لك فى ذلك أمرا[١].

وثمة أثر نفسى له قيمته، وهو أنه أصبح للدولة الإسلامية الناشئة هيبة فى نفوس أعدائها من الروم ومن والاهم، مع أن جيش المسلمين سار إليهم فى ظروف صعبة وحر شديد، حتى سمى الجيش بجيش العسرة.

* * *

وثمة وقائع ترتبط بغزوة تبوك تقطع بأن الفرس والروم ومن والاهم وخضع لهم من النصارى كان لهم عيون فى مكة والمدينة ينقلون إليهم من الوقائع والأحداث ما يمكن انتهازها لتعود بالنفع على الدولتين، وبالخسارة على المسلمين. فهذا كعب بن مالك - وهو أشهر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك - يحكى حكاية تخلفه وكيف عاش أزمة نفسية عاتية، بعد أن أمر النبى ﷺ بمقاطعته وزميليه، والتفريق بينهم وبين زوجاتهم[٢].

ومما قاله كعب بن مالك « ... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسى الأرض، فما هى التى أعرف.. فبينا أنا فى السوق إذا نبطى من أنباط الشام.. يقول: من يدلنى على كعب بن مالك؟ حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنى أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك» فقلت لما قرأتها، وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته (أحرقته) بها..»

وملك غسان هو جبلة بن الأيهم، وكان نصرانيا وقد يستبعد بعضهم مسألة الكتاب هذه، ولكننا نرجح وقوعها: فكعب بن مالك كان شخصية مرموقة فى المجتمع المدنى، وهو أحد الشعراء الثلاثة الناطقين باسم الدعوة الإسلامية، والآخران هما حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة رضى الله عنهما، والثالث استشهد فى موقعة مؤتة، وكان كعب

---

(١) المقريزى: امتاع الأسماع ٤٦٣.

(٢) انظر الحديث بتمامه فى البخارى: كتاب المغازى (٦٤) باب حديث كعب بن مالك (٧٩) - (فتح البارى: ٧/ ٧١٧).

مجودا مطبوعًا[1] ومن مظاهر قوة تأثير شعره ما يحكى من أن قبيلة «دوس» أسلمت بدون قتال لما سمعت بيتين من شعره ينذرهما فيهما: إذا لم تسلم فسينزله بها ما نزل بثقيف من هزيمة[2] وكأنى بملك غسان كان يطمع أن يستجيب كعب لإغرائه، ليكون شاعرا له ضد المسلمين، ولكن الله خيب أمله، وتبقى لهذه الواقعة دلالتان:

الأولى: أن العيون الخارجية كانت مفتوحة على مجتمع المسلمين ومسيرة الدعوة.

والثانية: أن هذه القوى الخارجية كانت تحاول استغلال الشخصيات والوقائع المحلية لضرب الدعوة الإسلامية.

* * *

وكانت معركة «اليرموك» المشهورة سنة ١٣ هـ في أواخر أيام أبي بكر، وأول خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، كان جيش المسلمين خمسين ألفا، وجيش الروم خمسة أضعاف هذا العدد[3] وكان للقسس والرهبان دور كبير فى التحميس لهذه الحرب واشعالها كتب ابن الأثير «.. وكان القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهرا، ثم خرجوا إلى القتال الذى لم يكن بعده قتال فى جمادى الآخرة..»[4].

وانتصر المسلمون فى هذه المعركة انتصارا باهرًا، «وتجلل القيقار، وجماعة من أشراف الروم برانسهم، وجلسوا، وقالوا: لا نحب أن نرى يوم السوء، إذا لم نستطع أن نمنع النصرانية، فقتلوا متزملين...»[5].

وفى عهد النبى ﷺ ظهر أبو عامر الراهب النصرانى الذى كان له باع واسع فى التضليل، والكيد للنبى ﷺ وللإسلام والمسلمين. رجل كانت كراهيته فى الإسلام تجرى فى دمه، فكأنه بها ولد.

اسمه الأصلى عبد عمرو بن صيفى، وكنيته أبو عامر، وكان رأس الأوس فى الجاهلية، ولقب بالراهب بعدأن تنصر، فلما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة جاهره

---

(١) ابن عبدالبر: الاستيعاب (على هامش الإصابة ٣/ ٢٨٧.

(٢) ابن حجر: الإصابة ٣/ ٣٠٢.

(٣) الكامل ٢/ ٢٥٨.

(٤) الكامل ٢/ ٢٥٩.

(٥) الكامل ٢/ ٢٦١.

بالعداوة، فدعا عليه فخرج إلى مكة مباعدا رسول الله ﷺ، ومعه خمسون غلاما من الأوس، وكان يعَد قريشا أن لو قد لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان. فلما التقى الناس فى أحد كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش، وعبْدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق.. فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومى بعدى شر، ثم راضخهم (راماهم) بالحجارة(١).

وكاد يطير من الفرح حينما أعلن ابن قميئة أنه قتل محمدا، ومشى مع أبى سفيان يتصفح وجوه القتلى أملا فى أن يجد محمدا بينهم، ولكن الله خيب أمله(٢).

ومن مكائده فى أحد أنه حفر حفرا حتى يسقط فيها المسلمون أثناء المعركة، ويعجزوا عن القتال، ويكونوا صيدا لأعدائهم، وقد سقط النبى ﷺ فى واحدة من هذه الحفر، ولكن أعداء الله لم يتمكنوا منه(٣).

ولم يشف انكسار المسلمين فى أحد غل الرجل وحقده، وأخذ ينتهز كل فرصة للقضاء على محمد ﷺ، ومن ذلك أنه بعدأن أجلى بنى النضير انطلق، ومعه عدد من زعماء اليهود، والمنافقين، منهم حيي بن أخطب، وكنانة بن أبى الحقيق إلى مكة يحرضون قريشا، وقالوا لهم: نحن معكم حتى نستأصل محمدا، لنحالفكم على عداوته وقتاله.

وشهدوا أن دين محمد باطل، وما عليه قريش هو الحق.. وفى ذلك نزل قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾** [النساء: ٥١] ثم كانت غزوة الأحزاب، على ما هو معروف فى التاريخ(٤).

فلما خذل الله قريشا والأحزاب، وأحس أبو عامر الفاسق أن كل خططه قد باءت بالإخفاق الذريع، ذهب إلى هرقل الروم، وأقام عنده، وأرسل إلى المنافقين بالمدينة يخبرهم أنه يعد جيشا لقتال محمد، وطلب منهم بناء مسجد ليكون قاعدة للتآمر،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٧، وامتاع الأسماع ١٢٣.

(٢) انظر امتاع الأسماع ١٣٠.

(٣) انظر السابق ١٣٥.

(٤) انظر امتاع الأسماع ٢١٥ - ٢٢٠.

وإعداد الخطط للوثوب وضرب محمد والمسلمين ، فبنوا مسجد الضرار الذى أمر النبى ﷺ بحرقه[١].

وانطلاقا من حقده رحل إلى الحبشة، ربما طمعا فى إعداد جيش يعود به لضرب المسلمين، ولكن العمر لم يمهله، فمات سنة ٩ هـ[٢].

* * *

وفى هذا السياق أيضا نذكر « نصرانية » سلكت طريقة مختلفة لضرب الإسلام، وإفساد عقيدته، بل القضاء عليه وهي سجاح بنت الحارث، وهي من بني يربوع أقرب بطون بني تميم إلي نفوذ فارس، ثم تزوجت في أخوالها التغلبيين بالعراق، ثم انحدرت من ثم إلي أرض بني تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبي ﷺ، وانحدر معهاجيش كثيف لا يستهان بأمره[٣].

ويري العقاد أنها بادعائها النبوة، وإعداد هذه العدة وتجييش هذا الجيش كانت تعمل لغرض سياسي، وبإغراء دولة أجنبية هي دولة فارس، ولا تعمل لغرض ديني ، ولا بدافع من عندها وعند ذويها[٤].

ويرجح الدكتور هيكل هذا الرأي لأن سجاح كانت الأنثي الوحيدة التي ادعت النبوة، وأن مثيلاتها اتخذت في كل العصور أداة للتجسس والدعاية، وأنها لم تلبث فى بلاد العرب إلا ريثما بثت دعوة الانتقاض، ثم عادت إلي العراق، فسكنت إلي حياتها به[٥].

ولا شك أن ظهور التنبؤ قد ساعد على اشتداد الردة، واضطرام العصبية القبلية حتى قام زعيم من زعماء المرتدين وهو عيينة بن حصن وقال : « نبية من بني يربوع خير من نبى من قريش، وقد مات محمد، وسجاح حيه »[٦].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٦٨.
(٢) الكامل لابن الأثير ٢ / ١٦١.
(٣) العقاد: عبقرية خالد ١١٣.
(٤) العقاد: السابق ١١٣، ١١٤.
(٥) الصديق أبو بكر ١٤٨.
(٦) السابق ١٤٩.

فاتخاذ العيون والعملاء والأعوان أفراد وجماعات ظل عملا من أعمال دولتى الفرس والروم يهدد الدولة الإسلامية الناشئة ويشغل تفكير المسلمين، ويعكر صفوهم، «فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة، وتهيج القبائل لحرب المسلمين في عهد النبي ﷺ، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها، يدل عليه كلام عمر بن الخطاب، وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول: « ... وكنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابى ضربًا شديداً، وقال: أثم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث عظيم.. قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق النبى ﷺ نساءه»[1].

***

وبيد أجنبية كان مصرع الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه. قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسى، وهو من سبْى نهاوند، وكان غلامًا للمغيرة بن شعبة، ويذكر ابن الأثير أنه كان نصرانيًا[2]، وكان حاقداً خبيثًا إذا نظر إلى السبى الصغار يأتى فيمسح رءوسهم، ويبكى، ويقول «إن العرب أكلت كبدى»[3].

وانتحر القاتل بعد أن قتل من المسلمين قرابة عشرة، وهم يحاولون الإمساك به بعد أن طعن أمير المؤمنين، وهو يصلى بالناس الفجر، وبذلك مات سره معه. ولكن أرادت الأقدار - كما يقل الدكتور هيكل - أن يقف على السر من سادة العرب من يدل عليه: رأى عبدالرحمن بن عوف السكين التى قُتل بها عمر، فقال رأيت هذه أمس مع الهرمزان، وجفينة، فقلت: ما تصنعان بهذه السكين، فقالا: نقطع بها اللحم، فإنا لا نمس اللحم. وقال عبد الرحمن بن أبى بكر: قد مررت على أبى لؤلؤة قاتل عمر، ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجى، فلما بغتهم ثاروا (أى نهضوا مضطربين)، فسقط من بينهم خنجر له رأسان، ونصاب فى وسطه (أى مقبض فهو يمسك من وسطه)، فانظروا ما الخنجر الذى قتل به عمر، فوجدوه الخنجر الذى نعت عبد الرحمن بن أبى بكر[4].

ويخلص الدكتور هيكل من هذه الشهادات إلى أن «أمير المؤمنين» ذهب ضحية

---

(١) العقاد: عبقرية الصديق ١٤٩.

(٢) الكامل ٣/ ٤٤٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٩٤.

(٤) الفاروق عمر ٢/ ٣٢٣.

مؤامرة كان هؤلاء الثلاثة أبطالها، ولعل غيرهم من أبناء فارس أو من الأمم التى غلبها المسلمون كان معهم فيها[١].

وهناك شخصية قد يكون لها ضلع فى هذه الجريمة على سبيل ما نسميه «بالاتفاق الجنائى»، وإن لم تظهر فى تنفيذها، وهى شخصية «كعب الأحبار»، وكان على عهد النبى ﷺ من كبار أحبار اليهود، وكان يتردد عليه مظهراً الميل إلى الإسلام، مرجئا إعلان إسلامه حتى يتحقق من كل الأمارات التي يجدها فى كتب قومه عن النبى العربى وأصحابه – على حد قوله، فلما انتهي أمر الخلافة إلى عثمان بن عفان أعلن إسلامه . وأيسر ما يقال عنه أنه كان عاما بالمؤامرة وميعاد تنفيذها، فقد حدد لعمر اليوم الذى سيقتل فيه، وادعى أنه يجد ذلك فى التوراة، ودهش عمر لذلك، وقال له: الله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟!، قال كعب: لا، ولكنى أجد صفتك، وحليتك، وأنه قد فنى أجلك[٢].

وتهمة العلم بالجريمة قبل وقوعها يمكن أن تنسب لعيينه بن حصن فقد جاء لعمر رضى الله عنه وقال: احترس، أو أخرج العجم من المدينة، فإنى لا آمن أن يطعنك رجل منهم فى هذا الموضع. (ووضع عيينة يده في الموضع الذى طعنه فيه أبو لؤلؤه فى جسم عمر)[٣].

ويقول الشيخ على الطنطاوى «إنها كانت جريمة سياسية ومؤامرة كبرى، لو جرى فيها تحقيق قضائى لظهر أن فى هذه الجريمة شركاء هم الهرمزان وجفينة، ومتهمين فرعيين هما كعب الأحبار، وعيينة بن حصن[٤].

***

وقد ذكرنا من قبل أن نصارى الشام كانوا يروجون لعبادة الأوثان والأصنام بين عرب الجزيرة، فكانوا يصنعون التماثيل، ويبيعونها لهم لعبادتها من دون الله.

ويجانب هذا الإفساد العقدى كان هناك إفساد خلقى تقوم به الأديرة والمعروف أن

---

(١) السابق – الصفحة نفسها.

(٢) انظر السابق ٢/ ٣١٠.

(٣) انظر: المحب الطبرى: الرياض النضرة فى مناقب العشرة ٢/ ٧٥.

(٤) سيرة عمر بن الخطاب هامش ٦٠٧.

الأديرة نشأت فى الأصل للعبادة، وتكون فى الصحارى، ورءوس الجبال، وإذا كان الدير فى المدينة كان كنيسة أو بيعه[1] ولكن الأديرة انحرفت عن هذه الغاية إلى تقديم كل الموبقات والخبائث والمفاسد، من خمر، ومجون، وزنا، ولواط.

وقد كتب ياقوت الحموى عن قرابة مائة وثمانين ديرا.

وكان يقصدها الشعراء والمجّان طلبا للمتع الحرام، وقد وصف الشعراء في قصائد متعددة ما يرتكب من مآثم ومفاسد فى هذه الأديرة، ونكتفى - فى هذا المقام - بمثال واحد لشاعر قضى «وقتا» بدير يسمى «دير درتا» فى غربى بغداد.

يقول الشاعر:

قـــد أدرنا بدَيْر درْتا، وقـــدَّسَـ ـنا مـــجـــونا إذ قـــدسَتْ رهبـــانُهْ

وســـقـــانا فـــيـــه المدامـــةَ ظبيٌ بـابـلـيٌّ، ألحـــــاظهُ أعــــوانُهْ

مـــاسَ منْهُ علىّ غـــصْنٌ من البـــا نِ يُضـــاهِى تـفـــاحَـــهُ رمّـــانُهْ[2]

***

كان هذا هو الاقع التاريخى للنصارى، ومواقفهم من الإسلام، وطبيعة العلائق التى كانت تربطهم بدولتى الروم والفرس فى الجاهلية والإسلام. ولقد نصر الله نبيه ﷺ والمسلمين نصرا مؤزرا مبينا، وارتفعت رأية الإسلام فى الجزيرة العربية وخارجها، ولم يقبض الله رسوله إلا بعد تمام الرسالة بقوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

واستطاع الخلفاء الراشدون - بعد النبي ﷺ أن يدكوا دولتي الفرس والروم اللتين كانتا تمثلان أكبر قاعدتين للكفر والضلال والفساد والبغى والعدوان ولكن هل مات البطل، وانتهى، وخلا مكانه، فلم يعدْ له وجود؟

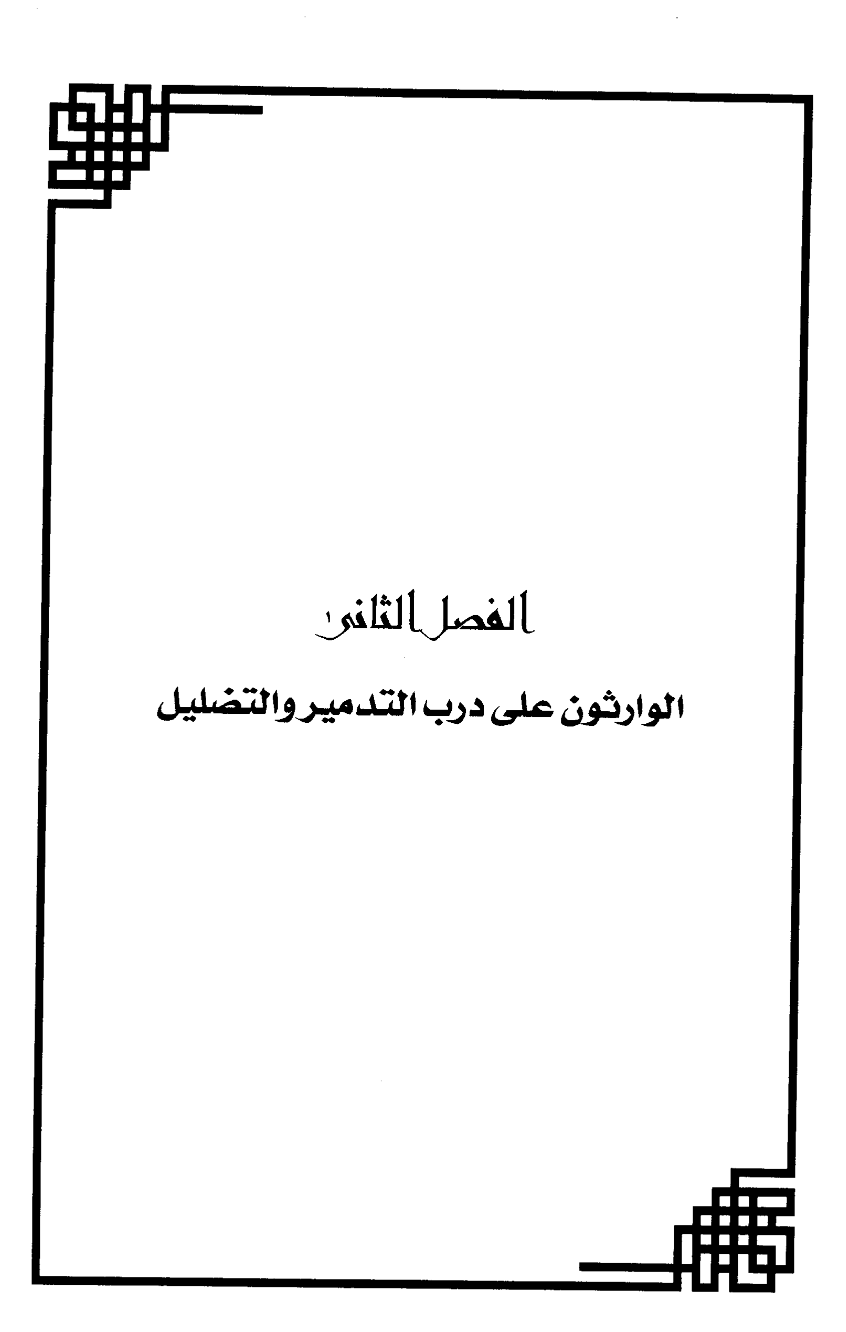
إن الصراع بين الحق والباطل يمضى مع مسيرة التاريخ لا ينقطع، وقد انتصر الحق في عصر الرعيل الأول، وعلى مدى العصور تظهر هذه الرباعية المنكودة المنكرة: الكفر

(١) معجم البلدان ٣/ ١٩٥.

(٢) انظر: معجم البلدان: ٣/ ٤٩٥ - ٥٤٣.

والنفاق واليهودية والنصرانية فى ورثة الآباء والأجداد، ولكن فى جلد جديد، وأثواب مختلفة، وأسماء مبتدعة، ووسائل متطورة، وذلك فى شكل «أيديولوجيات» – أى «مذهبيات» تختلف في التفصيلات، ولكنها تلتقى في الهدف الجوهرى الموروث، وهو «القضاء على الإسلام، وقيمه الإنسانية العليا.

ومع أرباب التدمير والتضليل في العصر الحديث نقف وقفة طويلة في الفصل التالى:



الفصل الثاني

الوارثون على درب التدمير والتضليل

١ - الاستشراق والاستعمار والتبشير

كلمة الاستشراق مشتقة من الفعل « شرق »، فيقال: شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت، وإن غلب استخدام الفعل (أشرق) فى هذا المجال.

وقد تعددت التعريفات العلمية للاستشراق أو المستشرقين فى الكتب المتخصصة ومنها على سبيل المثال:

١ – الاستشراق هو ما يقوم به الغربيون من دراسة لتاريخ الشرق وأممه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه كان يقصد به فى العصور الوسيطة دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم؛ إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم كان الغرب من بحره إلى محيطه يعْمَهُ فى غياهب من الجهل الكثيف[١].

٢ – المستشرق هو كل من تجرد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية، وتقصى آدابها طلبا لتعرف شأن أمة أو أمم شرقية، من أجل أخلاقها وعاداتها وتاريخها ودياناتها أو علومها وآدابها أو غير ذلك من مقومات الأمم[٢].

٣ – المستشرقون اسم واسع، يشمل طوائف متعددة تعمل فى ميادين الدراسات الشرقية المختلفة، فهم يدرسون العلوم والآداب الخاصة بالهند والفرس والصين واليابان والعالم العربى وغيرهم من أمم الشرق[٣].

ويقدم أحمد سمايلوفتش تعريفات متعددة للاستشراق والمستشرقين لعلماء غربيين، منهم جويدى، وبارت، وآربرى، ورودنسون، وغيرهم، ثم وازن موازنة واعية بين آراء علماء الغرب وعلماء العرب فى تعريفهم بالاستشراق والمستشرق تتلخص فيما يأتى:

١ – الاتفاق على أن الاستشراق قد أصبح علما مستقلا له ذاتيته وكيانه، ويقوم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق وحضارته.

---

(١) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربى ٥١٢.

(٢) أحمد الإسكندرى وآخرون: المفصل فى تاريخ الأدب العربى ٤٠٨.

(٣) إبراهيم عبد المجيد اللبان: المستشرقون والإسلام ٤.

٢ – المستشرق لابد له من معرفة كاملة بإحدى اللغات الشرقية وآدابها.

٣ – اهتم علماء الغرب اهتماما كبيرا بتاريخ الاصطلاح نفسه منذ ظهوره حتى الاعتراف به، وإدخاله إلى لغاتهم ومعاجمهم، وعلى العكس من ذلك لم يشر علماء العرب إلى هذه الناحية إلا من بعيد جدا.

٤ – اتهم بعض علماء العرب علم الاستشراق وأصحابه صراحة بالتطرف والتعصب وذلك لصلته الوثيقة بالتبشير ومهمته.

٥ – أشار الجميع إلى الدور الكبير الذى لعبه الاستشراق فى تعريف الغرب بحضارات الشرق عامة، وحضارة الإسلام وآداب العرب خاصة، وأثرهما العظيم فى الغرب نفسه، ونهضته العلمية والفكرية على حد سواء[١].

* * *

ونحن المسلمين علينا أن نأخذ أنفسنا – وخصوصا فى بحوثنا العلمية – بروح العدل والإنصاف؛ عملا بقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٨].

فلاشك أنه كان من هؤلاء المستشرقين من أدى خدمة للعربية والعلوم الفقهية، ومن هؤلاء الدكتور: أ. ى. فنسنك (1939 – 1882) فى كتابه «مفتاح كنوز السنة» الذى قال عنه محب الدين الخطيب: «... **فلو كان بيدى هو أو مثله من أول عهدى بالاشتغال بكتب السنة، لوفر على ثلاثة أرباع عمرى الذى صرفته فيها...**»[٢].

ومنهم المستشرقان الألمانيان **برجشتريسر GOTTHELF BERGSTRASSER** (**1933 - 1886**) **وبرتسل OTTOPRETZL** (**1939 - 1893**) فى دراساتهما عن علوم القرآن[٣].

ومنهم المستشرق الإنجليزى **ويلفريد بلنت (١٨٤٠ – ١٩٢٢)** الذى طوف فى

---

(١) أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر ٣٢.

(٢) محب الدين الخطيب، صفحة (س) من تقديمه لكتاب «مفتاح كنوز السنة». واقرأ ترجمة المستشرق فنسنك فى موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوى ٤١٧.

(٣) انظر: بدوى، السابق: ٨٢ – ٨٣، ٨٥ – ٨٧.

الشرق الأوسط، وأيد زعماء الحركة الوطنية فى أفغانستان، ومصر، وأيرلندا، ثم استقر فى مصر فى كل شتاء، حيث ابتاع بيتا فى ضواحى القاهرة، وتزيا بالزى المصرى، ولم يكن يتكلم إلا العربية. ومن آثاره: مستقبل الإسلام (١٨٨٢)، والتاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر (١٩٠٧)[١].

ومنهم من تعمق فى دراسة الإسلام فأسلم، وكتب عن الإسلام كتابات رائعة، مثل محمد أسد (ليوبولد فايس)، وعبدالرشيد الأنصارى (روبرت ولزلى)، والسيدة مريم جميل (مارجريت ماركوس)[٢].

* * *

فإذا ما نظرنا إلى الوجه الآخر للاستشراق، شاهدنا الصلة القوية بين الاستشراق والاستعمار منذ أواخر القرن العاشر الميلادى.. وكانت البداية الجادة الحادة تتمثل فى الحروب الصليبية التى تقنعت بقناع الدين، وهو منها براء.

وبعد انكسار القوى الصليبية الأولى، وما رأته من مظاهر النهضة فى الشرق الإسلامى عاودت الكرة، واستفادت من اختراع وسائل جديدة تمكن لها، واستعداداً لذلك كان لابد من أن تجول طلائع الغرب فى البلاد التى يجب قهرها، وأن تكون هذه الطلائع من الذين تعلموا اللغة العربية وغيرها من لغات الشرق، لكى يستطيعوا التحدث إلى الشعوب، والبحث فى الآثار، والتعرف على الأفكار، والقيام بالدعايات، وإثارة الفتن والمنازعات، حتى تقع البلاد فريسة بين مخالب الاستعمار...

فالوفاق كان تاما بين الاستشراق والاستعمار حيث ساعد أحدهما الآخر مساعدة فعالة؛ فالأول كان يعد أبناء وطنه لسحق الشرق والإسلام، ويصور عالم الشرق عامة والعالم العربى خاصة بصورة قبيحة فى أخلاقه، وعاداته، وآرائه كما يصور الإسلام فى صورة منفرة، ويلصق به كثيرا من الرذائل والمخازى والجهالات. ومن ثم تثار النعرات القومية من فرعونية، وفينيقية، وآشورية، حرصا على إبعاد الشعوب العربية عن منابعها الصافية: الإسلام والعروبة.

---

(١) نجيب العقيقى: المستشرقون: ٣/٥٥١.

(٢) ارجع إلى: أحمد محمد جمال: مفتريات على الإسلام ١٣ وجابر قميحة: آثار التبشير والاستشراق.. ١٥ – ٢٢.

ومما يقطع بالصلة الوثيقة بين الاستشراق والاستعمار أن كثيرا من المستشرقين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى فى القرن العشرين كانوا يعملون فى وزارة الخارجية لبلادهم، وعلى رأسهم المستشرق (أرنيست رينان) الذى كان يعمل مخططا للاستعمار الفرنسى، وغيره كثير فى البلدان الأوروبية التى اهتمت، ولا تزال تهتم، بالاستشراق ودراساته(١).

* * *

أما الحلقة الثالثة من حلقات التسلط الغربى بعد الاستشراق والاستعمار، فهى حلقة «التبشير»، والكلمة فى الاستعمال اللغوى ذات معنى طيب محبب لا غضاضة فيه(٢)، ولكن غلب عليها – اصطلاحا وعرفا – الدعوة إلى اعتناق الدين المسيحى، والعمل على نشره.

* * *

ومن المهام الأساسية للاستشراق إمداد الإرساليات التبشرية بما تحتاج إليه من الخبراء المستشرقين الذين يساهمون بخبرتهم فى هذا المجال، فالاستشراق عبارة عن هيئة استشارية عليا، تعمل على رسم الخطط، وإظهار الدراسات التى يجدها المبشرون وسيلة جاهزة للعمل بقوة ضد الإسلام محاولين بذلك إيقاف توسعه.

ولعله من العسير جدا الفصل بين الاستشراق والتبشير، ذلك أن زعماء حركة الاستشراق هم أيضاً أعضاء مرموقون فى حركة التبشير، كما أن الاثنين يسيران بتوجيه

---

(١) فى الصلة بين الاستشراق والاستعمار ارجع إلى:
د. محمد البهى: الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ٥٢ – ٦٨، وأحمد سمايلوفتش (مرجع سبق ١١٩ – ١٢٥)، ومحمد فتح الله الزيادى: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها ٨١ – ٨٣، د. على حسنى الخربوطلى: المستشرقون والتاريخ الإسلامى ٤٠ – ٤٨، الاستشراق: إدوارد سعيد ١١٧ – ١٣٣.

(٢) جاء فى القاموس المحيط: والمباشرة والتبشير كالإبشار والاستبشار والبشارة، الاسم منه كالبشرى، وهو أبشر منه: أى أحسن وأجمل. والبِشْر: الطلاقة (٤٤٧). والكلمة فى الاستعمال القرآنى تطرد بمعنى الوعد بما هو طيب ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥]، ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾ [مريم:٧]، ولا تخرج الكلمة عن ذلك إلا على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة:٣]، [انظر الراغب الأصفهانى: المفردات فى غريب القرآن ٥٧ – ٥٩].

واحد مستمد من الدوائر الاستعمارية والكنسية، وكذلك يتلقيان مواردهما المالية من مصدر واحد، ولذلك فلا غرابة أن يكون الاستشراق عونا وسندا للتبشير فى إنجاح مهمته[1].

ولا ريب فى أن الباعث الحقيقى والأول فى رأى القائمين على التبشير إنما هو «**القضاء على الأديان غير النصرانية**»؛ توصلا إلى استعباد أتباعها. إن المعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين، بل هى معركة فى سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية، حتى إن البروتستانت مثلا لا يكتفون بأن يظل المسيحى أرثوذكسيا بل يجب أن يصبح مسيحيا بروتستانتيا: إن هوى الكاثوليك مع فرنسا وهوى الأرثوذكس مع الروسية، فإذا انتقل هذان إلى البروتستانتية أصبح هواهما مع أمريكا فى الدرجة الأولى، ومع إنجلترا فى الدرجة الثانية.

وفرنسا أيضاً كانت تخشى قوة الإسلام، لأن الإسلام القوى خطر يهدد استعمارها.. ويبدو بوضوح أن أشد الأديان مراسا فى إباء الاستعباد إنما هو الإسلام، ولذلك يتمنى المبشرون أن ينصروا المسلمين كلهم. ومع أن التبشير يتناول البوذيين، والبرهميين أيضاً فإن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون، ولقد استوى فى هذه الرغبة جميع المبشرين، على الرغم من اختلاف طوائفهم وتباين الأقنعة التى يرفعونها على وجوههم[2].

وحتى يتمكن المبشرون من استعباد المسلمين وشدهم إلى المسيحية والسيطرة عليهم كان أخشى ما يخشونه هو «وحدة المسلمين»، لذلك عملوا على إبقائها مفتتة ضائعة.

يقول لورنس براون Lawrance Brown فى كتابه «**الإسلام والإرساليات**» **Eslam and Missions**: إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة وبلا تأثير.

---

(١) محمد فتح الله الزيادي: مرجع سبق ٩٧.

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ٤٥.

ويفصح **القس كالهون سيمون** عن رغبة التبشير القوية فى تفريق المسلمين التى عبر عنها براون من قبل بقوله: «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود، وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوربية، ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً فى كسر شوكة هذه الحركات، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصر القوة، والتمركز فيها»...

والتبشير إذ يرى هدفه المباشر تفكيك المسلمين، يرى بالتالى درء خطر وحدتهم على استعمار الشعوب الأوربية وعلى استغلالها واستنزافها لثروات المسلمين. وفى هذا المعنى يقول **لورانس براون**: «الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى».

... وهناك بجانب **تفتيت وحدة المسلمين** - كهدف للمبشرين - هدف آخر هو **التنفيس عن الصليبية، وعن الانهزامات التى منى بها الصليبيون** طوال قرنين من الزمان أنفقوهما فى محاولة الاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدى المسلمين **«الهمجيين»**!!

يقول اليسوعيون: «ألم نكن نحن ورثة الصليبيين؟ أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيرى والتمدين المسيحى، ولنعيد - فى ظل العلم الفرنسى وباسم الكنيسة - مملكة المسيح؟».

وبجانب هذا وذاك يرى المستشرق الألمانى **بيكر Becker «أن هناك عداءً من النصرانية للإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر فى العصور الوسطى أقام سدا منيعا فى وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجانها»**.

هذه هى الأهداف الثلاثة للتبشير والمبشرين:

- تفتيت وحدة المسلمين.

- التنفيس عن عقدة الهزائم التاريخية التى منى بها الصليبيون من قبل.

- الثأر من الإسلام لوقوفه فى وجه انتشار المسيحية.

وكل هذه الأهداف ترمى فى النهاية إلى تمكين الأوربى المسيحى من المسلم الشرقى،

ومن وطنه؛ أى إرساء الاستعمار الغربى بكل صوره. فلا عجب إذن أن كانت الدول الأجنبية تبسط الحماية على مبشريها فى بلاد الشرق، لأنها تعدهم حملة لتجارتها وآرائها ولثقافتها إلى تلك البلاد[1].

* * *

وعلى أية حال أصبح التبشير هو الصورة الجديدة للاستشراق، وبتعبير أدق هو الصورة الباقية من الاستشراق، فقد كانت الصليبية مصدرا نفسيا وروحيا وعقديا وماديا طبعا لكثير من المستشرقين على مدار التاريخ.

وأصبح «التبشير» فى وقتنا الحاضر يتمثل فى عنصرين:

الأول: هو العنصر الأجنبى (الأوربى والأمريكى): فى هيئة قسس وعلماء وأطباء ورجال أعمال ينطلقون لمباشرة مهماتهم فى بلاد العالم الثالث وغاباته وأحراشه.

والثانى: هو العنصر الوطنى: ويتمثل فى رجال الدين المحليين، وأغلبهم صنعهم المستشرقون المبشرون على أعينهم، وكثير منهم تخرجوا فى الكليات اللاهوتية فى أوربا وأمريكا.

وفى هؤلاء وهؤلاء، وفى حركات التبشير الحالية نستطيع أن نرى بوضوح الملامح والسمات الآتية:

١ - **فمن ناحية الكم**: نلمس كثرة العدد، وتجدد موجات التبشير، وتوالى إرسالياته، فقد بلغ عدد المبشرين «العالميين» مائتين وخمسين ألف مبشر[2]، فى مقابل ألفين وخمسمائة داعية مسلم على مستوى العالم كله!

٢ - **البراعة والفاعلية والقدرة على الحركة والتنفيذ**: وذلك لأن حركات التبشير وإرسالياته التى تنتشر فى دول العالم الثالث **تتحرك وفى حوزتها**:

أ - رصيد ضخم من المال: فهى تنفق منه فى بذخ فى شتى المجالات: لا على دعاتها

---

(١) انظر: محمد البهى: مرجع سبق ٥٢٥ - ٥٢٧.
وكذلك الخالدى وفروخ: مرجع سبق ٥٠، ١١٧.

(٢) وهى إحصائية مضى عليها قرابة عقدين، ولاشك أنها تعد متواضعة أمام واقع اليوم. ولم أتمكن من الحصول على إحصائية أحدث من السابقة.

وعملائها فحسب، ولكن فى صورة بناء المراكز الثقافية، والمدارس التبشيرية، والمعونات الاجتماعية.

ب – رصيد ضخم من النفوذ السياسى، والثقل الاقتصادى، والسمعة العالمية الرنانة، مما يدفع السلطات والحكومات المحلية إلى أن تيسر لهؤلاء – بالقصد أو بالترك والإهمال – حرية الحركة بلا قيود أو شروط.

جـ – رصيد ضخم من التقنية فى وسائل الإعلام والدعوة منها الكتاب و« الكاسيت » المسموع، و« الكاسيت » المرئى، والأفلام السينمائية، والرحلات المنظمة، وأخيرا « شبكات الإنترنت ».

د – رصيد ذاتى ضخم للداعية المبشر من اللغات والثقافة الموسوعية، زيادة على تخصصه الأصلى من طب أو زراعة أو هندسة، ويدخل فى هذه الثقافة استيعاب كل ما يتعلق بالبيئة التى تمثل حقلا لنشاط المبشر(١).

وهذه المواجهة – غير المتكافئة – اقتضت من أعداء الإسلام توجيه كل الطاقات والإمكانات، وتكريس الأنشطة السياسية والاقتصادية والدينية لتحقيق الأهداف التى ذكرناها آنفا. وقد ركز المؤتمر الاستعمارى المنعقد فى أدنبرج على ضرورة ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية فى سياسة الاستعمار الألمانى، مؤكدا أن نمو الاستعمار إنما يتوقف على نجاح المنصرين فى إدخال الدين المسيحى إلى البلاد المستعمرة. وكانت أهم قرارات هذا المؤتمر: « ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم، لذلك فإن المؤتمر الاستعمارى ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة. والمؤتمر الاستعمارى – مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماما فى الشئون الدينية – يشير على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه أن يمد نطاق الإسلام، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التى تبث مبادئ المدنية خصوصا بخدماتهم الدينية والطبية. ومن رأى المؤتمر أن الخطر الإسلامى يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير من غير تسويف فى كل الأرجاء التى لم يصل إليها بعد »(٢).

---

(١) قميحة: آثار التبشير والاستشراق ٣٧ – ٣٩.

(٢) أ. شاتيليه: الغارة على العالم الإسلامى ٤٩ – ٥٠.

وقد يعجز المبشرون عن تنصير المسلمين - بل يحدث ذلك كثيرا - فإذا لم يتحقق لهم إحلال المسيحية محل الإسلام فى قلوب المسلمين «قنع المبشرون أن يكون عملهم «الإنسانى» مقصوراً على زعزعة عقيدة المسلمين»[1]. وقد نقل عن الكاردينال لافيجى الفرنسى - وقد هاله سرعة انتشار الإسلام فى أفريقيا - قوله: «**لأن يكون الإنسان بلا دين خيراً من أن يكون مسلما**»[2] كما كتب أحد هؤلاء فى جريدة «**الكرستيان إكسبريس**» التى تصدر فى جنوب أفريقيا «.. **والحرب الكبرى ليست بين المسيحية والوثنية، بل بينها وبين الإسلام**»[3]!

وتفريغ المسلم من دينه، وسلخه عن قيمه الإسلامية العليا قد يغدو هو المهمة الأولى والأساسية عند المبشر، وقد أكد هذا المعنى، وألح عليه «**القس زويمر**» رئيس مؤتمر القدس التبشيرى بقوله مخاطبا المبشرين أعضاء الإرساليات التبشيرية:

«إن مهمة التبشير التى ندبتْكم دول المسيحية بها فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية.. فإن فى هذا هداية لهم وتكريما... **وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها**، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به فى خلال الأعوام السابقة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه»[4].

*****

---

(١) الخالدى وفروخ: التبشير والاستعمار ٤٦.

(٢) محمد فريد وجدى: دائرة معارف القرن العشرين ٢/ ٢١١.

(٣) محمد فريد وجدى: السابق ٢/ ٢١٤.

(٤) سفر بن عبد الرحمن: العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها ٥٥٢.

٢ - العلمـانيــة..

يحرص أصحاب هذا المذهب، ومن دعا إليه من العرب أن ينطقوه ويكتبوه بالصورة الآتية:

العِلْمانية (بكسر العين وتسكين اللام) إيهاما بارتباطه بالعلم، وليس بين المصطلح – حتى فى تعريف أصحابه – أدنى صلة بالعلم، ولكن الارتباط الحقيقى **بالعالم أو الدنيا**، فالكلمة فى أصلها الإنجليزى: **Secularism**. وتعريفها فى دائرة المعارف البريطانية:

هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها: ذلك أنه كان لدى الناس فى العصور الوسطى رغبة شديدة فى العزوف عن الدنيا، والتأمل فى الله واليوم الآخر. ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ **Secularism** تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس فى عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية البشرية. وظل الاتجاه إلى الـ **Secularism** يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية[١].

وكان الدافع القوى لظهور العلمانية كمفهوم سياسى واجتماعى فى أوربا إبان عصور التنوير والنهضة هو معارضة سيطرة الكنيسة على الدولة والمجتمع، وتنظيمها على أساس الانتماءات الدينية والطائفية، فرأت أن من شأن الدين أن يعنى بتنظيم العلاقة بين البشر وربهم، ونادت بفصل الدين عن الدولة[٢].

وهكذا يتضح أنه لا علاقة للكلمة بالعلم، إنما علاقتها قائمة بالدين، ولكن على أساس سلبى، أى على أساس نفى الدين والقيم الدينية عن الحياة.. **وأولى الترجمات بها فى العربية أن نسميها «اللا دينية»** بصرف النظر عن دعوى «العالمانيين فى الغرب بأن العالمانية لا تعادى الدين، وإنما تبعده فقط عن مجالات الحياة الواقعية: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية.. إلخ ولكنها تترك للناس حرية التدين بالمعنى

---

(١) Eneyc Britaniea V.1X P.19، نقلا عن: محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ٤٤٥.

(٢) عبد الوهاب الكيالى وآخرون: موسوعة السياسة ٤ / ١٧٩.

الفردى الاعتقادى، على أن يظل هذا التدين مزاجا شخصيا، لا دخل له بأمور الحياة العملية »[1].

وبهذا تكون العلمانية قد فصلت بين الممارسة الدينية التى اعتبرتها ممارسة شخصية، والممارسة السياسية التى نظرت إليها كممارسة اجتماعية[2].

وهذا هو جوهر العلمانية التى تمخضت عن صراع بين الكنيسة ونفوذ رجال الدين من ناحية، وبين التنويريين الماديين من ناحية أخرى..

« وتبدو نشأة العلمانية فى أوربا أمرا منطقيا مع مسير الأحداث هناك، نظرا لعبث الكنيسة بدين الله المنزل، وتحريفه وتشويهه، وتقديمه للناس فى صورة منفرة دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث، وإرجاعه إلى أصوله الصحيحة المنزلة، كما هو الحال مع القرآن، المحفوظ – بقدر الله ومشيئته – من كل عبث، أو تحريف خلال القرون »[3].

كان هناك نفوذ ضخم جدا لرجال الدين يمارس باسم الدين فى مجال العقيدة وفى مجالات الحياة العملية كلها من قبل رجال الدين، ويتمثل فى حس الناس هناك على أنه هو الدين... وهذا النفوذ كان نفوذا شاملا على الملوك وعامة الناس:

فالملوك لا يجلسون على عروشهم إلا بإذن البابا ومباركته، ولا يتولون سلطانهم على شعوبهم إلا بتولية البابا لهم، وإذا غضب عليهم البابا غضبا شخصيا لا علاقة له بالدين، نبذتهم شعوبهم، ولم تذعن لأوامرهم.

وأما نفوذهم على عامة الناس فيضمن أنهم لا يصبحون مسيحيين إلا بحضور الكاهن أمامهم فى الكنيسة. وفى الموت لابد من إقامة قداس الجنازة لهم على يد الكاهن.

فلم يكن الدين فى ذاته إذن هو مصدر السوء فى الحياة الأوربية فى تلك الفترة، إنما كان فساد الدين – على أيدى رجال الدين – هو السبب فى ذلك الظلام الذى اكتنف أوربا فى قرونها الوسطى المظلمة الحالكة السواد... فكانت سيطرة الدين الكنسى على الحياة الأوربية فى قرونها المظلمة أمراً سيئاً؛ لأن ذلك الدين – بما حواه من انحرافات

---

(١) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة – ٤٤٥.

(٢) موسوعة السياسة مرجع سبق ٤ /١٧٩ – ١٨٠.

(٣) محمد قطب: مرجع سبق ٤٤٦.

جذرية فى العقيدة من ناحية، وفى فصل العقيدة عن الشريعة من ناحية أخرى، وفى فساد ممثليه من رجال الدين وجهالتهم من ناحية ثالثة - كان مفسدا للحياة، ومعطلا لدفعتها الحية، كما كان مفسداً للعقول، ومعطلاً لها عن التفكير السليم.

لذلك كان نبذ ذلك الدين والانسلاخ منه أمرا ضروريا لأوربا، إذا أرادت أن تتقدم وتتحضر وتعيش(١).

ولكن **البديل الذى اتخذته أوربا بدلاً من دينها** لم يكن أقل سوءا إن لم يكن أشد، وإن كان قد أتاح لها كل العلم والتمكن المادى الذى يطمح إليه البشر وهو العلمانية(٢).

وينتج من ذلك المفهوم أن يُستبعد الدين من دائرة الوعى الاجتماعى، والعادات، والتقاليد، والسلوكيات، ومضامين الآداب، والمذاهب الفكرية، والقوانين؛ اللهم إلا إذا دخلت عناصر منه على سبيل المؤثرات التاريخية أو التراثية، أو إذا وجدت كعوامل هامشية فى نطاق ما رسم لها من أثر روحى أو وجدانى غير فعال على المستوى المخصص للأمور الدنيوية(٣).

فالواقع الأوربى الساقط هو الذى أفرز هذه العلمانية كرد فعل لهذا السقوط فى شتى المجالات.. ذلك السقوط الذى صنعه رجال الكهنوت، أو ما يسمى بالسلطة الدينية. ولا نكون غالين إذا رأينا مع الدكتور محمد البهى **أن الإسلام لو كان فى أوروبا، ما نشأت العلمانية فى الفكر الأوروبى، ولما وصل تفكير بعض المفكرين فى أوروبا إلى التطرف فى المادية، والجنوح إلى شحن النفوس بالأحقاد، ودفعها إلى الانقلاب الدموى لحل بعض المشاكل الاجتماعية**(٤).

ومن ثم فنحن - المسلمين - لسنا مواجهين بتلك الثنائية المتناقضة، ولا بذلك الاستقطاب الحاد اللذين شهدتهما الحضارة الغربية وواقعها، واللذين جعلا الأمور أبيض أو أسود فقط!! والإجابة إما بـ(نعم) أو (لا) فحسب.. فلذلك كانت هناك العلمانية بما تعنى من فصل الدين عن الدولة، أو السعى لهدمه، وانتزاع تأثره وأثره من الدولة

---

(١) انظر: محمد قطب: مرجع سبق ٤٤٥ - ٤٥١.

(٢) د. محمد يحيى: فى الرد على العلمانيين ٢١.

(٣) السابق ٢٢.

(٤) د. محمد البهى: العلمانية والإسلام ٥٤.

والمجتمع معا، كانت العلمانية أو الكهانة والسلطة الدينية والحكم بالحق الإلهى؛ إما هذه وإما تلك؟ ولا طريق بينهما هناك.

نحن لسنا مواجهين بتلك الثنائية، ولا بأى من المقدمات والملابسات التى أثمرت نشأة العلمانية فى واقع الحضارة الغربية، وحتى عندما نواجه القلة القليلة من علماء الدين الإسلامى الذين يحاولون أن يجعلوا من أنفسهم «كهنة ورجال الدين» فإننا لا نواجههم بالعلمانية التى تعزل الدين عن الدولة، وإنما نواجههم **بالإسلام الدين** «الذى ينكر الكهانة والسلطة الدينية»(١).

وهناك حقيقة بالغة الأهمية تنفى أى تشابه بين طبيعة الإسلام وحضارته وبين طبيعة المسيحية وحضارتها الغربية فى هذا الميدان: ميدان الواقع الذى جعل العلمانية حلا مقبولا هناك، على حين رآها ويراها شذوذا مرفوضا فى واقع الإسلام والمسلمين:

ذلك أن العلمانية فى الحضارة الغربية - فوق أنها كانت رد الفعل الطبيعى على استبداد الكهانة الكنسية بشئون الدولة والمجتمع المادية والفكرية وجمودها وتجاوزاتها - فإن هذه العلمانية كانت الحل الطبيعى والصحيح فى إطار الحضارة المسيحية؛ ذلك لأن المسيحية ديانة روحية ليس بها تشريع مدنى لحكم الدولة، وسياسة المجتمع، وهى قد دعت إلى ترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وحددت لكنيستها ميدانا لا تتعداه هو «خلاص الأرواح». ومن هنا فإن الدولة فى ظل الديانة المسيحية لابد أن تكون «علمانية»، تفصل الدين عن مكان الهيمنة على المجتمع ومؤسساته الدنيوية. فالعلمانية فى الإطار المسيحى لا تمثل عدوانا على المسيحية، ولا على كنيستها، وإنما تمثل التصحيح الذى يعيد الكنيسة ولاهوتها إلى إطارهما الطبيعى والصحيح(٢).

* * *

وغزت العلمانية الوطن العربى بضراوة وقساوة داعية إلى عزل الدين عن العلم، «فالإسلام من وجهة نظرهم مجرد عبادة، وصلة روحية بين الخالق والمخلوق. مع أن طبيعة الإسلام أنه دين ودولة، وشريعة ومنهاج، ونظام وعمل، وعبادة وجهاد، وهى حقيقة لا يؤيدها واقع التشريع الإلهى فحسب، ولكنها يؤيدها واقع التاريخ فى مسلك النبى ﷺ، وخلفائه الراشدين من بعده **وهذه الحقيقة اعترف بها منصفو المستشرقين ومنهم**:

---

(١) د. محمد عمارة: العلمانية ونهضتنا الحديثة ٢٠٧.

(٢) محمد عمارة: السابق ٢٨.

فتزجرالد الذى يقول: «ليس الإسلام دينا فحسب، ولكنه نظام سياسى أيضا».

ويقول **نلينو**: «لقد أسس محمد فى وقت واحد دينا ودولة، وكانت حدودهما متطابقة طول حياته»(١).

وفى الاتفاقية الخاصة بحقوق الدول وواجباتها التى عقدتها الدول الأمريكية فى مونتفديو فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٣٣ تنص المادة الأولى من هذه الاتفاقية على ما يأتى:

يجب لكى تعتبر الدول شخصا من أشخاص القانون الدولى أن تتوافر فيه الشروط الآتية:

١- شعب دائم.

٢- إقليم محدد.

٣- حكومة.

٤- أهلية الدخول فى علاقات مع الدول الأخرى(٢).

وبدون تعمل أو إسراف نستطيع أن نقول إن المجتمع الذى استقر على أرض المدينة كان - بوجود النبى ﷺ، وعلى مدى عشر سنوات - يمثل - بكل معنى الكلمة - دولة متكاملة لها كل الشرائط والأركان السابقة:

- فالمدينة رقعة من الأرض أو إقليم له حدوده المميزة المعروفة عند سكانها وغيرهم.

- والشعب هو جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم من أجل عقيدتهم، وقد جمع النبى ﷺ بين هذه العناصر وصهرها فى بوتقة واحدة، فربطت بينهم قيمة الحب والإخاء والإيثار.

كما ضمت المنطقة أقليات أخرى أغلبها من اليهود، وخصوصا بنى قينقاع.

- أما الحكومة فهى حكومة الرسول ﷺ، وقد اعتمدت فى الحكم على ركائز إنسانية، من أهمها الشورى والعدل.

---

(١) انظر د. ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية ٢٨-٢٩، وقد أورد شهادات أخرى لغربيين عدول.

(٢) د. حامد سلطان: القانون الدولى العام وقت السلم، ٣٤٣. وانظر د. محمد كامل ليلة: النظم السياسية: الدولة والحكومة ١٩-٦٨.

- وكل أولئك جعل لهذه الدولة الجديدة أهلية كاملة فى التعامل - كشخصية اعتبارية - مع الآخرين[١]، بل إن النبى ﷺ باشر مهماته السياسية عند وصوله إلى المدينة مباشرة، فكتب «**دستور المعايشة**»، وهو يعد من أطول كتبه - إن لم يكن أطولها - وهو ينظم العلاقات الاجتماعية والقانونية، وأسلوب التعامل، ويحدد الحقوق والواجبات فى حالتى الحرب والسلم فى هذا المجتمع الجديد بما فيه من مهاجرين وأنصار، وجماعات وقبائل اليهود[٢].

وفيه تقنين لخروج الإنسان من إطار القبيلة والقبلية إلى رحاب الدولة والأمة.. وهذا الدستور الجديد لهذه الدولة الجديدة لم ينسخ جملة وبإطلاق كل أعراف الجاهلية، بل أقر منها ما هو صالح لا يتعارض مع روح الشريعة، ولا يتصادم مع التطور الجديد[٣].

وانطلاقا من هذا المفهوم الشمولى العادل لا يعرف الإسلام هذه التفريقات التى شاعت، واشتهرت بين ما يسمى بالسلطة الزمنية، والسلطة الدينية، أو بين الدين والدولة. وكان ابن القيم على حق حين كتب أن «**تقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة، وتقسيم الدين إلى عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل. بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل: كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها**»[٤].

ومن ثم أطلق الفقهاء على «سياسة الحكم» مصطلح «السياسة الشرعية»، وهى تعنى «تدبير الشئون العامة للدولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار، مما لا يتعدى حدود الشريعة»[٥].

* * *

(١) انظر: جابر قميحة: أدب الرسائل فى صدر الإسلام ١/٤٦-٤٧.

(٢) انظر: قميحة، السابق ٥٥-٦٨. وانظر فيه أيضا نص هذا الدستور ١٥٥-١٥٩.

(٣) انظر: محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان: ضرورات لا حقوق ١٥٣-١٥٦. هذا وإقرار الإسلام لبعض فضائل الجاهلية يدل على مرونته وسماحته. يدل على ذلك إقرار النبى ﷺ لحلف الفضول الذى عقد فى الجاهلية وحضره النبى قبل بعثته. وبعد البعثة قال عنه: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم. ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت».

انظر سيرة ابن هشام ١/١٣٣- وانظر: جابر قميحة، المدخل إلى القيم الإسلامية ٢٣-٢٥.

(٤) ابن القيم: إعلام الموقعين ٤/٣٧٥.

(٥) عبد الوهاب خلاف: السياسة الشرعية ٨٢.

إن الإسلام يأبى إلا أن يواجه الحياة كلها بأحكامه ووصاياه، وأن يصبغها بصبغته، وهى صبغة الله سبحانه وتعالى ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً** ﴾ [البقرة :١٣٨] .

ويضفى عليها من روحه الصافية، وهى روح ربانية الغاية، أخلاقية المنزع، إنسانية المضمون .

ولا يقبل الإسلام إلا أن يصحب الإنسان – بتوجيهه وتشريعه – فى رحلة الحياة منذ أن يولد ، وإلى أن يموت، بل قبل أن يولد، وبعد أن يموت .

ولا يرضى الإسلام أن يكون فى الحياة فضلةً لا عمدة، وأن يكون له منها الهامش لا الصلب، وأن يكون لغيره القيادة، وعليه الطاعة والاتباع .

والإسلام بطبيعته يرفض أن يكون له مجرد ركن فى الحياة، وهو موجه الحياة وصانعها، يرفض أن يكون مجرد ضيف على العلمانية، وهو صاحب الدار[١] .

* * *

ومع وضوح ما ذكرنا يعلو صوت العلمانيين على مستوى البلاد العربية والإسلامية منكرا حاكمية الإسلام، منكرا أنه دين ودولة، وأنه نظام شامل، وأن سياسة الأمة – والفقهاء يسمونها السياسة الشرعية– جانب من أهم جوانبه .

فما تعليل ظاهرة «الإنكار» هذه؟ تلك الظاهرة التى استفحل أمرها وتورمت تورمها الخبيث المنكود؟

ربما كان السبب الأول يكمن فى حرص هؤلاء العلمانيين على أن يظل الإسلام دينا غير متميز، ومحصورا فى مجموعة من العبادات والروحانيات، شأن الأديان السابقة، ويفقد عنصره الفارق الفائق، وهو نظام الحكم وقواعد تنظيم الدولة؛ اعتمادا على العدل والشورى والتكافل والقيم الإنسانية، وبذلك يبقى الإسلام دينا تابعا، ويجد من يقول إنه مسبوق فى قواعده الباقية أو التى شاء لها العلمانيون البقاء بدينين سابقين هما اليهودية والمسيحية . ولا مانع من توحيد الأديان ما دامت لحمتها وسداها « عبادة الله »!

---

(١) د. يوسف القرضاوي: الإسلام والعلمانية وجها لوجه ١٠٤–١٠٥ .

ولا مانع من أن تنضوى البيع و الكنائس والمساجد فى مجمع واحد هو **مجمع الأديان**[1]!

ولكن هذا تعليل يحتاج إلى أن يعلَّل؛ فهذا الحرص من هؤلاء العلمانيين، على ألا يكون الإسلام فائقا متميزا وراءه تراكمات من الأحقاد الضارية، منها ما هو شخصى، ومنها ما هو تاريخى، وذلك يحتاج إلى شرح وتفصيل لا يتسع له المقام.

* * *

ومن أسباب الدعوة إلى تحجيم الإسلام وعزله عن الدولة، وتجريده من الحاكمية والطوابع السياسية «**الافتتان بالغرب**»، أو «**عقدة الخواجة**» التى ما زالت تسيطر على «المراكز العصبية» عند كثير جدا من الكتاب والمفكرين.. إنهم مبهورون بالتقدم التقنى، والاقتصادى، والعسكرى للغرب، وهى حقيقة لا يستطيع أحد إنكارها، وفى مواجهتها حقيقة مرة مقابلة لها، وهى تخلف الشرق فى هذه المجالات، وقد علل العلمانيون ذلك بأن الغرب «**علمانى بالطبع**»، يسير أموره فى هذه المجالات وغيرها بمعزل بعيد عن الدين، أما الشرق فلا..

وهى أكذوبة ضالة مضلة، لأن غالبية البلاد العربية والإسلامية «علمانية الحكم» شكلا وموضوعا، ونظمها الاقتصادية بالذات تقوم على أساس ربوى، وبعضها يضع وصف «الاشتراكية» مفردة مهمة فى الاسم الرسمى للدولة.

* * *

ومن الدوافع كذلك «طلب الشهرة والأضواء»، فقد أصبح الهجوم على الإسلام وإنكار قيمه وملامحه السياسية أيسر السبل وأقربها إلى شد الأضواء، وتحقيق الشهرة على المستويين المحلى والعالمى:

ومن هؤلاء قاض مغمور هو على عبد الرازق الذى دخل عالم الشهرة بكتاب كتبه (أو كُتب له) اسمه «الإسلام وأصول الحكم»، ادعى فيه أن الإسلام مجرد عبادات وروحانيات، ولا علاقة له بالحكم والسياسة، وأن محمداً ﷺ ما هو إلا مبلغ رسالة دينية

---

(١) وهى دعوة تبناها كثير من العلمانيين سنعود إليها مرة أخرى.

روحية، وما كان إلا كإخوانه الرسل السابقين، وما كان حاكما، ولا مؤسس دولة(١).

وانفتح باب الشهرة أمام كاتب أزهرى هو « خالد محمد خالد » بكتاب أصدره فى مطلع الخمسينيات باسم (من هنا نبدأ)، تبنى فيه آراء على عبد الرازق مع شيء من التزيد والتضخيم والحماسة فى أسلوب طلى أدبى فتان(٢).

* * *

ومن الدوافع إلى تحجيم الإسلام وعزله وحرمانه من أداء أدواره السياسية والاجتماعية والاقتصادية **الحرص على تحقيق مصالح شخصية أو سياسية**، تتعلق بالأنظمة الحاكمة القائمة، فالمعروف أن تحكيم الإسلام فى صورته الحقيقية الشاملة مطلب شعبى جماهيرى، تحرص عليه شعوب الأمة العربية والإسلامية، ليكون بديلا عن النظم العلمانية فى السياسة والاقتصاد والقوانين الجزائية، بل فى بعض جوانب قوانين الأحوال الشخصية كتحريم تعدد الزوجات بصورة صريحة أو مقننة.

ولكن المنتفعين بالأوضاع - ومنهم مسئولون كبار ومتعالمون ومتفيهقون - ينهضون، ويزعمون أن القوانين الوضعية المهيمنة، **لا تتعارض مع القواعد والمبادئ الإسلامية**، ما عدا القليل جدا من الفرعيات، وهذا القليل جدا يتسع له «**باب المصلحة**»، وممن يتولى كبر هذه الدعوة المستشار **محمد سعيد العشماوى** بعدد من الإصدارات المطبوعة طباعة فاخرة منها: كتاب «**الشريعة الإسلامية والقانون المصرى**»، قام فيه بعمليات تلفيق مكشوفة خلص منها إلى أن الفروق تكاد تنمحى بين القوانين المصرية الوضعية وقواعد الشريعة الإسلامية!

* * *

(١) وقد فند آراءه أستاذنا الدكتور محمد ضياء الدين الريس فى كتابه « النظريات السياسية الإسلامية » سنة ١٩٥٢، وكتابه « الإسلام والخلافة فى العصر الحديث » سنة ١٩٧٦، ثم واصل الدكتور محمد عمارة مسيرة نقض كتاب على عبد الرازق بكتاب صدر له سنة ١٩٨٥ باسم « معركة الإسلام وأصول الحكم »، ووصله بكتاب آخر سنة ١٩٩٥ باسم « الإسلام بين التنوير والتزوير ».

(٢) ممن نقضوا كتابه الشيخ محمد الغزالى بكتابه « من هنا نعلم ». وكتب عبد المتعال الصعيدى بعد صدور الكتابين كتابا بعنوان « من أين نبدأ ». ولكننا نسجل هنا أن خالد محمد خالد قبل وفاته ببضع سنين أصدر كتابا بعنوان « الدولة الإسلامية » نقض فيه كل ما كتبه فى كتابه الأول، معترفا فى أمانة وصدق .. أنه جانب الحق والصواب فى كتابه « من هنا نبدأ ».

ومن أبشع وسائل التضليل العلماني أنهم في دعوتهم لعزل الإسلام في محراب العبادة والروحانيات، وسلبه طوابعه وملامحه السياسية **يتظاهرون بأنهم مدفوعون إلى ذلك بالإشفاق على الإسلام وتنزيهه والسمو به، وحفظ مكانته على مدار التاريخ.** ولنسق شاهدا لأحدهم وهو محمد سعيد العشماوى الذى كتب يقول: «أراد الله للإسلام أن يكون دينا، وأراد به الناس أن يكون سياسة، والدين عام إنسانى شامل، أما السياسة فهى قاصرة، محدودة، قبلية محلية ومؤقتة، وقصر الدين على السياسة قصر له على نطاق ضيق وإقليم خاص، وجماعة معينة، ووقت بذاته.

الدين يستشرف فى الإنسان أرقى ما فيه، وأسمى ما يمكن أن يرقى إليه، والسياسة تستثير فيه أحط ما يمكن أن ينزل إليه، وأدنى ما يمكن أن يهبط فيه، وممارسة السياسة باسم الدين، أو مباشرة الدين بأسلوب السياسة يحوله إلى حروب لا تنتهى، وتحزبات لا تتوقف، وصراعات لا تخمد، وأتون لا يهمد، فضلا عن أنها تحصر الغايات فى المناصب، وتخلط الأهداف بالمغانم، وتفسد الضمائر بالعروض.

لكل أولئك فإن تسييس الدين أو تديين السياسة لا يكون إلا عملا من أعمال الفجار الأشرار، أو عملا من أعمال الجهال غير المبصرين؛ لأنه يضع للانتهازية عنوانا من الدين، ويقدم للظلم تبريرا من الآيات، ويعطى للجشع اسما من الشريعة، ويضفى على الانحراف هالة من الإيمان، ويجعل سفك الدماء - ظلما وعدوانا - عملا من أعمال الجهاد»(1).

وحتى لا تضيع الفكرة فى هذا الركام المنفوش الذى قدمه العشماوى نحاول أن نلخص معروضه فى النقاط الآتية:

١- أراد الله للإسلام أن يكون دينا (روحانيا)، ولكن الناس خالفوا إرادة الله، وانحرفوا به إلى السياسة.

٢- قصر الدين على السياسة تحجيم له، وتضييق لمجالاته.

٣- الدين سمو ورفعة وارتقاء، والسياسة انحدار وصراعات. وإنزال الدين إلى الحكم والسياسة إنقاص من قيمة الدين، وإشعال للصراعات والحروب والمطامع.

---

(1) محمد سعيد العشماوى: الإسلام السياسى ٧ .

٤ – الذين يدعون إلى تحكيم الإسلام ما هم إلا فجار أشرار، جهال منتهزون، يجعلون من الإسلام تبريرا للظلم والعدوان وسفك الدماء. .إلخ.

ومن طبيعة العشماوى أنه يطلق الأحكام بحماسة مسعورة مجردة من أى دليل له قيمة، كما أنه يعمد إلى التعميم فى الأحكام بصورة تتناقض مع الحد الأدنى من التفكير السديد، فهو يقول فى أحد كتبه عن الخلافة الإسلامية: «**نظام الخلافة لا يختلف عن أى نظام سياسى متخلف فى السطو، والسيطرة، والغشومة، والظلم، والاستبداد، والتنكر لحقوق الإنسان، وتنكب حدود الله**».(١)

«**الخلافة لم تخدم الإسلام حقيقة، بل إنها أضرت به حين ربطت العقيدة بالسياسة، ومزجت الشريعة بنظام الحكم**».(٢)

وهذا المعروض العشماوى لا يستحق أن نقف أمامه مفندين، فالذى أوتى أثارة من قدرة التفكير، واستقراء التاريخ يستطيع أن يتبين ما فى هذا المعروض من هشاشة وسقوط.

ولكننا سنفرض معه جدلا أن مفهوم السياسة التى يريد أن ينزه الإسلام عن خوض مخاضها.. سنفرض أنها بهذه الصورة الشائهة الممسوخة، ومع هذا الفرض لا يعد تنزيها للإسلام،و لا رفعا لشأنه عزله وإبعاده عن معتركاتها؛ لأن جوهر رسالة الإسلام هو «الإصلاح».. إصلاح المعوج، وإحلال الخير مكان الشر، ومعالجة أمراض المجتمع فى كل المجالات.

ومن عظمة الإسلام أن اهتمامه بالأساسيات، والثوابت، والأصول، وأمهات المسائل لم يلغ اهتمامه بالفروع والعوارض والمشكلات الخاصة، فدستور الإسلام – وهو القرآن الذى تدعو آياته إلى توحيد الله، وترك الشرك، وإعداد الأمة للجهاد، والذى أحل البيع، وحرم الربا والغش – هو نفسه الذى نزلت فيه آيات تعاتب النبى ﷺ لأنه انصرف عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى إلى سراة قريش وعليتهم طمعا فى إسلامهم، فنزل قوله تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ**﴾ [عبس: ١، ٢](٣).

ويعرض شكوى (خولة بنت ثعلبة) فى زوجها (أوس بن الصامت) التى قدمتها

(١) العشماوى: الخلافة الإسلامية ١٣.

(٢) العشماوى: السابق ٢٥.

(٣) انظر: الواحدى: أسباب النزول ٣٣٢ وكذلك: السيوطى: لباب النقول ٢٢٧.

لرسول الله ﷺ فى سورة تحمل اسم الموقف (المجادلة) ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...**﴾ [المجادلة : ١][١].

وينطلق الإسلام من هذه الوقائع الخاصة إلى تقعيد قواعد، وإرساء دروس ومبادئ، وأحكام دينية وأخلاقية وتربوية للمسلمين جميعا « فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ».

* * *

وقياسا على المنطق العشماوى فى ضرورة تنزيه الإسلام بعزله عن السياسة لأنه قيم عليا، والسياسة فساد وشرور وانحطاط، من حقنا أن نقول : إن العلم شرف ونور، ورفعة ووقار، ومن ثم يجب ألا يهبط به « العالم » إلى مستوى « تعليم الجهلاء »، وتنوير السوقة والعامة من الناس!

ومسايرة لهذا القياس من حقنا أيضا أن نقول : إن الله قد كرم الإنسان، وجعله أشرف مخلوقاته، ومن ثم يجب ألا يفرط فى هذا التكريم بالهبوط إلى أعمال النظافة، وإزالة القمامة، وتنظيف دورات المياه وغيرها.

« وهبنا عزلنا الإسلام فى المساجد والزوايا فهل يضمن لنا ذلك ألا تصيبه شرور الدنيا وانحرافات البشر؟ ألا يمكن فى هذه الحالة أن تنشأ فيه أنواع الكهانات والدجل والشعوذة التى تصيب الأديان الكهنوتية الروحية؟

لقد جاء الدين للبشر فى هذه الحياة، وهو يدخل تجربة الدنيا الواسعة ليس كمسافر على الهامش، بل كعنصر جوهرى فاعل، وقائد وموجه، وإذا كانت ميادين العمل والسياسة والحرب والاقتصاد والمجتمع ومؤسسات الإدارة هى ميادين الوجود الإنسانى فى التاريخ، فإن الإسلام يكون فى هذه المجالات بمبادئه، وبالأفراد المؤمنين به قوة معبرة عن معنى وهدف وجود الإنسان فى الدنيا، ولا سبيل للقول بعزله حرصا عليه من هذه التجربة التى ما جاء إلا ليحققها على ما يرضى الله، ويحقق إرادته »[٢].

* * *

---

(١) انظر القصة كاملة فى كتاب الواحدى السابق ٣٠٤ وكتاب السيوطى السابق ٢٠٦ .

(٢) د. محمد يحيى : فى الرد على العلمانيين ٤٢ .

ومن زاوية أخرى تهتف الأصوات العلمانية النشاز (**الوطنية قبل الدين**) وكم رقصت هذه الأصوات على بيت أحمد شوقى:

الـديـن لـلـديـان جـل جـــــــلالـه

لـو شـــاء ربـك وحّـــد الأقـــوامـــا[1]

وتلح هذه الأصوات - فى مصر بصفة خاصة - على بقاء الدين معزولا عن الدولة تحت قباب المساجد ومآذنها حتى يتعايش عنصرا الأمة (المسلمون والأقباط) فى طمأنينة وسلام ووئام! ونسوا أن الإسلام يدعو إلى التجميع لا التفريق، ونسوا أن أقباط مصر بالذات عاشوا بجلود ممزقة، ونفوس مفزوعة تحت سياط الرومان «المسيحيين»، وأنهم لم يذوقوا طعم العدل والمساواة إلا فى ظل الحكم الإسلامى.

وفيم يضار الأقباط إذا حكمت الشريعة الإسلامية فى دولة تسعة أعشار سكانها من المسلمين؟ والجميع يعلمون أن المسيحية لم تأت بنظام سياسى حتى يقال: ولماذا لايكون للنظام السياسى المسيحى نصيب فى شئون السياسة ونظام الحكم؟ والجميع يعلمون أن من الأصول الأساسية فى المسيحية «دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر».

وليس فى تحكيم الشريعة الإسلامية حجر على الكنيسة المسيحية فى مجال العبادة والتربية والدعوة والأحوال الشخصية وقواعد المعاش.

أما ما يبقى من قواعد الإسلام فى مجال الحكم والسياسة والاقتصاد - وكلها قواعد تحكمها العدالة - فليأخذ المسلم نفسه بها دينا، وليتقبلها المواطن المسيحى قانونا، وليس فى ذلك ما يوقع فى حرج، أو يدعو إلى فتنة وانقسام؛ لأنها قواعد تطبق بعدالة مطلقة دون تفريق بين مسلم ومسيحى.

والذين يقولون (القومية لا الدين) عمدوا إلى تجريح الدين، والسخرية منه بصورة لا يقبلها من أوتى الحد الأدنى من العقل والخلق، فأحد هؤلاء، وهو الشاعر القروى اشتهر عنه قوله:

---

(١) أحمد شوقى: الموسوعة الشوقية ٥ / ١٦٥.

سـلام على كـفـر يوحـد بيننا

وأهلا وسـهـلا بعـده بجـهنم![1]

كما غفلوا أو تغافلوا عن حقيقة واضحة وهى أن الإسلام (دين عربى)، وأن كتابه نزل (بلسان عربى مبين)، على « نبى عربى »، من (جزيرة العرب)، وأن الإسلام اعتمد ابتداء على نصرة العرب.

فإذا كانت فلسفة القومية العربية ترتكز على الاعتزاز بكل ما هو عربى لغة وقيما وجنسا، فلماذا ينفر هؤلاء من الإسلام؟ مع أن كل ما يعتزون به - إذا ما ابتعدنا عن الشطط والتعصب - كان وما زال من أصوله وجواهره[2]؟!

* * *

والوطنية والقومية بمفهومهما الاعتزازى الذى يعنى حب الأرض والوطن، والحرص على صلات القربى والجوار بعيدا عن التعصب الأعمى والتشدد الضيق، هذا المفهوم - لا أقول يتفق مع الإسلام فحسب - بل أقول إن الإسلام يدعو إليه، ويلزم المسلمين به.

لقد هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة وفى قلبه حسرات لفراق مكة، وكان يناجى مكة - أحب بلاد الله إليه - على حد قوله، ويدعو الله أن يعينه على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالى والأيام، وأن يصحبه فى سفره ويخلفه فى أهله.

وكم عذب بلال فى مكة، ونال من الأذى فيها ما تقشعرمنه الأبدان، ومع ذلك ظل قلبه معلقا بمكة يذكر منابتها ومواضعها، وماء آبارها حينما كان مريضا تستبد به المحن فى المدينة، فيلهج لسانه بقوله:

ألا ليتَ شـعـرى هل أبيتنَّ ليلة

بفخٍّ وحـولى إذخـرٌ وجليل

(١) انظر ص ٦٤ وما بعدها من كتاب: عبد الرحمن الدوسرى: اليهودية والماسونية.

(٢) واضح من قولنا إن الإسلام دين عربى أننا لا نقصد أنه دين « محلى » أو دين « مرحلى » كالأديان السابقة، فالإسلام دين عالمى صالح لكل زمان ومكان. إنما نقصد « بعربية الإسلام » عربية القرآن، وعربية النبى وعربية الأرض التى ظهر فيها الدين، وعربية القوم الذين بُعث فيهم النبى ﷺ.. وهذه الحقائق لا تتعارض مع « عالمية الإسلام » التى هى حقيقة أوضح من أن تحتاج إلى دليل.

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجَنّة

وهل يبدُوَنْ لى شامةٌ وطفيل؟[1]

فبالهجرة لم يسقط حب مكة من قلب النبى ﷺ، وقلوب المسلمين المهاجرين، وكان من دعائه بعد أن استقر فى مهجره الجديد «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد»[2].

* * *

ومن الحقائق التى يمكن أن نجابه بها علمانيى الشرق الداعين إلى الدولة اللاإسلامية أو القومية أنه على الرغم من **أن العالم الإسلامى - بصفة عامة - لا صلة له بالنموذج القومى العلمانى الأوروبى لا من حيث الإطار التاريخى، ولا من حيث الطبيعة والخصائص الحضارية، فإنه يخضع - أو يجبر على الخضوع - لتلك الأيديولوجيات والنظريات الغربية المرتبطة بالدولة القومية كنظام اجتماعى، وبالمنطق العلمانى كأساس للعلاقة السياسية.**

كما أنه على الرغم من أن منطق ظاهرة الدولة القومية - العلمانية لم يعد له صدى يذكر فى الواقع الغربى الذى أفرزه، فلا يزال البعض - من هنا ومن هناك - يربط عملية تطور أو نهضة العالم الإسلامى باتباع النموذج الغربى، ويطالب بضرورة إقصاء الدين من عملية التجانس الاجتماعى، ومن الحياة السياسية؛ انطلاقا من هذا المنطق الذى ثبت تجريبيا أن الواقع الغربى ذاته قد تجاوزه لاصطدامه مع إدراكه السياسى ووعيه الجماعى، **ولزوال الظروف التاريخية الاستثنائية أو العارضة التى أفرزته فى لحظة معينة**[3].

* * *

---

(١) أخرجه البخارى. كتاب فضائل أهل المدينة (٢٩) حديث ١٨٨٨ - ٤ / ١١٩، **فخ**: واد فى مكة [معجم البلدان ٤ / ٢٣٧]. **مجنة**: بلد أو جبل على بعد أميال من مكة [السابق ٥ / ٥٨]. **شامة وطفيل**: جبلان على نحو من عشرة فراسخ من مكة [السابق ٤ / ٣٧]. **الإذخر**: الحشيش الأخضر، وحشيش طيب الرائحة [القاموس المحيط ٥٠٦ - مادة ذخر]. **الجليل**: الثمام، وهو نبت ضعيف يحشى به خصاص البيوت. [لسان العرب ١ / ٦٦٥].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى: السابق - الصفحة نفسها. ومسلم: كتاب الحج باب فضل المدينة ج ٤٤٩ - ٣ / ٥٢٥.

(٣) د. عبد العزيز صقر: القومية والعلمانية والدين : قراءة فى الخبرة الغربية ٤١.

فلماذا إذن الحرص على العلمانية فى حياتنا الفكرية والعلمية؟

إن هذا الحرص – كما يقول الدكتور محمد البهى – إذا جاء من حاكم، فهو لعدم أهليته للحكم، وللهرب من المسئولية التى يلقيها الإسلام على الحاكم كحاكم فى طلب الاستقامة فى السلوك، وأداء أمانة الحكم، والعدل، والشورى المتبادلة، والرعاية وليس التسلط.

وإن كان من مفكر، فهو قصور فى معرفة الإسلام، وخداع نفسه وغيره بعرض قضايا يدرك أطرافها فقط دون جوهرها وغايتها.

وإن كان من سياسى، فهو للتلاعب بالفكر غير الناضج، والتمويه فى حلبة المنافسة السياسية.

وإن كان من فتى وفتاة، فهو التحلل من التزام الإيمان فى التوجيه والسلوك، والانطلاق فى شهوة البطن والفرج والملبس(١).

فالدعوة إلى العلمانية والحرص عليها فكرا أو تطبيقا لم تصدر من أصحابها عن اقتناع – بتحكيم العقل والبصيرة النافذة – بقدر ما هى نتيجة لمجموعة من «النقائص الذاتية» من أبرزها العجز والهروب والأنانية والأحقاد الدفينة.

وفى المقابل تبقى الدعوة إلى **إسلامية الأمة** فى السياسة، والخلق، والاقتصاد، والتعليم – لادعوة إصلاحية فحسب – ولكن دعوة بنائية بكل ما فى كلمة البناء من معنى: هناك أنقاض لابد أن ترفع، وهناك أسس وجذور لابد أن ترسخ، وتضرب فى الأعماق، وهناك صروح لابد أن ترتفع، وتشمخ بالعقيدة وعزة الإيمان.

نعم لا يكفى الإصلاح بالترميم والطلاء لأن ذلك لون من خداع النفس، والكذب على الواقع، فالترميم ترقيع موقوت، والطلاء بهرج خداع، وكلاهما قد يخفى ما فى البناء من وهن وعيوب، ولكن تبقى الحقيقة هى هى.. وهن ضليع يهدد الأمة بالانهيار الذى لا يبقى ولا يذر(٢).

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

---

(١) د. محمد البهى: العلمانية والإسلامية ٥٤.

(٢) انظر قميحة: مرجع سبق ١٤٣– ١٤٤.

٣ - الوجـوديـة

بدأت الفلسفة الوجودية Existentialism فى القرن التاسع عشر، واستفاضت فى القرن العشرين، ولا تزال من أشهر المدارس فى الفلسفة، لأنها تشتمل على مذهب من مذاهب السلوك، ويغلب على مذهبها الشائع فى السلوك أنه يدعو إلى الإباحية واطراح العرف والخلق وعقائد الأديان(١).

والوجودية بمعناها العام فى الفلسفة تعنى النزعة التى تعلق أكبر قسط من الأهمية على (وجود الفرد) فى الكون، وعلى صفاته الجوهرية.

وفى سنة ١٩٤٣ صدر لجون بول سارتر كتاب (الوجود والعدم)، واشتهر الكتاب بأنه هو الذى بلور النظرية الوجودية. وأساسها فى هذا الكتاب أن الوجود المطلق، أو حالة الفراغ – كما يسميها سارتر – يسبق الجوهر أو الماهية أو الوجود الفعلى. والوجود الفعلى – فى نظره – عبارة عن خروج الفرد من حالة الخمول البدائى بوساطة الثورة النفسية الناتجة عن القلق واليأس إلى جو من الحرية المطلقة يستطيع فيه أن يشكل حياته بمحض إرادته متحملا المسئولية الكاملة عن جميع تصرفاته وأن يضفى على العالم الذى يعيش فيه معنى ومنطقا(٢).

فالفرد فى نظر الوجوديين هو الموجود الحقيقى، ويرتبون على ذلك أنه لا معنى إذن للقول بالطبيعة البشرية، والقول بالأخلاق التى تفرضها هذه الطبيعة، أو بالأقدار التى رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود، **فكل فرد عالم قائم بذاته يضع لنفسه أخلاقه، وآدابه، وعقائده، وآراءه... وإذا كان التقدير السابق عندهم غير موجود، ولا معقول، فالغاية المرسومة كذلك غير موجودة، ولا معقولة، وإنما الحياة فلتة من فلتات الطبيعة جاءت بها عبثا، وتذهب بها عبثا**(٣).

---

(١) عباس العقاد: عقائد المفكرين فى القرن العشرين ١٤١.

(٢) د. مجدى وهبة: معجم مصطلحات الأدب ١٥٤.

(٣) عباس العقاد: بين الكتب والناس ٢٥. وانظر كذلك كتاب: يوميات ٤ / ١٣.

والفرد وحده هو الحكم فيما يأتى: فليس لأحد من المجتمع أن يحدد له مفاهيمه، أو أخلاقه أو تقاليده، أو عقائده، أو تصرفاته، أو سلوكه[1].

والإله عندهم - وخصوصا سارتر - ليس خرافة فحسب، ولكنه خرافة ضارة![2].

وإيجاد الذات، وتأكيد الإنسان الفرد لوجوده الذاتى - فى نظر سارتر - لا يتحقق إلا بإطلاق العنان للرغبات والشهوات بحيث يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء. وتعترف «سيمون دى بوفوار» - صديقة سارتر - بأن من طبيعتها أن تجنح دائمًا إلى لذائذ الجسد[3].

والوجوديون فى هذا المسلك - غير الأخلاقى - ينطلقون من إيمانهم بما ذهب إليه نيتشة من أن الأخلاق ليست إلا خرافات اخترعها الضعفاء، ليتقوا بها سطوة الأقوياء فى معركة الحياة[4].

وتحمل الوجودية فى تضاعيفها كثيرا جدا من التناقض والاضطراب، بل إن الاضطراب فى قواعدها - كما يقول العقاد - أشد من الاضطراب فى قواعد الفوضوية، لأنها وجوديات كثيرة، وربما تناقض الفيلسوفان الوجوديان فى العصر الواحد والبلد الواحد[5].

ومن عبثيات الوجودية وعدميتها التشجيع على الانسحاب من الحياة بالانتحار، فليس هناك سبب عميق للحياة، ولا معنى للسعى اليومى، ولا جدوى من الألم والعذاب، وبالاختصار «فإن الانتحار يعنى بكل بساطة الاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش»[6].

وما دامت الحياة قد فقدت معناها وهدفها لفقدان العنصر الذى يوجد الترابط بين

---

(١) محمد قطب: جاهلية القرن العشرين ١٩٢. وانظر كذلك لعبد الرحمن رأفت الباشا: نحو مذهب إسلامى فى الأدب والنقد ٧٥ - ٧٨.

(٢) عبد الرحمن الباشا: السابق ٧٥.

(٣) صالح أحمد الشامى: الظاهرة الجمالية فى الإسلام: ٥٢.

(٤) عبد الرحمن الباشا: مرجع سبق ٧٦.

(٥) العقاد، يوميات ١ / ٩٣.

(٦) الشامى: مرجع سبق ٥٧.

أجزائها، ويعطى أحداثها تفسيرها ومعناها وهو الدين، فإن سارتر يرى الحل فى أن يعيش كل إنسان وحده، وأن يحقق وجوده بأن يفعل ما يرى هو أنه حق، وأنه واجب وأنه حسن. ففى مسرحيته «**الجحيم هو الآخرون**» يرسم الجحيم فى نفس إنسان يتعذب من أول المسرحية إلى آخرها، من وجود آخرين لا يكفون عن الوجود من حوله، ويفرضون عليه أن يكونوا موجودين معه، وبذلك يمنعونه أن يكون نفسه... أن يحس بذاته، أن يفعل ما يمليه عليه هواه الشخصى، فيظل ساكنا ساكتا يتعذب، يتطلع إلى اللحظة التى يذهب فيها عنه الآخرون لينطلق بوجوده الذاتى، ولكنهم لا ينصرفون، فيظل هو فى الجحيم[١]!!

وكان لبعض كبار الوجوديين منازع صهيونية، ومن هؤلاء «جان بول سارتر» الذى كان شديد العناية بالدفاع عن السامية، والحملة على الحركة المقاومة لها Antisemitism كما وصفها فى محاضرة مطبوعة ترجمت إلى الإنجليزية، ونشرت فى إبان معارك فلسطين بعنوان: عدو اليهود Portrait of the Anti Semite[2]

واستكمالا لملامح الوجودية - وقد رأينا أنه يغلب على مذهبها الشائع فى السلوك، الدعوة إلى الإباحة واطراح العرف والخلق وعقائد الأديان - يقرر واقعها العملى تعدد المسالك إلى درجة التناقض حتى فى الشخصية الواحدة.. فهى مدرسة واسعة النطاق، ينتمى إليها المؤمنون والملحدون... ولكن الوجودى المتدين قد يؤمن بالله أشد الإيمان، ولكنه لا يؤمن بالمراسم والشعائر، ولا يذعن لسلطان الكنيسة ورجال الدين!

والوجودى الإباحى قد يكون من أقوم الناس خلقا.. ولا تتراءى منه الإباحة إلا حين يتمرد على المحظورات التى لا حجة لها غير مجاراة العادة، والاستسلام للتقاليد والموروثات!

والوجودى الذى يتهالك على الشهوات، ويختار لنفسه ما يهواه يتعلل بحق الفرد أو بحق الشخصية الإنسانية فى حياتها الخاصة، ولكنه لا يستطيع أن يجعل ذلك الحق قانونا ملزما لجميع الشخصيات، وإنما يدين به فى سلوكه، ولا يجهل المصير الذى قد يعرضه له ذلك السلوك، حيث يصطدم بالجماعة، أو يصطدم بغيره من آحاد الناس[٣].

---

(١) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ٢٩٢.

(٢) عباس العقاد: بين الكتب والناس ٢٥.

(٣) العقاد: عقائد المفكرين في القرن العشرين ١٤٢.

هذا وقد ووجهت الوجودية، وخصوصا وجودية سارتر باتهامات متعددة خلاصتها:

١ - دعوة الوجودية إلى الكسل، ودفعها إلى اليأس.

٢ - تنمية الروح الفردية الخيالية التى تبتعد عن المجتمع وما فيه من مشاكل.

٣ - استحالة تحقيق أى إنتاج يحمل طابعا اجتماعيا عاما.

٤ - اكتفاء الوجودية السارترية بتصوير مظاهر الحياة الحقيرة من جبن وفسق وضعف وميوعة، ونسيانها مظاهر الحياة الآملة القوية التى تؤمن بالمستقبل.

٥ - عدم إيمان الوجودية بالتضامن الاجتماعى.

٦ - تنكر الوجودية لفكرة (الله)، وتنكرها للقيم الإلهية وخلوها من مواقف جدية إنسانية.

٧ - اعتبار الوجودية أداة للانحلال الاجتماعى، لأنها تحول دون أن يصدر أى من الناس حكما على تصرفات الآخرين، بحيث يكون كل فرد قائمًا بذاته فى مجتمع يحتاج إلى التعاون والانضواء الجماعى، والمسئولية المشتركة المتبادلة(١).

وفى كتاب (**الوجودية مذهب إنسانى**) حاول سارتر أن يرد على هذه الاتهامات واحدا واحدا، ولكن ردوده فى الواقع جاءت فى أغلبها متهافتة، فيها من المغالطات الشيء الكثير، ونكتفى برده على الاتهام، السادس وهو **إنكار الألوهية، والتنكر للقيم الإلهية**... ينطلق سارتر من مقدمة غالطة محاولا إيهام القارئ بأنها مُسَلَّمة لا تحتمل الجدل، فيقول: **إذا كان الله غير موجود، ولا شيء يثبت وجوده، فليس هناك قيم تيسر تصرفاتنا، وتجعلها شرعية.. نحن وحدنا دون عقد أو تبرير أو مقياس نستند إليه**، بل نحن مرغمون على أن نكون أحرارا! قضت بذلك علينا طبيعة وجودنا، وهو ما أسميه بالجبرية فى الحرية.

الإنسان مخلوق محكوم، لأنه ولد دون أن يختار، وهو حر أيضًا لأنه لم يكد يخرج إلى العالم حتى وجد نفسه مسئولا مرغما على الاختيار، وعلى تكوين نفسه، وهكذا يجد الإنسان نفسه وحيدا لا معين له، ولا حكم يفصل فى معضلاته التى تعترضه.

---

(١) د. مصطفى غالب: سارتر والوجودية ٧٨ - ٧٩.

ويسوق سارتر مثلا يؤيد به مذهبه، وهو حالة شاب قُتل أخوه فى الحرب، وأمه فى نزاع دائم مع أبيه، وفى حزن دائم على أخيه المقتول، دعاه الواجب الوطنى للانضمام إلى القوات المحاربة فى بريطانيا. فماذا يفعل؟ هل يترك أمه فريسة لمضايقات أبيه وحزنها على أخيه ويزيد فى ألمها، وهو عزاؤها الوحيد، فينضم إلى القوات المحاربة؟ أم أنه يبقى إلى جانبها فيساعدها على تحمل شدة الحياة الزوجية، ويحمل إليها السلوان والعزاء عن أخيه؟ من هو الذى يحل له هذه المشكلة؟ هل هى المسيحية التى تدفعه إلى المعركة باسم حب الآخرين، والعمل من أجل الجماعة البشرية؟ أم هو «كانت» الذى يقول بضرورة معاملة الناس، لا على أنهم وسائل بل غايات؟ أو ليست أمه واحدة من الناس؟ هل يقضى عليها فينضم إلى المحاربين؟ أم يبقى إلى جانبها؟ لا حل لمعضلته فى فلسفة كانت! أم هى القيم؟ والقيم غير واضحة. إنها متسعة اتساعا لا يتفق مع محدودية الحالة التى ندرسها(١)!

ويخلص سارتر إلى الإجابة على تساؤلاته بقوله: **وإذن لم يبق له غير غريزته وميوله الخاصة، ومعنى ذلك أن يسير وراء عاطفته فإذا كان حبه لأمه أقوى من حبه للانضمام إلى القوات المحاربة بقى إلى جانبها والعكس بالعكس**(٢).

ثم يخلص إلى أنه ليس هناك قواعد أخلاقية شاملة(٣).

والمثل الذى ساقه سارتر يمثل من وجهة نظره مشكلة لا تجد لها حلا فى القيم والأخلاق العامة التى ينكرها، وإذا لم يجد حلها فى المعروض الكنسى، أو القيم السائدة فى الغرب، فإن الإسلام فيه من المعايير والقواعد ما يحسم هذه المشكلة؛ فمن أصول الإسلام «لا ضرر ولا ضرار»، فإذا كان هناك ضرران فالمختار هو الضرر الأصغر، والضرورات تبيح المحظورات، والضرورة تقدر بقدرها، فإذا كان الجهاد فرض عين وتهديد الأمة حالا وواقعا، كان ترك الأم والهروع إلى الجهاد هو الواجب الوحيد.

وإذا كان الجهاد فرض كفاية، فالبقاء مع الأم يكون هو الواجب الوحيد، وقد قال

---

(١) سارتر: الوجودية مذهب إنسانى: ٥٦. عن كتاب غالب السابق ٨٦.

(٢) غالب، السابق ٨٧.

(٣) غالب، السابق، نفسها.

رسول الله ﷺ للمسلم الذى أراد الخروج معه للجهاد، وله أبوان شيخان ينفق عليهما: «فيهما فجاهد»[1].

وقدر الحالة وتقدير درجة خطورتها لا يترك «للغريزة والميول الخاصة والعاطفة..» إنما مرجعها إلى الضمير الذى هو مرجع المسلم فى المجتمع الإسلامى النظيف، والذى نجده فى توجيه رسول الله ﷺ «**استفت نفسك وإن أفتوك**»[2].

* * *

وللأسف تسربت الوجودية من الفكر الغربى إلى الفكر العربى المعاصر بقوة، وكان من أظهر مروجيها والداعين إليها الدكتور عبد الرحمن بدوى، فيما ترجمه من أصولها، وما كتبه عنها. بل لقد حاول أن يوجد لها أصولا فى الفكر العربى القديم من خلال كتابات الصوفيين الغالين، والفلاسفة الذين تجاوزوا أصول الشريعة والاعتقاد الإسلامى الصحيح.

ويرى عبد الرحمن بدوى أن **الشعر الوجودى** يضيف للإنسان الصفة الأولى للربوبية، وأشاد بالنموذج الذى أبدعه بودلير فى ديوان (**أزهار الشر**)، وأغرى الشعراء العرب الوجوديين بالابتعاد - قدر الإمكان - «عن اللغة الجارية، كيما تستعيد البكارة الأولى التى يمتاز بها عالم الإمكان(!!)، أما عمود الشعر «فلنهدمه على رءوس المصفدين إليه».

ولا شأن للوجودى بأية أحكام تقويمية خارجة عن نطاقه الفنى الخالص، سواء أصدرت هذه الأحكام عن الدين، أم عن الأخلاق. ومعنى هذا بكل وضوح أنه إذا وجد الرذيلة أو القبح أو الشر، أو حظا فى التمكين من الإبداع، فلا جناح عليه مطلقا فى أن

(١) الحديث أخرجه الشيخان: البخارى فى كتاب الجهاد والسير (٥٦). باب الجهاد بأذن الأبوين (١٣٨) من حديث عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما. ولفظه: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فاستأذنه فى الجهاد، فقال: أحى والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد. [حديث ٣٠٠٤ -٦/ ١٦٢]. ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب (٤٥). باب بر الوالدين وأنهما أحق به. حديث (٣) - ٥/ ٤١١.

(٢) الحديث أخرجه الدارمى فى السنن. كتاب البيوع (١٨). باب: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك (٢) ح ٢٤٣٨ - ٢/ ٦٩٥. وأحمد فى مسنده: ح ١٧٩٢٢، ح ١٧٩٢٩ - ١٤/ ٣٢، ١٤/ ٣٣. وأبو يعلى فى مسنده. والبزار عن وابصة بن معبد صاحب رسول الله ﷺ ولفظه: جئت تسألنى عن البر والإثم؟ فقلت: نعم، فجعل أنامله الثلاث ينكت بهن فى صدرى، ويقول: يا وابصة، استفت نفسك، واستفت نفسك، ثلاث مرات. البر ما أطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك فى نفسك، وتردد فى صدرك، وإن أفتاك الناس وأفتوك. [الهيثمى: مجمع الزوائد ١/ ١٧٥]. قال الهيثمى: فيه أيوب بن عبد الله بن مكرز، قال ابن عدى: لا يتابع على حديثه، ووثقه ابن حبان.

يتخذها . . لأن الخطايا والشرور والرذائل وما إليها أدل على حقيقة الوجود، وأقدر على الكشف عن نسيجه.

ويمضى الدكتور محمد مصطفى هدارة - رحمه الله - فى تعقب بصمات الوجودية فى الشعر العربى المعاصر، ومنها توظيف الأساطير فى الشعر، والشعور الحاد بالقلق والاغتراب واليأس، وكذلك النزوع إلى الإلحاد، والتنكر للموروثات الدينية. ومن الذين تأثروا - إلى حد كبير - بمعطيات الوجودية الشاعر عبد الوهاب البياتى فى قصيدته «**مسافر بلا حقائب**» فى ديوانه «**أباريق مهشمة**».

كما ظهر الأثر الوجودى فى شعر بدر شاكر السياب، وكأنه كان يستلهم «**بودلير**» فى موقفه الوجودى الذى يعبر عنه بالتمرد، ورؤية الجمال فى القبح والشر والرذيلة، ويرى أحد الباحثين أن صرخة «سارتر»: «**الجحيم هو الآخرون**» تتردد عند السياب فى قوله:

وعْـــــــــــــرٌ هـو المرْقَـى إلـى الجُـلْـجُـلَـهْ
والصـــــخــــر يا ســـيـــــزيف مـــا أثقـلَهْ
ســـيـــــزيف إن الصـــــخــــرةَ الآخـــرون[1]

ومن أبرز نماذج الأدب الوجودى شعر أدونيس، فديوانه «**التحولات والهجرة فى أقانيم الليل والنهار**» تصوير ناطق بالفكر الوجودى فى تمرده ورفضه وقلقه، وفى الإحساس الحاد بالغربة.

كما تأثرت القصة القصيرة بالتيار الوجودى، كما نجد فى إبداع إدوار الخراط، وعلاء الديب، ومحمد حافظ رجب، وإبراهيم أصلان وغيرهم. وكذلك تأثرت الرواية بهذا الفكر الوجودى، كما نرى فى أعمال سهيل إدريس، وجبرا إبراهيم جبرا، وإسماعيل فهد إسماعيل، ونجيب محفوظ، وليلى بعلبكى، والطيب الصالح، وغيرهم. والمعانى العامة التى تدور حولها الرواية العربية الوجودية إثبات الإرادة الإنسانية المتحررة من كل قيد، والمسئولية الملقاة عليها، والقلق واليأس والسقوط والاغتراب والانفصام عن الماضى وعن المجتمع[2].

---

(١) ديوان بدر شاكر السياب (الأعمال الكاملة) ١ / ٣٩١.

(٢) ارجع إلى «موقف الأدب الإسلامى من المذاهب الأدبية المعاصرة» بحث مخطوط للدكتور محمد مصطفى هدارة وخصوصا الصفحات ١١ - ١٣.

٤ - الشيوعية

الشيوعية Communism مجموعة أفكار وعقائد ورؤى اشتراكية ثورية ماركسية، تنادى بضرورة وحتمية إطاحة النظام الرأسمالى، وإقامة مجتمع المساواة والعدل فى إطار أممى مرتكز على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وخال من التمييز الطبقى والاجتماعى، وبحيث تختفى الفروق والتفاوتات بين المدينة والريف، وبين العمل الذهنى والعمل اليدوى، وبين المرأة والرجل، ويتم إلغاء الدولة نظراً لانتفاء حاجة المجتمع إليها، بعد أن تكون قوى الإنتاج، وعوامل التوزيع قد تطورت، وانتقلت من الشعار الاشتراكى **«من كل حسب طاقته، ولكل حسب إنتاجه»** إلى المرحلة الشيوعية **«من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته»**.

ويرافق ذلك، ويشكل شرطا من شروط تحقيقه، زوال الفروق بين الأمم (ذوبان القومية)، بحيث يتكون مجتمع كونى، لا طبقى واحد. وبالتالى فإن المجتمع الشيوعى يشكل المرحلة العليا فى التشكيل الاجتماعى الاقتصادى للاشتراكية الأممية.. وتذكر الشيوعية مرتبطة باثنين: كارل ماركس وفريدريك إنجلز(١).

ويرجع الباحثون الشيوعية فى خطوطها العريضة إلى ما قبل كارل ماركس بقرون، ويخرج الباحث إلى أن الشيوعية شيوعيات، لا شيوعية واحدة، إلى أن أدت الأطوار السابقة إلى **الشيوعية الماركسية**، والتى تتميز عن كل ما سبقها من الشيوعيات بأنها تنادى بحتمية الشيوعية وضرورتها لا بالاستناد إلى مثال أخلاقى، أو إلى حاجة دينية، أو إلى ضرورة فكرية عقلانية، بل بالاستناد إلى أساس التحليل العلمى للحركة الحقيقية للمجتمع الرأسمالى، ولتناقضاته الداخلية التى تقوده نحو حتفه، ولنضال الطبقة العاملة

---

(١) الكيالى وآخرون: موسوعة السياسة ٣/ ٥٣٤.

وكارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) ألمانى من أصل يهودى درس القانون وهو أبو الشيوعية، ومن أشهر كتبه - وقد ترجمت إلى معظم لغات العالم -: رأس المال، الصراع الطبقى فى فرنسا، المسألة اليهودية [انظر: موسوعة السياسة ٥/ ٦٣٥ - ٦٣٩].

وفريدريك إنجلز (١٨٢٠ - ١٨٩٥) هو زميله وشريكه فى تأليف كتاب رأس المال، وصياغة « البيان الشيوعى » الذى يعتبر نقطة انطلاق الحركة الشيوعية فى العالم.

[انظر السابق: ١/ ٣٦٥ - ٣٦٦]، وانظر كذلك: الشيوعية نظريا وعمليا لكاريوهنت ١٧ - ٢٣.

التى هى وحدها القادرة على تجاوز هذه التناقضات، وبناء نظام آخر من العلاقات الاجتماعية هو النظام الشيوعى.

ويرى ماركس أن الغاية النهائية للشيوعية هى تحرر الإنسان تحررا كاملا، وقد عبر عن ذلك بوضوح فى مخطوطات ١٨٤٤ والتى عرف فيها الشيوعية بأنها الإلغاء الإيجابى للملكية الخاصة، وبالتالى التملك الحقيقى للذات الإنسانية من قبل الإنسان، ومن أجل الإنسان، فالشيوعية بصفتها نزوعا نحو الإنسانية الكاملة والمكتملة هى للتناقض والصراع بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، بين الإنسان والوجود..

وفى التعريف المثالى السابق نرى أن ماركس كان واقعا تحت تأثير الفلسفة الألمانية المثالية الممثلة أساسا بكانت وهيجل. ولكنه فى كتابه (رأس المال عام ١٨٦٧) نراه يضع تعريفا أقل طموحا ومثالية وأقرب إلى الواقعية.. فالشيوعية فى نظره لن تتحقق مباشرة بعد إلغاء الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الإنتاج، بل لابد من مرحلة انتقالية يطلق عليها اسم المرحلة الاشتراكية، تكون بمثابة الخطوة الأولى نحو الشيوعية، وتتضمن هذه المرحلة كل رواسب المرحلة السابقة التى انبثقت عنها، وتركت عليها تأثيراتها الاقتصادية والفكرية.

وفى الواقع المعيش تبرز الحقائق الآتية:

١ - أن كل الدول التى تتبنى العقيدة الشيوعية مازالت حتى اليوم فى هذه المرحلة (الاشتراكية).

٢ - أن هذه المرحلة الاشتراكية مازالت غير مكتملة، وأن ترسبات الماضى مازالت تلعب دورا حاسما فى تكوين المجتمعات الاشتراكية الجديدة، مما يفسر تعددية هذه التجارب واختلافها بل وتصادمها.

٣ - أن الاتحاد السوفيتى كدولة كبرى على الساحة الدولية قد جعله فى كثير من الأحيان يغلب مصالحه السياسية والاقتصادية على مبادئه الأممية، مما قوى موقف الذين يقولون بأن الاتحاد السوفيتى قد استعمل العقيدة الشيوعية لخدمة مصالحه القومية. وجاء الصراع الصينى السوفيتى تعبيرا صارخا عن هذا الواقع.

٤ - أن « شيوعيات » متعددة بعد انكشاف سياسة الاتحاد السوفيتى النفعية، منها ما

يسمى (**الشيوعية الأوروبية**)، أو (**الأورو شيوعية**) Eurocommunism قد نشأت فى البلاد الأوربية مثل أسبانيا وإيطاليا وفرنسا، تباين الماركسية اللينينية فى كثير من السمات.

لذلك نشأ طراز جديد من الشيوعية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، هو (**الشيوعية الوطنية**)، وكان أول من انتهج هذا النهج الرئيس اليوغوسلافى تيتو، ويعتمد على مقولة أساسية هى أن **الشيوعية كما هى مطبقة فى الاتحاد السوفيتى لا تصلح بالضرورة لكل مكان وزمان**. وبالتالى فإن على الأحزاب الشيوعية الأخرى أن تبنى نظامها الاشتراكى، آخذة بعين الاعتبار الخصائص القومية للبلدان التى تعمل فيها.

وقد اعتبر الاتحاد السوفيتى فى عهد ستالين هذا النوع من الشيوعية خروجا على الشيوعية الصحيحة، وانحرافا عنها، بل تحريفا لمحتواها[١].

٥ - من المبادئ الأساسية فى الشيوعية ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ، وهى فكرة تبدأ من أن الإنتاج المادى هو أساس الحياة البشرية كلها، وأساس التاريخ البشرى[٢].

وينعكس هذا التفسير على النظرة للدين والأخلاق والأسرة، فكلها لا تعد قيما قائمة بذاتها، ولا يمكن النظر إليها على هذا النحو، ومن ثم فليس لها ثبات ولا قدسية، كما أنها فى ذات الوقت انعكاس للأحوال المادية والاقتصادية القائمة فى أى وقت من الأوقات، وكل وضع مادى أو اقتصادى قائم هو الذى ينشئ الأفكار المتعلقة بالدين والأخلاق والأسرة، وتتغير هذه الأفكار تغيرا حتميا كلما تغير الوضع المادى أو الاقتصادى[٣]. يقول إنجلز: «**ومهما يكن من شىء، فليس الدين إلا الانعكاس الوهمى فى أذهان البشر لتلك القوى الخارجية التى تسيطر على حياتهم اليومية، وهو انعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق الطبيعة**[٤].

(١) انظر موسوعة السياسة السابق ٣/ ٥٣٢ - ٥٣٤. ولعلى ادهم: الاشتراكية والشيوعية ٦٩ - ٩٠.

(٢) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ٢٨٣.

(٣) محمد قطب، السابق ٢٩٣. وانظر كاريوهنت: مرجع سبق ٤٨ - ٥٢.

(٤) انظر محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ٢٩٣.

ويقول لينين:

يجب على المناضل الشيوعى الحق أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية[١]!

وقبل ذلك قال إنجلز:

إن الأخلاق التى نؤمن بها هى كل عمل يؤدى إلى انتصار مبادئنا، مهما كان هذا العمل منافيا للأخلاق المعمول بها[٢]!

ومن أقوال إنجلز:

إن العلاقات بين الجنسين ستصبح مسألة خاصة لا تعنى إلا الأشخاص المعنيين، والمجتمع لن يتدخل فيها، وهذا سيكون ممكنا بفضل إلغاء الملكية الخاصة[٣].

أما المادة: فأزلية أبدية: لم يكن هناك وقت لم تكن المادة فيه موجودة، ولا يجيء وقت لا تكون فيه موجودة.

والمادة هى الخالق،.. هى التى خلقت الحياة والإنسان، «الإنسان نتاج المادة»[٤]!

وتبعية العقل للمادة فى الوجود يصورها ماركس فى صورة أن العقل انعكاس للمادة، وليس كما يصرح هيجل بأن المادة انعكاس للعقل، وهذا يعنى أن العقل نوع من المرآة العاكسة للعالم المادى. وهذا التصور الماركسى للحقيقة المادية على أنها الأصل شمل – فى عموم منطق الماركسية – كل الأحداث الطبيعية، وما يحيط بها[٥].

هذا مع أن المادة نفسها – كما يقول العقاد – غير مفسرة وغير مفهومة، فهى – من باب أولى – لا تفسر ما عداها، ولا تزال سرا من الأسرار يتطلب منا الفهم، ولا يدنينا من فهم غيره.

---

(١) محمد قطب: السابق ٣٠١.

(٢) محمد قطب: السابق: الصفحة نفسها.

(٣) محمد قطب: السابق ٣٠٤.

(٤) محمد قطب: السابق ٣٠٥.

(٥) محمد البهى: الفكر الإسلامى الحديث: مرجع سبق ٣٦٠.

كان المادى – قبل مائة سنة – يخبط الأرض بقدمه ويقول: «هذه هى الحقيقة التى نستند إليها، وأما ما عداها من الآراء المثالية والعقائد الروحية، فهى خبال أو ضلال».

فاليوم يعلم أن مادة الأرض التى يخبطها بقدمه أبعد حقيقة، وأعسر فهما من كل ما يقال عن الروحانيات والمثاليات(١).

* * *

٦ – من البديهى إذن أن المذهب ينكر الأديان، ويكفر بجميع الأنبياء والرسل، ولا يدع أصحابه هذه الحقيقة للفرض والاستنتاج، بل يصرخون بعقيدتهم، ويقولون عن الدين إنه (**أفيون الشعوب**)، لأنه يخدر أتباعه بالأمل فى الآخرة، فلا يطلبون الإنصاف ولا النعيم فى هذه الدنيا(٢)!

وهم يسوون بين الأديان جميعا فى هذه الصفة،.. إلا أن الشيوعية قد تصبر على المسيحية، ولا تطيق الصبر على الإسلام إلا ريثما تتحفز له، وتغل أيدى أتباعه عن المقاومة(٣).

وعداوة الشيوعية للإسلام عداءات متكررة وليست بعداوة واحدة:

– فإنها تعاديه معاداة الخوف من منافسته فى تنظيم المجتمع على قواعده وأحكامه.

– وتعاديه معاداة الحاكم الروسى للمحكوم المطموع فى ماله واستقلاله.

– وتعاديه أخيراً معاداة الشعور بالخطر والإفلاس على أثر إخفاق التجارب الماركسية واحدة بعد الأخرى خلال السنوات الأخيرة،.. فقد اعترفت الدولة على كره بحق المِلك والتوريث، واعترفت بالفوارق بين الأجور وأحوال المعيشة(٤).

* * *

---

(١) العقاد: لا شيوعية ولا استعمار ١٥ – ١٦.

(٢) العقاد: أفيون الشعوب: المذاهب الهدامة ٧٣.

ومحمد البهى: الفكر الإسلامى الحديث ٣٦٠.

(٣) العقاد: أفيون الشعوب ٧٤.

(٤) العقاد: السابق ٧٧ (وهو كلام كتبه العقاد من نصف قرن).

٧ – وحرية القول والرأى – كما يقول هارولد لاسكى – شرط أساسى من شروط قيام الدولة الحرة؛ لأن قدرة المواطن على الإعراب عن رأيه فى حرية هى التى تشكل الرأى العام الذى يتعين على حكومة الدولة الحرة أن تسلك وتتصرف داخل نطاقه، وحيث لا توجد حرية القول والرأى لا يوجد رأى عام حر، وبالتالى لا توجد حكومة حرة عادلة تستمد سلطتها من الرأى العام الحر، أى غالبية المحكومين الأحرار(١).

وهذه الحرية ظلت مفقودة تمامًا بقيام الثورة الروسية، فالحكام هم الذين يفكرون للشعب، وعلى الأدباء أن يكونوا صوت أسيادهم المتمثلين فى البلاشفة، .. وفى الدين الجديد الذى اسمه الشيوعية. وقد أبان عن هذا (الالتزام الحتمى) لينين سنة ١٩٠٥ فى مقال له بعنوان (تنظيم الحزب وأدبه)، وفيه يرفض أى نشاط أدبى أو فنى لا يكون فى خدمة الحزب. وفى هذا المقال الغريب يقول: «**لنتخلص من رجالات الأدب غير الحزبيين، لنتخلص من هواة الأدب المثاليين. على قضية الأدب أن تصبح جزءاً من القضية العامة للبروليتاريا، وجهازًا صغيراً من الآلة الاشتراكية الديمقراطية الموحدة والكبيرة التى تحركها الطليعة الواعية للطبقة العاملة كلها. على النشاط الأدبى أن يصبح عنصراً مؤلفًا لعمل حزبى اشتراكى ديمقراطى منظم**»(٢).

والمعروف أن الفلسفة الماركسية تعتمد اعتماداً أساسيًا على فكرة (**الصراع الطبقى**)، لذا نرى –كما يقول هازلت فى الدرامة الماركسية – عالما يتألف جوهريًا من طبقتين تصارع إحداهما الأخرى صراع الموت، وهما: الرأسماليون وأجراؤهم من ناحية، والبروليتاريا الزاحفة من ناحية أخرى(٣).

ومن الأمثلة الصارخة التى تدل على مبدأ «الإلزام القهرى» الذى تفرضه الشيوعية على المفكرين والأدباء والمبدعين موقف الشيوعيين من الكاتب الروسى «**بوريس باسترناك**»(٤) الذى أراد أن يكون أدبه انعكاسًا أمينا لضميره ومشاعره، وتعبيراً صادقًا عن رؤيته للواقع والإنسان والحياة.

---

(١) عن كتاب: ماهر نسيم: الأدب الشيوعى ١٣.

(٢) هنرى أورفون: الجمالية الماركسية ٢٢.

(٣) هنرى هازلت: الأدب والرأى ص٦٩ من كتاب «الأديب وصناعته» مجموعة دراسات فى الأدب والنقد.

(٤) ولد عام ١٨٩٠ فى بيئة مثقفة، وبدأ سنة ١٩١٣ ينشر أشعاره وله عدد من الدواوين الشعرية عدا مؤلفات نثرية أخرى (انظر كتاب: الأدب الشيوعى ١١١–١١٥).

وحينما طلب منه البلاشفة « أن يكتب أشعاراً عن البناء الاشتراكى الجديد والحياة الإشتراكية – الشيوعية – السعيدة، رفض أن يستجيب لندائهم[1]، فاحتدم النزاع بينه وبين الفلاسفة، فاتهمه (المفكرون الرسميون) بأنه « ذاتى التفكير، برجوازى النزعة ومثالى الاتجاهات، وفردى الأهداف »[2].

ثم كانت محنته الكبرى برواية (**دكتور زيفاجو**) التى نال بسببها جائزة نوبل. وهى قصة استوحى مادتها من الحقائق التى لمسها بنفسه، فأثارت ثائرة المفكرين والكتاب الشيوعيين الرسميين، فراحوا يصفون مؤلفها بأنه « خائن »، و« رجعى »، و« مرتد »، وهرطيق »، و« عدو » لبلاده.

والسبب الحقيقى فى إعلان هذه الحرب على باسترناك أن القصة لا تمجد الشيوعية، ولا تمجد القادة البلاشفة، والمجتمع الشيوعى، ولم تلتزم بالقيود الجامدة التى تفرضها « الواقعية الاشتراكية » الزائفة على الكتاب، ورجال الفكر[3].

ثم كان قرار طرده من اتحاد الكتاب السوفيت الذى انعقد له مجلس رئاسة الكتاب السوفيت، ومكتب اللجنة التنظيمية لاتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية، ومجلس رياسة قطاع موسكو من اتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية!! ووصل الأعضاء إلى قرار إجماعى نص فى ختامه:

« .. ونظراً لتدهور باسترناك السياسى والأخلاقى، ولخيانته الشعب السوفييتى وقضية الاشتراكية والسلام والتقدم، واستهدافه خدمة الحرب الباردة مما أدى إلى منحه جائزة نوبل، فإن مجلس رئاسة اتحاد الكتاب السوفيت، ومكتب اللجنة التنظيمية لاتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية، ومجلس قطاع موسكو من اتحاد الكتاب فى الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية لا تعتبره منذ الآن كاتبا سوفييتيا، وتفصله من اتحاد الكتاب السوفييت »[4].

٢٨ من أكتوبر ١٩٥٨

---

(١) الأدب الشيوعى ١١٣ (مرجع سابق).

(٢) الأدب الشيوعى ١١٣ . واقرأ رده على هذه الاتهامات ص١١٣ وما بعدها.

(٣) انظر السابق ١٤٥ .

(٤) السابق ١٥٦ . وانظر نص القرار كله ١٥٣–١٥٦ . وانظر كذلك نص الخطاب الذى بعث به الكتاب الشيوعيون الرسميون إلى باسترناك، ونشرته الجريدة الأدبية فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٥٨ على إثر إعلان فوز باسترناك بجائزة نوبل العالمية (انظر: الأدب الشيوعى ١٤٦–١٥٣).

٥ - الماسونية

كتب عن الماسونية (Masonry) كثيرون، ولكن هذه الكتابات تثير كثيرا من البلبلة في تحديد أبعادها الحقيقية وأهدافها وآلياتها، ويبدو أن السر في هذه البلبلة - كما يقول الدكتور على شلش - يرجع إلى عنصر السرية في الماسونية، فالذين ينتمون إليها يحرصون على الدفاع عنها بالطبع لتبرير انتمائهم على الأقل، والذين يخرجون عليها يحرصون على مهاجمتها لتبرير خروجهم عليها، أما الذين لم ينتموا إليها فلا يمكن أن يتوصلوا إلى الحقيقة؛ لأنهم لم يعرفوها من الداخل بحواسهم، ولا يملكون إلا الموازنة بين الدفاع والهجوم للتوصل إلى نقطة ترضى رغبتهم فى المعرفة، ومع ذلك فقد كشف تراث الماسونية عبر القرون الماضية عن الكثير من الوثائق، ومظاهر التورط فى السياسة بصفة خاصة(١).

والماسونية تطرح نفسها على أنها مؤسسة إحسانية، وجمعية فكرية تسعى إلى استقطاب ذوى النفوس الحرة، والأخلاق الحسنة الراغبين فى العمل من أجل تحسين الشروط المادية والمعنوية للبشرية، والارتقاء بها إلى مستوى ثقافى وحضارى أرفع. وتطمح الماسونية إلى أن تكون شمولية، بحيث لا تتخطى الحدود السياسية والجغرافية الفاصلة بين الأقطار والأمم فحسب، وإنما أيضا الحواجز العقائدية الفاصلة بين الأديان والأحزاب(٢).

* * *

ومما جاء فى تعريف الماسونية:

١ - فى دائرة المعارف البريطانية (ط١٩٨١):

الماسونية هى التعاليم والممارسات الخاصة بالطريقة الأخوية السرية للبنائين الأحرار، والمقبولين (من غير البنائين). وهى أكبر جمعية سرية فى العالم، انتشرت بفضل تقدم الإمبراطورية البريطانية، وغيرها من بلدان الامبراطورية (٣).

---

(١) د. على شلش: اليهود والماسونية فى مصر ١٩٣.

(٢) موسوعة السياسة ٥/٦٥٧.

(٣) شلش السابق ١٩٤.

٢- فى دائرة المعارف الأمريكية (ط١٩٨٣):

الماسونية اسم ودى لجمعيات تطوعية من الرجال، تستخدم أدوات البنائين كرموز فى تلقين الحقائق الأخلاقية الأساسية التى تؤكد أبوة الله، وأخوة البشر[١].

٣- فى دائرة المعارف اليهودية:

الماسونية جمعية سرية نشأت من روابط المهنيين التى كانت تتكون أساسا من البنائين، ومنذ القرن السابع عشر ظهرت الجمعية كمؤسسة اجتماعية، وأسست مبادئها، وكلمات سرها، ورموزها، وشعائرها التى يعتقد أنها مستمدة من شعائر بناء أول معبد فى القدس..

وفى سنة ١٨٧٣ أسس يهود لندن محفلا يهوديا، أطلقوا عليه اسم «محفل إسرائيل»،.. وحين غزا نابليون ألمانيا بجيوشه أنشأت هذه الجيوش عددا كبيرا من المحافل فى ألمانيا بل تأسس محفل يهودى باسم (الفجر الوليد)، واعتمده محفل الشرق الأكبر فى باريس سنة ١٨٠٨[٢].. والقدس تعد عند الماسونيين مسقط رأس الماسونية منذ إقامة معبد الملك سليمان، ولكن المحافل لم تعرف هناك إلا فى منتصف القرن الماضى، فقد تأسست خلال الحكم العثمانى ستة محافل فى فلسطين، كان أولها فى القدس فى مايو ١٨٧٣..[٣].

٤- فى دائرة المعارف السوفيتية الكبرى (ط١٩٧٧)

الماسونية حركة دينية، وخلقية، تدعو إلى وحدة البشر على أساس الإخاء والحب والمساواة والعون المشترك.. وكانت تهدف إلى توحيد العالم فى اتحاد أخوى دينى، ثم اتخذت طابعا أرستقراطيا فى أوروبا،وازداد إلحاحها على الصوفية بدلا من العقلانية[٤].

* * *

ودخلت الماسونية مصر فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)، وكان جمال

---

(١) شلش السابق ٩٦.

(٢) شلش السابق ١٩٧-١٩٨.

(٣) السابق ٢٠٠.

(٤) السابق ٢٠١.

الدين الأفغانى من أشهر من انضم إلى المحفل الماسونى المصرى؛ لأنه رأى فى الماسونية وسيلة للإصلاح والتغيير، مثلها مثل الصحافة والخطابة اللتين ارتبط بهما وقت دخوله الماسونية.. ويبدو أنه أعجب بشعار الماسونية الذى رفعته فى ذلك الوقت فى الحرية والإخاء والمساواة، وهو ذاته شعار الثورة الفرنسية الذى روجته المحافل التابعة لفرنسا فى مصر(١).

ثم اختلف مع رجال الماسونية فى القاهرة، ونأى عنها؛ لأنه اكتشف أن الجبن يمكن أن يدخل بين أسطوانتى المحافل الماسونية، وأن شعارات الماسونية استدرجته، وجعلته ينضوى تحتها، فإذا به يجدها مفعمة بالأنانية، وحب الرياسة والأعمال التى تقودها الأهواء..(٢).

وفى مصر وجد اليهود فى الماسونية ما وجده فيها المسيحيون الشوام: مظلة للحماية، ووسيلة لاكتساب عطف الأغلبية واحترامها، فضلا عن كونها مجالا خصبا للعلاقات العامة التى لا تتيسر المصالح بدونها، بل انهم نجحوا فى سنة ١٩٢٢ فى تحويل الماسونية إلى أداة لخدمة الصهيونية، وأحلام الوطن القومى فى فلسطين(٣).

ومما يقطع بالصلة الوثيقة بين الماسونية والصهيونية أن حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية توقع وأنصاره فى مطلع ١٩٢٢ أن يقوم عرب فلسطين - كعادتهم - بأعمال عنف ضد اليهود أثناء احتفالاتهم بمولد نبيهم موسى. فطلب إلى ممثل المنظمة فى القاهرة العمل على توجيه بيان من بعض أهل الثقة فى مصر إلى عرب فلسطين لحثهم على التزام الهدوء اثناء تلك الاحتفالات التى يشهدها يهود من مختلف بلاد العالم، فأصدر المحفل الماسونى الأكبر بمصر البيان المطلوب بتاريخ ٢ من أبريل سنة ١٩٢٢ (قبل موعد احتفالات المولد)، ووقعه إدريس راغب الأستاذ الأعظم للمحفل وهيئة مكتبه(٤).

والنداء موجه «**باسم الحرية والإخاء والمساواة التى هى الشعار المقدس للماسونية ذات**

(١) السابق ٢٢٤.
(٢) السابق ٢٣١.
(٣) السابق ٢٤٨.
(٤) السابق ٢٧٢.

المبادئ الخالدة.. وباسم السلام العام الذى تدعو إليه جميع المذاهب الفلسفية وتأمر به كل الأديان السماوية والنداء موجه بالنص:

إلى أئمة الدين الحنيف، وحفظة الشرع الكريم..

إلى رؤساء جميع الأديان الأخرى..

إلى أهل العقول الراجحة والبصيرة النيرة..

إلى أرباب الأقلام والصحف..

إلى أكابر المسلمين وأعيانهم..

إلى أصحاب المناصب وذوى الحل والعقد..

إلى التجار الذين تتنافر مصالحهم مع العنف والعدوان وسفك الدماء وتخريب العمران..

إلى العمال والصناع الذين يستفيدون ويفيدون من ازدياد أسباب الثروة وتوافر عوامل الرخاء فى فلسطين.

إلى أصحاب المزارع والضياع، وأرباب المسقفات والمبانى الذين سيكون نماء العمار فى بلادهم سببا لتدفق الثروة عليهم.

إلى المزارعين، والأكارين الذين سينالون أكبر المنافع باستخدام الأساليب الحديثة التى لا تلبث أن تتوافد عليهم، فتعمهم الرفاهية، وتتحسن أحوالهم المادية والأدبية.

إلى الشباب الناهض الذى سيجنى أكبر الثمرات مما سيقام فى فلسطين، مثل ما جناه أبناء سوريا مما أسسه المرسلون الدينيون فى بيروت وغيرها..

إلى المشاغبين (كذا)، أولئك الذين لا تؤدى أعمالهم إلى شئ آخر سوى الضرر بمصالح العرب الحقة. وإلى أولئك الذين يسوقون من خلف الستار بنى قومهم الساذجين إلى العبث بذمة العرب الكرام، وإلى ارتكاب الإثم والعدوان.

إلى أولئك الذين يغريهم الدساسون الخادعون على اقتراف المحارم، وسفك الدماء، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق..

......

يا أهل فلسطين.. تذكروا أن اليهود هم إخوتكم، وأبناء عمومتكم، قد ركبوا متن الغربة فأفلحوا ونجحوا. ثم هم اليوم يطمحون للرجوع إليكم لفائدة وعظمة الوطن المشترك العام بما أحرزوه من مال وما اكتسبوه من خبرة وعرفان.

......

حافظوا على شرف العرب القديم، وعلى مجدهم الصميم، ولا تندفعوا وراء الأيدى الخفية فى تيار الظلم والعدوان.. وإياكم وإياكم أن تسفكوا الدم الذى حرم الله..[1]

ونلاحظ على هذا النداء:

١- تمجيد الماسونية وإظهارها سادنة للقيم الإنسانية العليا من حب وسلام وإخاء.

٢- التلويح بما سيجنيه عرب فلسطين من منافع مادية ورخاء ورفاهية بقبولهم اليهود وإقرار استيطانهم، وخصوصا الزراع والفلاحين والعمال والتجار.

٣- إظهار اليهود بمظهر المتفوقين خبرة ومعرفة وقدرة على استخدام الأساليب الحديثة فى العمل والزراعة وغيرها، وتحقيق الثروات، والارتفاع بمستوى المعيشة لسكان فلسطين.

٤- إظهار اليهود بمظهر المظلومين الذين ركبوا متن الغربة، ومع ذلك أفلحوا ونجحوا.

٥- إظهار اليهود بأنهم أصحاب رسالة «تعميرية» للنهوض بفلسطين (الوطن المشترك) بصورة شاملة اقتصاديا واجتماعيا وتعليميا.

٦- وصف المجاهدين الفلسطينيين الذين يدافعون عن أرضهم، ويتصدون للاستيطان الصهيونى بأنهم مشاغبون، سفاكو دماء، أصحاب إثم وعدوان، وأنهم عملاء، يغريهم الدساسون الخادعون من وراء ستار.

* * *

وهذا النداء الخسيس يقطع بقوة الصلة بين الماسونية فى مصر والصهيونية والصهاينة فى فلسطين، دونما رعاية لحق أو عدل أو شرف.

ولكن هذه الصلة أعمق وأبعد وأشمل وأوسع مدى من هذا المظهر، أو هذه الواقعة؛

---

(١) انظر نص النداء كاملا فى كتاب على شلش السابق ٣٣٤-٣٣٨.

فما حدث إنما هو طرح عابر، وموقف محدود يعبر عن أيديولوجية عميقة الجذور:

فالمعبد الإسرائيلى «هيكل سليمان»: تاريخه وبناؤه وهندسته وخرابه وإعادة بنائه، ثم تدميره للمرة الثانية، والحنين إلى بنائه من جديد هو الفكرة المركزية، وحجر الزاوية، وبؤرة كل الشعائر والمراسم والطقوس فى الماسونية.

فالماسون مرتبطون فى محافلهم وأنشطتهم بقصص وخرافات العصر الذهبى لليهود أيام المعبد القديمة، وأما «**البناء الثالث للهيكل**» فهو الهدف الأسمى، ونهاية الأرب عند الماسون.

ونقل بعض النصوص من مرجع حجة فى هذا الموضوع[١]:

١- إن مهمة الرصاصة قتل وتدمير الجامعة والمعرفة والكنيسة والخلاص، أما بالنسبة للماسون فهى بناء المعبد. (ص٨)

٢- لأن رسالة الماسون هى بناء المعبد، فالماسونى الحق هو الذى يعمل بصدق لإقامة هذا المعبد(ص٩)

٣- إن التائهين المنفيين فى جميع أنحاء الأرض منذ عدة قرون، المحتقرين، والمضطهدين فى كل مكان، قد جعلوا أنفسهم - رغم ذلك وإلى الآن «شعبا متميزا». وفى الحقيقة، ونتيجة لهذه المحافظة الفريدة فإنهم يبنون بعاطفة جامحة أملهم الغالى فى العودة: سيعودون يوما إلى القدس، ومرة أخرى سوف يتوج هيكلها السامى تلك الأمجاد، ويسطع فى أبهة متجددة بأشعة الشمس المشرقة، سوف تدوى داخله من جديد ترانيم تمجيد «صهيون»، وسوف تخيم مرة أخرى سحابات البخور والتقدمة - القرابين - على قاعاته المقدسة (٨٩-٩٠).

٤- ومع أن الماسونية - فى معظم التفاصيل تقريبا - قد اجتازت تغيرات من وقت لآخر «لتلائم المراحل الزمنية» فإن هناك نقطة واحدة لم تتغير أبدا، أعنى الفكرة المركزية الباعثة لوجودها ألا وهى المعبد المقدس.

---

(١) هو الكتاب الذى ألفه :أ.س. ماكبرايد وعنوانه: (الماسونية التأملية - رسالتها وتطورها ومعالمها - جلاسجو ١٩١٤)

A.S Macbride: Speculative Masonry: its mession; its evolution and its landmar, Glasgow,1914).

ومن أجل هذه الغاية كان تكوين المحفل الإنسانى الماسونى (١).

وكان نابليون صادقا عندما قال قولته الشهيرة: «يجب أن نعترف أن الدنيا تدار من قبل المنظمات السرية». وكانت الثورة الفرنسية -ومن نصوص البروتوكولات- إحدى الإنجازات الماسونية الكبرى. **ففى البروتوكول الثالث من بروتوكولات حكماء صهيون:**

تذكروا الثورة الفرنسية التى نسميها الكبرى.. إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيدا، لأنها من صنع أيدينا.. ونحن الآن كقوة دولية فوق المتناول لأنه لو هاجمتنا إحدى الحكومات الأممية، لقامت بنصرنا أخريات (٢).

ويتحدث **آرثر إدوارد فى** «موسوعة جديدة فى الماسونية» عن دور الماسون من درجة فرسان المعبد فى الثورة الفرنسية، وأنهم كانوا يخططون ويهدفون إلى تحطيم الحكومة الملكية فى فرنسا، وإلى تحطيم العقيدة الكاثوليكية.

وخلص إلى القول: **ببساطة يمكن أن نضع الفرض هكذا.. إن الماسون من درجة فرسان المعبد كانوا يهدفون إلى ثورة فى فرنسا، وإن الثورة الفرنسية قد جاءت** (٣).

ومن الحقائق التاريخية التى تدين الصلة بين الماسونية والصهيونية والثورة الفرنسية أن الأسطول الفرنسى لما دمر على الشواطىء المصرية سار بونابرت بجيشه عبر صحراء سيناء إلى فلسطين مضمرا فى نفسه **أن ينشىء دولة يهودية بها استجابة لطلب المحافل الباريسية الصليبية الصهيونية**. وفى الرابع من أبريل عام ١٧٩٩ خطب بونابرت فى صهيونيى يافا وحيفا والقدس الذين انتظروه مع غيرهم من اليهود القادمين من رومانيا فقال:

«... أيا ورثة فلسطين الشرعيين، الأمة العظيمة تناديكم لتستردوا ما سُلب منكم بالغزو، أسرعوا لقد حانت اللحظة.. لحظة المطالبة باسترداد حقوقكم المدنية، وكيانكم السياسى كأمة للأبد» (٤).

وأصبح نابليون الذى احتمى بمحفل الماسون واحدا من صفوتهم، منحه مجلس الشيوخ الماسونى (سنة ١٨٠٤) منصب الامبراطور الوراثى، ولقب نابليون الأول،

---

(١) عن كتاب محمود الشاذلى: الماسونية عقدة المولد وعار النهاية ٤٥ - ٥٢.

(٢) محمود الشاذلى: المسألة الشرقية ١٤٣.

(٣) الشاذلى: السابق الصفحة نفسها.

(٤) أبو إسلام أحمد عبدالله: الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ ص ٣٢.

ونقشت أمجاده الإجرامية على قوس النصر الذى شيده الملك الماسونى «**فيليب إيجاليتيه**» بميدان ليتوال «النجمة السداسية» بفرنسا (١).

ومن الشكليات التى تقطع بعمق الصلة بين الصهيونية والماسونية أن المحفل الماسونى يعنى «خيمة موسى فى البرية» ، وأن «النور» عند الماسون يعنى «النور الذى تجلى لموسى فوق الجبل»، وأن الهيكل «يعنى هيكل سليمان»، وأن «العشيرة» التى تستخدم بمعنى «الجمعية الماسونية» تشير إلى «عشائر بنى إسرائيل»، وأن «العقد الملوكى» تمثله قلائد نقش عليها أسماء «أسباط» بنى إسرائيل.

كما أن الماسونية الرمزية تستخدم بعض أسماء أنبياء بنى إسرائيل للدلالة عليها، مثل: بوغر، بمعنى الأخ، وجاكى، بمعنى: الأستاذ، ويهوذا أو جاهونا، بمعنى الأستاذ الأعظم. وأن درجات الماسونية الملوكية تقابل أسماء أبطال السبى البابلى، مثل زر بابل ونحميا وعزرا ويشوع.

كما أن طالبى الترقية إلى الدرجات العليا يتقدمون إلى غرفة العقد الملوكى التى ترمز إلى هيكل سليمان، وهم «خالعو الأحذية» تشبها بموسى الذى أمره الله بأن يخلع نعليه؛ لأنه بالوادى المقدس.

كما أن الحوار بين رؤساء المحافل والأعضاء قبل ترقيتهم إلى رتب ماسونية أعلى يؤيد ذلك: إذ يقول العضو إنه قادم من بابل، وإنه يقدم مساعدته فى بناء هيكل أورشليم ثانية لإله بنى إسرائيل «مهندس الكون الأعظم»،وإن بينه وبينهم «أى اليهود» أخوة...(٢).

******

(١) السابق الصفحة نفسها.

(٢) انظر : سعيد الجزائرى : الماسونية: ماضيهاوحاضرها ١٢٠.

أنــديـة الروتــارى

القناع الجديد

لقد رأينا الخطوط العريضة للماسونية، والوشائج القوية التى تربطها بالصهيونية، وحرصها على هدم قيم الإسلام والإنسانية، وانكشف كثير من خباياها وخفاياها، وثبت أن شعار «الحرية والأخوة والمساواة» ما هو إلا خدعة كبرى؛ فهو لا يتفق مع الواقع السرى لهذا المذهب، فكان لابد من تغيير الجلد مع بقاء الجسد، وتغيير الاسم مع بقاء المسمى، فجاءت أندية الروتارى **ROTARY**.

والروتارى - كما فسرها أهلها - تعنى «التناوب» أى أن «الإخوة الروتاريين» يتناوبون الزيارات فيما بينهم. وكان أول من أسس هذه «الرترتة» هو المحامى «**بول هارس**» بإحدى مدن ولاية شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، وأخذت تتوسع الفكرة وتنتشر الرترتة بدعم قوى من المحافل الماسونية، حتى تأسست «**المؤسسة الدولية لأندية الروتارى**» ومركزها مدينة «**إيلينوى**» بشيكاغو تحمل على كاهلها الدعوة إلى «**الإخاء، الحرية، المساواة، السلام**»، فهى صورة حديثة أو بنت آخر العنقود **لمحافل الماسونية**. ينقسم فيها العالم إلى محافظات وحكومات غير التى نعرفها فى محافظات وحكومات بلادنا، وتضم **مصر والسودان والأردن ولبنان والبحرين وقبرص** محافظة واحدة تحمل رقم ٢٤٥[١].

* * *

وتعتبر مجلة «**الروتارى**» هى المصدر الأساسى لفكرهم وطوابع مذهبهم، على الرغم من أنهم يحاولون أن يتحلوا بالحذر والاحتراس، ونحاول أن نعيش مع بعض تصريحاتهم وما تحمله مجلتهم من بياناتهم فى السطور الآتية:

- فى العدد ٣٠٠ يونيه أغسطس ١٩٨٢ من مجلة الروتارى نقلاً عن نشرة نادى روتارى عمان جاء هذا النداء:

نداء روتارى

تعال كائنا من كنت

---

(١) أبو إسلام: الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ ص٩٧.

وثنيا كنت أو غير مؤمن

تعال إلى محراب الأمل

وابْدُ كما كنت، أو كما تظهر

ها قد بدأت السنة الروتارية

فهل بوسعها أن توقظنا من السبات

ببريق يعيد إلينا الأمل؟

حتى ولو فشلنا..

فالصلاة تعبير عن الإيمان

بصرف النظر عن الإله الذى نتوجه إليه (!!)[1].

فالمعبود الذى توجه إليه الصلاة يصح عند الروتاريين أن يكون تمثالاً، أو بشرا زعيمًا، أو شيطانًا، وقد ظهر فى العقد الأخير بين الشباب الساقط ما يسمى بعبادة الشيطان.

* * *

ويكتب أحد كبارهم بمناسبة احتفال الأقباط بعيد الميلاد: «.. وكم أسعدنى أن أسمع فى اجتماع لنادى روتارى القاهرة كلمة من أحد الحاضرين طُلب منه أن يعبر بإيجاز عن الفرق بين **الإسلام والمسيحية**، فقال: **لا يوجد فرق بينهما على الإطلاق (؟!!). فمنْ رجال الدين مَنْ يلبس العمامة السوداء. ومنهم من يلبس العمامة البيضاء. وهما معًا كسواد العين وبياضها، يجمعهما الجفنان، ويحرسانهما.**

وذلك هو أبلغ تعبير عن التآلف والوحدة ليعم السلام فى الأرض، ونحن الروتاريين نسعى لخدمة البشرية ونطالب بتحقيق الرسالة السماوية إلى الأرض، وشعارنا وهدفنا وحدة الإنسانية من خلال التفاهم الدولى[2].

---

(١) الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ – ١١٢. وانظر سعيد الجزائرى ٣٢٣–٣٢٤ من كتابه: الماسونية ماضيها وحاضرها.

(٢) العدد ٣٠١ سبتمبر ١٩٨٢ من مجلة الروتارى عن كتاب الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ .. ص ١١٣ (مرجع سبق).

وقد استطاع الروتاريون فى مصر بالذات أن يصلوا إلى أجهزة الإعلام، وبخاصة التليفزيون العربى، وأن يعرضوا به ما أسموه نشاطًا اجتماعيًا لهم.. والحصول على عضوية الروتارى أشد صعوبة من دخول كلية الطب، فهذه العضوية هى الوحيدة التى لا يسمح بأن تقدم إليها، بل الشرط الأساسى فيها أن يفاجأ العضو بأنه مرشح لها. وفى هذه النقطة بالذات تقضى طقوس الروتارى بأن يتم وضع العين على العضو المرشح دون أن يشعر، وتبدأ التحريات عنه دون إخطار، حتى إذا تمت الموافقة عليه فى الجهاز الإدارى، بدأ التحدث معه بشأن العضوية. ولا يقبل فى أى ناد من نوادى الروتارى أكثر من عضو واحد فى مهنة واحدة[1].

* * *

والنظرة الشاملة الفاحصة لواقع الماسونية فى دول العالم من أول نشأتها وبنائها الهيكلى التنظيمى تدفعنا إلى التساؤل مع أصحاب (موسوعة السياسة): هل وراء هذا التوزيع فى الأدوار يد خفية تخطط لغايات لا يعرفها إلا ذوو أعلى المراتب داخل الحركة الماسونية والتى قد تصل إلى ٣٣ مرتبة؟

هل هنالك بتعبير آخر خطة ماسونية عليا وسرية ترمى إلى فرض هيمنة مجموعة صغيرة من الأعيان على مناطق شاسعة من العالم، فتعبىء لها طاقات متعددة الجنسيات والاتجاهات، وتجند فى سبيلها أساليب عمل متنوعة بقدر ما هى متباينة؟

أم أن الماسونية هى فعلاً كما يعرفها أنصارها حركة تعمل فى سبيل « معبد الإنسانية » الذى لن يكتمل تشييده إلا يوم تغطى (سلسلة الاتحاد) الحية، التى تجمع شمل الماسونيين، الكرة الأرضية برمتها[2]؟

وأعتقد أن ما عرضناه فى الصفحات السابقة عن الماسونية فى ثوبها الأصلى، وثوبها الروتارى يعطى الجواب واقعيًا صادقًا إلى حد كبير. إلا أن الجواب قد جاء حاسمًا فى الفتوى التالية:

فتوى المجمع الفقهى الإسلامى بشأن الماسونية وتوابعها، كأندية الروتارى، والليونز (وهى من الوجوه الجديدة للماسونية):

---

(١) من مقال للدكتور أحمد شلبى عن الكتاب السابق ٢٠٦.

(٢) موسوعة السياسة ٥ / ٦٦٠.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

فنظر المجمع الفقهي في دورته الأولى المنعقدة بمكة المكرمة في العاشر من شعبان: ١٣٩٨ الموافق ١٥/٧/١٩٧٨ في قضية الماسونية، والمنتسبين إليها، وحكم الشريعة الإسلامية في ذلك.

وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالعوا ما كتب عنها من قديم وجديد، وما نشر من وثائقها نفسها، فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها من مؤلفات، ومن مقالات في المجلات التي تنطق باسمها.

وقد تبين للمجمع بصورة لا تقبل الريب من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص ما يلي:

١- أن الماسونية منظمة سرية، تخفى تنظيمها تارة، وتعلنه تارة بحسب ظروف الزمان والمكان، ولكن مبادئها الحقيقية التي تقوم عليها سرية في جميع الأحوال، محجوب علمها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.

٢- أنها تبنى صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهرى للتمويه على المغفلين، وهو «**الإخاء الإنساني المزعوم**» بين جميع الداخلين في تنظيمها، دون تمييز بين مختلف العقائد والنحل والمذاهب.

٣- أنها تجذب الأشخاص إليها ممن يهمها ضمهم إلى تنظيمها بطريق الإغراق بالمنفعة الشخصية، على أساس أن كل أخ ماسوني مجند في عون كل أخ ماسوني آخر في أي بقعة من بقاع الأرض، يعينه في حاجاته، وأهدافه، ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف، إذا كان من ذوي الطموح السياسي، ويعينه إذا وقع في مأزق من المآزق أيا كان، على أساس معاونته في الحق والباطل، ظالمًا أو مظلومًا، وإن كانت تستر ذلك ظاهريًا بأنها تعينه على الحق لا الباطل، وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعية، وتأخذ منهم اشتراكات مالية ذات بال.

٤- أن الدخول فيها يكون على أساس احتفال بانتساب عضو جديد تحت مراسم

وأشكال رمزية إرهابية، لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها، والأوامر التى تصدر إليه بطريق التسلسل فى الرتبة.

٥- أن الأعضاء المغفلين يتركون أحراراً فى ممارسة عباداتهم الدينية، ويستفيد من توجيههم وتكليفهم فى الحدود التى يصلحون لها، ويبقون فى مراتب دنيا، أما الملاحدة أو المستعدون للإلحاد فترتقى مراتبهم تدريجيًا فى ضوء التجارب، والامتحانات المتكررة للعضو على حسب استعدادهم لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.

٦- أنها ذات أهداف سياسية، ولها فى معظم الانقلابات السياسية والعسكرية والتغيرات الخطيرة ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.

٧- أنها فى أصلها وأساس تنظيمها **يهودية الجذور**، **ويهودية الإدارة** العليا العالمية السرية، وصهيونية النشاط.

٨- أنها فى أهدافها الحقيقية السرية ضد الأديان جميعًا لتهديمها بصورة عامة، وتهديم الإسلام فى نفوس أبنائه بصورة خاصة.

٩- أنها تحرص على اختيار المنتسبين إليها من ذوى المكانة المالية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو العلمية، أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذًا لأصحابها فى مجتمعاتهم، ولا يهمها انتساب من ليس لهم مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء، والوزراء، وكبار موظفى الدولة ونحوهم.

١٠- أنها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى تمويها وتحويلاً للأنظار، لكى تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت مختلف الأسماء إذا لقيت مقاومة لاسم الماسونية فى محيط ما، وتلك الفروع المستورة بأسماء مختلفة من أبرزها منظمة الأسود، والروتارى، والليونز، إلى غير ذلك من المبادئ، والنشاطات الخبيثة التى تتنافى كليا مع قواعد الإسلام، وتناقضه مناقضة كلية.

وقد تبين للمجمع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية. وبذلك استطاعت أن تسيطر على نشاطات كثير من المسئولين فى البلاد العربية

وغيرها في موضوع قضية فلسطين، وتحول بينهم وبين كثير من واجباتهم في هذه القضية المصيرية العظمى لمصلحة اليهود والصهيونية العالمية . .

لذلك، ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيلية عن نشاط الماسونية وخطورتها العظمى، وتلبياتها الخبيثة، وأهدافها الماكرة، يقرر المجمع الفقهي اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدامة على الإسلام والمسلمين، وأن من ينتسب إليها - على علم بحقيقتها وأهدافها - فهو كافر بالإسلام، مجانب لأهله. والله ولي التوفيق[1].

* * *

(١) نقلاً عن كتاب سعيد الجزائري: الماسونية ماضيها وحاضرها ٢٧٦-٢٨٩.



الفصل الثالث

من وسائل التضليل والتدمير

١ - الإحسان والمساعدات الاجتماعية

جاء فى كتاب « مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين » -Conference of christian workers Among Moslems, N. Y. 1924:

نحن نعنى بالعمل الاجتماعى المسيحى تطبيقَ مبادىء يسوع المسيح فى جميع الصلات الإنسانية. إن المسلمين يدّعون أن فى الإسلام ما يلبى كل حاجة اجتماعية فى البشر، فعلينا أن نقاوم الإسلام دينياً بالأسلحة الروحية، فالنشاط الاجتماعى يجب أن يرافق التعليم المباشر للإنجيل ويساعده ويتمه.. فلنبدأ بالصلات اليومية، تلك التى تتصل بالطفل، وبالمرأة، ثم نتوسع فى تلك الصلات حتى نبلغ إلى المبادىء الواسعة التى أقرتها عصبة الأمم، فأمام الكنيسة اليوم مناسبات ممتازة تتيح للمبشر المسيحى أن يتصل برجال، ونساء فى البيئة الإسلامية الراقية، لم يكن بإمكانه من قبل أن يتصل بهم...
وعلى المبشرين أن يتعرفوا إلى أحوال المسلمين الاجتماعية، والاقتصادية حولهم ثم يسعوا إلى الإصلاح فى الظاهر سعياً إلى التأثير على الرأى العام بأن غايتهم شريفة مجردة من الغرض التبشيرى، ومما يجب أن يهتم المبشرون به فى الظاهر: إصلاح الأحداث - الحيلولة دون الزواج الباكر - الحيلولة دون تشغيل الأطفال - محاولة إصلاح الأحوال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل وبالأجور، وبالأمور الصحية فى المعامل - الرفق بالحيوان(١).

وهذا النص يبين فى وضوح الحقائق الآتية:

١ - أن هذا الإحسان ليس مقصوداً لذاته، مدفوعًا ببواعث إنسانية نبيلة، ولكنه يهدف إلى التبشير بالمسيحية.

٢ - ومن أهدافه التشكيك فى قدرة الإسلام على تلبية الحاجات الاجتماعية للمسلمين.

٣ - يجب أن يكون هذا الإحسان بوجوهه المختلفة معتمداً على دراسة وافية لأحوال المسلمين، والتظاهر بالإصلاح والإحسان لذاته، ولكن الهدف التأثير على الرأى العام.

* * *

(١) عن خالدى وفروخ: مرجع سبق ١٩٢.

وقد ساعد هؤلاء المبشرين على تحقيق أهدافهم (الإنسانية!!) حقيقة مؤسفة وهى أن أفقر دول العالم مسلمة، ولكن المسلمين كثيراً ما ينسون أو يتناسون هذه الحقيقة، ولنضرب مثالاً واحداً بدولة مسلمة هى: بنجلاديش، تقول مصادر الأمم المتحدة: إن أكثر من نصف سكان بنجلاديش البالغ عددهم اثنين وتسعين مليوناً من البشر يعيشون دون مستوى الكفاف، وتنقل وكالة رويتر للأنباء أن عشرة بالمائة من سكان العاصمة «دكا» والبالغ مجموعهم ٥,٢ مليون نسمة هم من الشحاذين الذين يسهمون فى الجريمة والدعارة، وتمثل النساء ٣٤٪ منهم، وتتراوح أعمار ١٢٪ بين ١٢ - ١٧ سنة[١].

والتاريخ ينقل إلينا أن المجاعة التى حدثت فى الجزائر سنة ١٨٦٧ - ١٨٦٨ قد استغلت من قبل المنصرين استغلالاً سيئاً، فقد نهض **الكاردينال لافيجيرى**، وباسم الإحسان تبنى عدداً من الأطفال المشردين، ولكى يعمل على تأسيس العائلة العربية المسيحية أنشأ لهؤلاء الأطفال قريتين بسهل العطاف، ففاز بتأييد السلطة الحاكمة بباريس[٢].

* * *

وباسم الإحسان والعلاج، والنهوض بالمستوى الاجتماعى يتوغل المنصرون فى أعماق البلاد المتخلفة، يلبسون مسوح الرحمة والعطف والإنسانية، معتمدين على منهج ذكى مدروس، **ومن أصرخ الأمثلة وأدلها على منهج المنصرين ما قاموا به فى قبيلة الفولانى** فى غرب أفريقيا، وعدد الفولانيين عشرة ملايين أغلبهم مسلمون يرعون الأبقار، ولكنهم للأسف يجهلون أساسيات الإسلام، وبسبب هذا الجهل حاول المنصرون إيهام الفولانى **بأن الإسلام والنصرانية لا يختلفان**، فعيسى هو ابن الله، وعلى المسلم أن يعتقد ذلك، وعندما تتمكن هذه العقيدة يسعى المنصرون لتمكين عقيدة أخرى **هى أن المسيح ابن الله يتحمل عمن يؤمن به عناء الصيام والصلاة.**

---

(١) د. نبيل صبحى الطويل: الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين ٢٧، وانظر بعد ذلك ما عرضه الكاتب من سوء الصحة وسوء التغذية فى بلاد المسلمين، والديون الفادحة التى تثقل كاهل الدول الإسلامية.

(٢) خديجة بقطاش، من مقال بعنوان: الحركة التبشيرية فى الجزائر، ص ٧١ من مجلة الثقافة الجزائرية السنة (١١) العدد ٦١ - صفر - ربيع الأول ١٤٠١ - يناير - فبراير ١٩٨١.

واستغل المنصرون تعلق الفولانيين بأبقارهم فى عملية تنصيرهم بواسطة المنصرين البياطرة، فهم يجلبون لهم الدواء والعلف، ويصلحون لهم خزانات المياه، والفولانى لا يتوانى فى احترام كل من يحسن إلى أبقاره.

فمصل الخصوبة الذى تحقن به الأبقار يجعلها قادرة على الإنجاب السنوى، والتهجين وخلطات العلف تجعلها قادرة على توفير جالونين من اللبن فى اليوم، **ويوهم المنصرون أن ما حدث إنما هو من عمل عيسى وسحره، فباسمه تنجب البقر، وتعطى أكثر.**

وبعد أن تتحقق هذه النتيجة، ويرى الفولانى أبقاره كيف نمت، وأنجبت، ودرت **يأتى المنصرون إليه يسألونه ابنه لكى يعلموه سحر المسيح فى معالجة الأبقار**، فيقبل مرحباً، وقد رأى من هذا السحر آياته الكبرى، خصوصاً أن الفولانى لا يرسل ابنه إلى المدرسة، لأنها لا تعلمه كيف يرعى الأبقار ويعالجها، ومن ثم كانت هذه الإرساليات النصرانية أحظى له.

وما يقال فى هذا المجال يقال مثله فيما ينشئه هؤلاء المنصرون من دور الحضانة والأطفال اللقطاء، والمستشفيات، والمستوصفات، والعيادات(١).

* * *

والعالم كله يعرف أن المسلمين فى الفلبين تعرضوا فى عهد ماركوس لحملات تدميرية، تولى كبرها ماركوس، وحكومته، وجماعات صليبية إرهابية كانت تقوم بعمليات إرهابية واسعة النطاق، منها السرى، ومنها الجهرى، **وأمام ذلك كانت الكنيسة تستغل الأحداث الدامية لصالحها محاولة تحت ستار الإنسانية والإحسان التغلغل إلى قلوب المسلمين الفقراء المضطهدين لتنصيرهم، ولعل القصة الحقيقية الآتية تصم الكنيسة بذلك:**

فقد حدث أن قام الجيش الفلبينى بهجوم على مدينة (**سوكو**) الإسلامية، وضربها براً وبحراً وجواً حتى دمرها تماماً، وهرب منها من بقى من الأحياء، وعلى أنقاض تلك المدينة جاء قس ليعيد بناء المدينة الإسلامية مستفيداً من الموارد المحلية، فبنى ثلاثة آلاف بيت، وملّكها للمسلمين بأقساط لمدة خمس وعشرين سنة، **وبنى لهم مدرسة وكنيسة**

(١) انظر عبد الرحمن عثمان: «تنصير قبيلة الفولانى فى غربى أفريقيا» ٢٩ - ٣١، مقال فى مجلة الأمة القطرية العدد ٥٦ السنة (٥) شعبان ١٤٠٥ - نيسان ١٩٨٥.

(**مع أن سكان المدينة جميعاً مسلمون**)، ولم يفكر القس طبعاً أن يبنى مسجداً، وهذا يعنى أن تتحول المدينة كلها إلى النصرانية بالتدريج[١].

* * *

وفى جنوب شرق آسيا تعتبر أندونيسيا مركز ثقل وقوة للعالم الإسلامى فى طرفه الشرقى، لذا كانت الغارة عاتية على هذا الوطن الذى استقل بعد كفاح مرير ضد هولندا ثم اليابان.

وكانت الغارة فى شكل صليب يحمل حفنة من أرز وزجاجة من دواء، لتقدم باسم المسيح إلى الجماهير المسلمة الجائعة العارية المريضة.

واتخذت المؤسسات التبشيرية فى أندونيسيا هذا المنطق اللاإنسانى - منطق استغلال الحاجة - منهجاً لها، وتدفقت المعونات من أنحاء العالم المسيحى بغير حساب، لتوضع بين يدى هذه المؤسسات التبشيرية تستخدمها فى حملات التنصير فى الأوساط الإسلامية المعوزة... وتسلل المبشرون إلى السجون والمعتقلات، وأخذوا يتصلون بالمساجين والمعتقلين (المسلمين)، ويعرضون عليهم الوعود بأنهم سيمدون أسرهم وذويهم بالغذاء، والكساء، والحاجات الضرورية، شريطة أن يوقع أولئك المساجين على التعهد بأنهم مستعدون للتنصير لقاء ذلك[٢].

وينقل الدكتور محمد رشيدى أحد كبار رجال الفكر فى أندونيسيا القصة الآتية عن أحد سكان بلدته فى جاوه الوسطى:

إن لى نسيباً اعتقلته الحكومة.. وبقيت أسرته تعانى العوز بعد اعتقاله، وقد اتصل به فى المعتقل أحد المبشرين وسأله: هل تحب أن تتلقى أسرتك معونة تنقذها من غائلة الضياع والفاقة؟ فأجاب نسيبى على البداهة: طبعاً، ولكن من هو الإنسان النبيل الذى سيقدم لأسرتى تلك المساعدة الكريمة فى هذه الظروف بالذات؟ فقال له المبشر: إن المعونات ستصل إلى أسرتك بانتظام، ولكن عليك أولاً أن توقع على هذا الصك معترفاً بالتنصر.

---

(١) انظر د. عباس المحجوب «فى العمل الإسلامى الرسمى»: مقال فى مجلة «الأمة» ص ٨ - ١٣، العدد ٥٧ - السنة (٥) شوال ١٤٠٥ - يونيو ١٩٨٥.

(٢) أبو هلال الأندونيسى: غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا ١٣ - ١٤.

ولم يفكر نسيبى طويلاً ووقع على الصك، وأصبحت أسرته تتلقى المعونة بانتظام، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فلى أخت أخرى حين رأت شقيقتنا قد تحسن حالها بفضل المعونة التى تتلقاها بعد تنصر زوجها، قالت لى هذه الأخت: إن أختها قد نالت معونة منتظمة، وأنا فى أشد الحاجة إلى مثلها، فهل بإمكانك تأمين مثل تلك المعونات لى، أم أقتدى بأختى؟[١].

ويقول الزعيم الأندونيسى المسلم محمد ناصر: إن كثيراً من منكوبى المجاعة يقدم إليهم الأرز على أن يستبدلوا بإسلامهم التنصر، وتساءل: إن الأجانب الذين يريدون تقديم مثل تلك المعونات للبائسين إذا كانوا حقاً يقصدون إغاثة الملهوفين، فلماذا لا يقدمون معوناتهم لحكومة أندونيسيا بدلاً من تقديمها للهيئات التبشيرية -- إذا كانت حقاً إغاثة بريئة غير مشروطة؟

وتساءل عما يعنيه عرض زيوت الطعام والمارجارين فى علب مرسوم عليها شعارات النصرانية، ورمز جماعة (الأدفنت)، ثم تباع فى الأسواق بأسعار دون سعر التكلفة[٢].

* * *

وفى المجالات التى يخوضها العمل التنصيرى فى أندونيسيا مجال تبنى الأطفال البائسين، وقد مارس المبشرون هذا النشاط تحت اسم برنامج: **أسلوب تبنى فوستر** Fos-ter Parent System، وتم تنفيذ هذا البرنامج باختيار الأطفال البائسين، فيعرض على ذويهم السماح بتبنيهم من قبل محسنين فى أوربا، وأمريكا، وكندا، واستراليا، ولا يعنى هذا التبنى إلا مجرد وجود من يكفل لأولئك الأطفال مهمة الإنفاق على أمور تعليمهم ومعاشهم، مع بقائهم وسط أسرهم وأهليهم، وكل ما هناك شخص يمثل الآباء المتبنين يتعهد أبناءهم، ويتصل بهم، ويقدم لهم نفقاتهم، ويتعهد أحوالهم.. ويتم التبنى، وسرعان ما تتبدل حياة هؤلاء الأطفال من الفاقة والخصاصة إلى السعة والبسطة فى العيش قد تصل إلى الرغد والبلهنية ويتغير سلوكهم وثيابهم، مما يثير أندادهم من الأطفال، ويجعلهم يتلمظون لهفة على الحظوة بمثل ذلك[٣].

---

(١) أبو هلال: السابق ٤٥ – ٤٦.

(٢) السابق: ٨٣.

(٣) السابق ٩٥.

لكن هناك أسلوباً أشد خطراً يحمل شعار: **أنقذوا الأطفال Save The Children**، فهو أسلوب برىء المظهر، بارز التجرد لعمل البر والإحسان، على الأقل فى نظر البسطاء والسذج؛ فليس هناك تبنٍّ ولا آباء متبنون ولا أبناء.

وقد انزلق فى مزالق هذا البرنامج عدد من أصحاب الانتماءات الإسلامية ومن المحسوبين على الإسلام والمسلمين، من بينهم أحد المدرسين بالجامعة الإسلامية الحكومية فى آتشيه... فقد وصل القوم ببرنامجهم إلى منطقة آتشيه ذات الانتماء الإسلامى البارز.. بفضل مساعدة هؤلاء المحسوبين على الإسلام(١).

* * *

ومن الجدير فى مجال المعونات والمساعدات ما قرره مجلس الكنائس العالمى، والفاتيكان، وهيئات التبشير الأخرى الإسهام فى أعمال التنمية، ومشاريعها فى الأقطار النامية تحت شعار «**من الكنيسة إلى المجتمعات**»، فمجلس الكنائس العالمى أسس هيئة سماها (**هيئة مجلس الكنائس للإسهام فى أعمال التنمية**)، وتعمل هذه الهيئة فى أعمال التنمية المتنوعة المختلفة، مثل إقامة القرى الزراعية، وعقد الدورات التدريبية المهنية لمختلف التخصصات التقنية والفنية، وتقديم القروض المباشرة إلى الفلاحين عن طريق مؤسسات (وحدات الإقراض)، ومشروعات التهجير الداخلى للسكان وغير ذلك(٢).

ويأتى هؤلاء المبشرون إلى أندونيسيا، ومعهم أحدث وسائل الدعاية التبشيرية والإعلامية من أفلام، ومسجلات، ووسائل طباعة، وغيرها، بل استخدموا بواخر بأكملها، ترتاد السواحل والجزر النائية عن مراكز التجمعات الإسلامية،.. ومما يذكر أن ربابنة وملاحى هذه البواخر كلهم من القسس والمبشرين.

وفى المناطق الواقعة خارج جاوة يملك التبشير أحدث وسائل النقل والمواصلات، مثل طائرات الهيليكوبتر، والأجهزة اللاسلكية، وغيرها، ويملك الترخيصات اللازمة لإنشاء مطارات خاصة بها هناك(٣).

* * *

---

(١) أبو هلال الأندونيسى ٩٦.

(٢) السابق ٨٨.

(٣) السابق ٨٨.

ولا يختلف اثنان على أن الطب عمل إنسانى جوهرى يهدف إلى إنقاذ الإنسان من آلامه وأوجاعه، ولكن المبشرين خرجوا عن كل نبل فى الطبيعة الإنسانية، وسخروا الطب فى سبيل غايات حسبك دليلاً على تنوعها قولهم: «حيث تجد بشراً تجد آلاماً، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة إلى الطبيب، وحيث تكون الحاجة إلى الطبيب فهنالك فرصة مناسبة للتبشير»، وهكذا اتخذ المبشرون الطب ستاراً يقتربون تحته من المرضى(١).

ومن الوقائع التى تؤيد هذه الحقيقة – وهى اهتمامهم بالتبشير لا التطبيب – أن نفراً منهم أنشأوا مستوصفاً فى بلدة الناصر فى السودان، وكانوا لا يعالجون المريض أبداً إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذى يشفيه هو المسيح.. وفى الحبشة كانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى، ويسألوا المسيح أن يشفيهم، ومن الحيل التى استعملها المبشرون فى وادى النيل أنهم استخدموا ثلاثة مراكب، وجعلوها مستوصفات نقالة على النيل، وكانوا يعلنون عن مجىء الطبيب قبل أن يصل بوقت طويل، فيأتى الناس من كل صوب يحملون مرضاهم، وكان أولئك الأطباء.. لا يبدأون بعلاج المرضى إلا بعد أن يكرزوا عليهم(٢).

وحملت أم مرة طفلها المريض وجاءت به إلى مستوصف الناصر بالسودان، ولكن الطفل مات فى أثناء الطريق الطويلة، فلم يعزِّ الطبيب هذه الأم الثكلى، بل جلس يكرز عليها(٣).

ومن توجيهات «إيراهاريس» إحدى كبيراتهم للطبيب الذاهب إلى مهمة تبشيرية:

«يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم، فتكرز لهم بالإنجيل، **إياك أن تضيع التطبيب فى المستوصفات، والمستشفيات، فإنه أثمن تلك الفرص على الإطلاق، ولعل الشيطان يريد أن يفتنك، فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير..**»(٤).

ولم ينس المبشرون مقام المرأة فى الأسرة، فوجهوا اهتمامهم إلى التأثير عليها، وجعلوا

(١) خالدى وفروخ: التبشير والاستعمار ٥٩.

(٢) الكرازة: تعبير مسيحى معناه: إلقاء النصائح على الآتين إلى الكنيسة (كرز أو حرز بالسريانية: وعظ).
ومن كتبهم التى عرضت ذلك، وشرحت تاريخ التكريز وأصوله: القاموس الموجز للكتاب المقدس ٥٦١.

(٣) خالدى وفروخ: السابق ٦٢.

(٤) السابق: الصفحة نفسها.

يبشرون فى مستشفيات النساء، وفى المستوصفات، وكذلك أرسلوا الطبيبات المبشرات إلى البيوت والقرى للاتصال مباشرة بالنساء، واستخدام نفوذ المرأة فى الوصول إلى أهدافهم التى يزعمون أنها نبيلة، ولكنها لا تنكشف دائماً إلا عن سعى لبسط نفوذ سياسى استعمارى.

ولقد استغل المبشرون كل شىء فى سبيل التنصير، أو محاولة التنصير حتى الممرضات، فالمبشرون يرون أن الممرضة لا تعمل على تخفيف الألم عن المرضى فقط، بل تحمل إليهم أيضاً رسالة المسيح، ولذلك حرص المبشرون على إنشاء مدارس للتمريض فى إيران خاصة(١).

وأذكّر القارىء بأن المسلمين هم المستهدفون بهذا، لا الوثنيون أو اللادينيون، فالمبشرون لا يهمهم أن يخرجوا الوثنى من عبادة الأوثان إلى اعتناق المسيحية، أو إحلال المسيحية فى قلبه محل الإلحاد، ولكن صيدهم المنشود هو «المسلم»، فإذا لم يتمكنوا من تنصيره، فعليهم «تخريبه من الداخل» بالفصل بينه وبين الإسلام، وتدمير أخلاقه ومثالياته، ففى مؤتمر عقد بأندونيسيا سنة ١٩٦٧ بين ممثلى الطوائف الدينية دار النقاش حول اقتراح عرضه الجنرال سوهارتو رئيس الجمهورية بالوكالة فى افتتاح المؤتمر، وخلاصة الاقتراح:

أ - الامتناع عن مباشرة التبشير تجاه أتباع أحد الأديان المعترف بها فى أندونيسيا، وخصوصاً إذا كانت هذه الممارسة تتسم بشبهة من القسر والإكراه، وباستخدام وسائل الإغراء والإغواء أمام العوز والفاقة والحاجة، فقد ثبت أن التبشير مع المسلمين قد أحدث رد فعل بلغ فى بعض الأحيان حدا من العنف يخشى معه أن يتطور إلى مشاكل بل كوارث قومية.

ب - إذا كان لابد من الاستمرار فى التبشير، فليوجه إلى المجتمعات البدائية التى لاتزال تعج بها المناطق الداخلية فى كاليمنتان وإيريان.

وقد أبدى المسلمون وممثلوهم فى المؤتمر موافقتهم التامة إزاء هذا المقترح رغبة منهم فى إشاعة جو الهدوء والأمن والنظام والسلام فى أرض الوطن... ولكن النصارى -بروتستانت وكاثوليك - اتخذوا - بطريقة شبه إجماعية - موقفاً سلبياً يهدف إلى

---

(١) عن خالدى وفروخ ٦٤.

رفض المقترح.. وحجتهم الكبرى هى أن التبشير أمر إلهى ليس بمقدور البشر رفضه، وأن المسيحيين مطالبون بأن يكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، ولذلك فإنهم مضطرون للقيام بهذا الواجب، ومستعدون للبذل والفداء من أجله.

وكانوا يبذلون كل جهد لإقناع غيرهم بأن هذا الواجب الدينى واجب التنفيذ، ولا يتورعون عن استخدام كل السبل لتبرير موقفهم هذا، وإقناع الآخرين به(١).

******

(١) أبو هلال الأندونيسى: مرجع سبق ٥٢ - ٥٣، وانظر كذلك ٥٩.

٢ - التعليـــم

لا يستطيع أحد أن ينكر قيمة التعليم وآثاره فى العقول، وبناء الشخصية، والنهوض بالمجتمعات، وتربية الأجيال، ولكن المؤسف أن أعداء الإسلام من المبشرين وأصحاب المذاهب الهدامة اتخذوا من التعليم وسيلة من وسائلهم الفعالة المثلى لتحقيق أهدافهم.
وفاعلية التعليم ترجع إلى عدة اعتبارات، أهمها:

١ - أن التعليم فى ظاهره - على الأقل - عملية حضارية لتثقيف العقول، ونشل النفوس من ظلمات الجهل والتخلف والضياع.. ومن ثم لا يكون هدفاً للنقد، أو المنع، أو التعويق.

٢ - أن التعليم بسبب المساحة الزمنية التى يستغرقها - وهى تمتد إلى ثلاث أو أربع سنوات فى كل مرحلة - يمثل مجالاً خصيباً جداً للتقبل، والتشبع، والتطبع العقدى، فداخل أسوار المدرسة أو الجامعة يمكن أن يقال «كل شيء»، ويمكن أن يُلَقَّن «أى شيء» اعتماداً على برنامج مدروس، وموضوع مخطط بعناية فائقة حتى يؤتى ثماره المرجوة، ونتائجه المنشودة[1].

ويؤكد هذا المستشرق المبشر **«هوارد بلس»** الرئيس الأسبق للجامعة الأمريكية فى بيروت، فيبين فى جلاء ووضوح عن سر اهتمام المنصرين والصليبيين بالتعليم وتبنيهم المؤسسات التربوية، فيرى **أن الفائدة الرئيسية التى تقدمها الكلية للمنصر (المبشر) حقل غنى لنشاطاته**... هى فى الحقيقة أن بدائرته جسماً مختاراً من الشباب قادة المستقبل فى بلادهم، ينفردون بالاستجابة لفكر جديد فى الأخلاق والدين والمثل.

والجامعة توفر مناخاً نفسياً لا يستطيع واحد الإفلات من تأثيره، والطالب لا يعى حقاً التغييرات الحاصلة دائماً فى داخله، وقد ينكر بكل نية حسنة أنه يتأثر تأثراً شديداً بمحيطه، وثمرة هذه البذرة قد لا تأتى إلا بعد مدة طويلة من مغادرة الطالب للكلية.. ولكن مبشرنا يسعى إلى أمور محددة أكثر من هذه التأثيرات الحاصلة بطريقة لا شعورية، فبين آلاف الطلاب - وكلهم يستحقون التربية - فئة صغيرة من المتحمسين الجادين..

---

(١) جابر قميحة: آثار التبشير والاستشراق ٤٣ - ٤٤.

قادة المستقبل فى الشرق الأدنى، هؤلاء هم الذين يدربهم مبشرنا ليصبحوا أساتذة، وأطباء، وتجاراً، وصيادلة، وأطباء أسنان، ومهندسين، وممرضين من الرجال والنساء الذين يتجاوبون بوعى أكثر، واستعداد أكبر من باقى زملائهم مع المناخ النفسى للكلية، وهم يحضّرون بطريقة محددة، ليصبحوا مراكز الأضواء والقيادة فى كل هذه المنطقة(١).

فلا عجب إذن أن نجد الروس من أول غزوهم المنكود لأفغانستان ينقلون عشرات الآلاف من الأطفال والشباب الأفغانى إلى مدارس تلقى المبادىء الماركسية أكثر مما تمنح تعليماً أكاديمياً جاداً(٢).

وإذا نظرنا إلى المنح التى تمنحها الجامعات الإسلامية لأبناء المسلمين فى العالم، وجدناها لا تتعدى العشرات، بينما نجد دولة صغيرة مثل كوبا تمنح موزمبيق قبل أعوام قليلة أربعة آلاف منحة، لتتحول موزمبيق إلى دولة شيوعية فى أفريقيا، علماً بأن ميزانية كوبا لا تزيد على ميزانيات بعض بلديات المدن العربية الكبيرة(٣).

ونرى مستشرقاً هولندياً مثل: سنوك هُرْخرونيه SNOUEK HURGRONTE (١٨٥٧ - ١٩٣٦) يهاجم الشريعة الإسلامية، لأنه كان مؤمناً بأن الثقافة الأوربية لا يمكن أن تنتشل «الجهال المسلمين» إلا إذا تحرروا من «الدين الرجعى»، فشجع على فتح المدارس التبشيرية على أمل أن «المحمديين»، وعلى مدى الزمن يتحولون إلى النصرانية، لأن مئات الآلاف من السكان يتشوقون للتعليم، ومثل هذه المدارس التبشيرية التى تنشأ على النمط الأوربى هى الوسيلة الوحيدة من وجهة نظره لتحقيق حلمه(٤).

* * *

وكان تركيز حركات التبشير على أفريقيا بصفة خاصة، لأنها القارة المظلمة أو السوداء كما يطلقون عليها، والوثنية فيها أكثر انتشاراً من غيرها، واستجابة الوثنى

---

(١) عن مقال للدكتور نبيل صبحى بعنوان: تخريب منظم لعقول الناشئة فى المجتمعات الإسلامية، مجلة الأمة القطرية العدد ٥٠ السنة الخامسة - نوفمبر ١٩٨٤.

(٢) انظر مجلة الأمة ص ٦٥ العدد ٦٦ - السنة ٦ فبراير ١٩٨٦.

(٣) عباس المحجوب: فى العمل الإسلامى الرسمى (مقال) - مرجع سبق.

(٤) د. قاسم السامرائى: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ١٣٤.

للتبشير أسهل - ولاشك - من استجابة المسلم، فالوثنى ليس صاحب عقيدة لها منطقها القوى الذى يدفع به عقيدة أخرى، أو يغلق نفسه عنها، إنه فى نظر المبشرين إنسان جاهز أو مفرغ من الداخل، واستعداده لتقبل النصرانية قد يكون أكبر بكثير من استعداد غيره، وهذا لا يعنى أن المبشرين يؤمنون بجدوى التعليم كوسيلة لأداء رسالتهم التبشيرية فى أوساط الوثنيين فحسب، بل إن لهم مدارسهم التى تعد بالمئات - إن لم تكن بالألوف- فى عشرات من المدن الإسلامية(١).

ومن الإحصائيات الصارخة أن عدد المعاهد التعليمية التى أنشأها المبشرون فى أفريقيا يبلغ ١٦٦٧١ معهداً، أما الكليات والجامعات فتبلغ ٥٠٠ كلية وجامعة، ويبلغ عدد المدارس اللاهوتية لتخريج القسس والرهبان والمبشرين ٤٨٩ مدرسة، أما رياض الأطفال فيتجاوز عددها ١١١٣ روضة.

ويبلغ عدد أبناء المسلمين فى هذه المؤسسات والمعاهد والذين يخضعون لهؤلاء المبشرين أكثر من خمسة ملايين(٢).

وفى بلد مثل أوغنده نجد أن هناك ٥٥ مدرسة ثانوية تديرها الكنيسة إدارة مباشرة، بينما لا يدير المسلمون سوى خمس مدارس فقط.

وفى تنزانيا هناك ٢٤ مدرسة ثانوية تابعة للكنيسة، أما المسلمون فلديهم ثلاث مدارس لا غير،... وفى جامعة دار السلام لا يتجاوز عدد الطلاب المسلمين مائة طالب، بينما يقدر عدد طلاب الجامعة بثلاثة آلاف طالب(٣).

واتجه الاستعمار إلى مؤسسات التعليم فأعطاها للكنيسة والإرساليات، فالاستعمار البرتغالى مثلاً عقد فى عام ١٩٤٠ اتفاقية مع الفاتيكان، أصبح الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية بموجبها يسيطران على التعليم كله فى موزمبيق.

والأمر نفسه حصل فى جنوبى السودان، ففى سنة ١٩٠٤ عندما زار **«ونجت باشا»**

---

(١) قميحة: آثار التبشير والاستشراق ٤٤، وهذا لا ينفى اتجاهاً آخر لكثير من المبشرين يفضلون فيه التبشير بين المسلمين مستغلين فقرهم وعوزهم كما رأينا فى أندونيسيا...

(٢) يوسف العظم: أين محاضن الجيل المسلم ٣٤ - ٣٥.

(٣) د. الطيب زين العابدين: محاضرة بعنوان «مستقبل الإسلام فى أفريقيا».. نشرت بالعدد ٦٥ - السنة السادسة من مجلة الأمة القطرية.

حاكم السودان العام مدينة «واو» التى تعتبر عاصمة إقليم «بحر الغزال» فى الجنوب، توقف عند مدرسة «واو» الابتدائية، وكتب تقريراً **ضمّنه الملاحظات الآتية**:

«لقد لاحظت فى زيارتى للمدرسة تعدد الجنسيات فيها - أى القبائل - وكذلك الدين، وأن الطلبة كلهم يتكلمون العربية إلى جانب اللهجات المحلية، ومعنى ذلك أنهم سيعتنقون الإسلام، ولاشك أنهم اعتنقوه بعد دخولهم المدرسة، وإذا استمر الحال على هذا المنوال فسوف تخرج المدرسة تلاميذ يتحدثون العربية، ويدينون بالإسلام، ولا يحسنون لغتنا، وهذا أمر مرفوض تماماً». وأمر بإغلاق المدرسة(١).

* * *

ولاشك أن غياب الوعى الإسلامى الصحيح وضعف القيادات العلمية الإسلامية عن بيان حقيقة الإسلام وأثره، واستمرار غلق باب الاجتهاد لعب دوراً بارزاً فى إحداث الفراغ الذى ملأه أعداء الإسلام مستغلين التعليم أعظم استغلال... وإلى هذه الخطورة أشار الشاعر «أكبر الإله آبادى» بقوله: يا لبلادة فرعون الذى لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات، وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد ولو فعل ذلك لم يلحقه العار وسوء الأحدوثة فى التاريخ(٢).

ولكن الذى فات فرعون موسى لم يفت فراعنة المبشرين فى العصر الحديث، وللأسف كانت مساهمة المسلمين - بالوعى أو باللاوعى - عاملاً قوياً فى تمكين هؤلاء من أداء رسالتهم الشيطانية فى نخاع الدول الإسلامية. وتلطمنا إحصائية أشد وأنكى مما قدمنا، ومسرحها (باكستان المسلمة)، وخلاصتها: أن أغلبية الطلبة فى المدارس التبشيرية من المسلمين، إذ تزيد نسبتهم على ٨٥٪ من عدد الطلاب. وتفصيل هذه الحقيقة المذهلة يقول: إن مدرسة القديس «باتريك» فى كراتشى فيها ٢٥٠٠ طالب، منهم ٢١٠٠ مسلم، ومدرسة «القديس يوسف» فيها ٢٢٠٠ طالب، منهم ٢١٠٠ مسلم، ومدرسة «القديس لورانس» فيها ١٢٠٠ طالب، منهم ١٠٥٠ من المسلمين، وفى مدرسة «القديس جوز» ١٠٠٠ طالب، كلهم مسلمون، ومدرسة «المسيح الملك» بها ألف طالب، منهم ٧٠٠ مسلم، ومدرسة «القديس جون» فيها ٩٠٠ طالب، منهم ٧٠٠

(١) د. زين العابدين: السابق ٦٥.

(٢) د. أكرم ضياء العمرى: التراث والمعاصرة ١٠١، وانظر كذلك ص ١٩.

مسلم، أما مدرسة «القديس بونا» فى حيدر آباد ففيها ١٦٠٠ طالب، منهم ١٥٦٠ من المسلمين، وفى مدرسة «القديسة مارى» فى حيدر آباد أيضاً ١٦٩٧ طالباً، منهم ١٥٥٨ من المسلمين(١).

وزيادة على ذلك تمارس الهيئات التبشرية فى باكستان أساليب أخرى فى كبريات المدن مثل «كراتشى»، و«لاهور»، وهو ما يمكن أن نسميه بغزو المطبوعات، حيث يباع فى الشوارع، والحارات، والمنازل، والمدارس، ووسائل المواصلات «كيس بلاستيك» فاخر بداخله عشرة كتب، وحتى يقبل المسلمون على شراء هذه المجموعة الفاخرة جعلوا الكتابين الموضوعين فى أعلى الكيس وأسفله لهما عنوان يشبه «النموذج الإسلامى»، أو على الأقل لا يوحى بالفكر المسيحى، مثل «الإيمان والعمل»، و«زهور المعرفة»، وثمن المجموعة روبية واحدة (ما يساوى عشرة قروش مصرية)، فإذا ما اشترى المسلم هذه الكتب على أمل أن يجد فيها ما توحى بها عناوينها الظاهرة وجد أن بقية الكتب أناجيل، واقتباسات من التوراة وغير ذلك من الكتب المسيحية(٢).

* * *

أما المقررات المدرسية والجامعية فتعتمد على كتب تفيض بالأباطيل، وتشويه صورة الإسلام والنبى ﷺ وأصحابه، فمن هذه الكتب المقررة كتاب باسم «البحث عن الدين الحقيقى» تأليف المنسنيور كولى، وقد نال هذا الكتاب المقرر على الطلاب رضا البابا ليون الثالث عشر، ونعرض بعض ما جاء فى صفحة واحدة منه، ولتكن ص ٢٢٠:

«فى القرن السابع للميلاد برز فى الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذى أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب. لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات»(٣).

وكتاب آخر يدرس فى الصف الرابع من المدرسة البطريركية فى بيروت، ومدارس أخرى، وهو مطبوع فى لبنان.

(١) عن مجلة (العالم) العدد ٧٧ السنة الثانية – السبت ٣/٨/١٩٨٥.

(٢) المرجع السابق، وانظر قميحة: مرجع سابق ٤٥ – ٤٦.

(٣) عن خالدى وفروخ: مرجع سبق ٧٣.

ومما جاء فيه من الأباطيل:

ص٣١: واتفق لمحمد في أثناء رحلاته أن يعرف شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولاً.

ص ٣٢: والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها، بينما كان هو يتكلم، وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة.

ص ٣٦: وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل.

ص ١٢٦: ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد(١).

* * *

وفي نفس المجال - استغلال التعليم كآلية من آليات أعداء الإسلام لمصلحتهم، وتخريب العقول، والمثاليات الإسلامية - نواجه معروضاً ماسونياً روتارياً جديداً اسمه بعثات السلام، وقد أعلنت عنه مجلة الروتاري(٢):

منحة من جورجيا لطالبة من مصر:

وجه الروتاريون في ولاية جورجيا الأمريكية الدعوة إلى الروتاريين في مصر، لإيفاد أحد الطلاب للدراسة في منحة لمدة سنة هناك.

وتقدم هذه المنحة من أجل تدعيم التفاهم الدولي والسلام بين الشعوب عن طريق التعارف.

وتقوم أندية الروتاري في المنطقتين (٦٩٠)، (٦٩٢) بتمويل هذا المشروع الناجح الذي أقره الروتاري الدولي منذ ٢٥ سنة، وأفاد منه حتى الآن أكثر من ألف طالب من مختلف أنحاء العالم (ا. هـ).

وتوالت الإعلانات في الصحف المصرية، وأُوفدت أعداد كبيرة إلى هذه البعثات. وثمة ملاحظات تتعلق بهذه البعثات يضعها موضع الشبهة والاتهام:

(١) عن خالدي وفروخ: السابق ٧٤، وانظر أمثلة أخرى ٧٥ - ٧٦.

(٢) العدد ٢٩٢ سبتمبر - أكتوبر ١٩٨٠ (عن كتاب أبي إسلام أحمد عبد الله: الماسونية في المنطقة ٢٤٥، ص ١٤١).

١ – حدد الروتاريون الهدف الأساسى من هذه البعثات، وهو: تدعيم التفاهم الدولى، والسلام بين الشعوب عن طريق التعارف.

٢ – نص الإعلان عن هذه المنح بأنها لا تستهدف الحصول على درجات علمية للموفدين.

٣ – الإعلان المنشور اشتمل على ثلاثة رموز ماسونية هى:

أ – رسم اليدين المتصافحتين.

ب – السنبلة.

جـ – رأس إنسان بشكل شمس مشعة.

ولا تفسير لاشتمال الإعلان على هذه الثلاثية الماسونية، إلا أن ثلاث جمعيات مختلفة من جمعيات الماسونية لكل واحدة منها شعار من الثلاثة اتفقت فيما بينها متعاونة على تنظيم هذه المنح، والإنفاق عليها(١).

وإمعاناً فى ارتباط هذا الكارتل (الاتحاد) الماسونى بإدارة البعثات والتمثيل الثقافى المصرى حرص المعلنون على أن تكتب حروف كل من البلدين [مصر .A. R. E وأمريكا .U. S. A] على كلتا الكفين المتصافحتين(٢).

إن منح السلام الروتارية تتمثل فى عملية غسيل المخ التى يتعرض لها المرشح لهذه المنح، والتى لا تستهدف الحصول على درجات علمية، إنما هى فقط تدريب وتربية كوادر شابة، تستطيع النهوض برسالة الروتارى(٣).

* * *

وإذا نظرنا إلى الأجناس الأدبية من شعر ونثر، وجدناها من قديم توظف فى الدعوة إلى الأديان، والمذاهب الدينية، والقومية، والسياسية، كل هذا معروف، ومسلم به، ولكن هناك «وعاءً لغوياً معرفياً»، هو «المعجم» يدخل بداهة فى مجال التأليف العلمى الذى يلتزم الحياد من جهة، وصحة المادة المعروضة من جهة ثانية، ودقة الأداء والتعبير عن

(١) أبو إسلام: مرجع سبق ١٤٨.

(٢) السابق الصفحة نفسها.

(٣) السابق ١٤٥.

المعروض من ناحية ثالثة، بعيداً عن الانطباعات العاطفية، والحماسة الدينية، والدعاية المذهبية، ولكننا وجدنا معجماً حديثاً ضخماً له شهرة واسعة هو «المنجد»، لم يلتزم بهذه البدهيات.

و «المنجد» معجم وضعه عام ١٩٠٨ راهب نصرانى هو الأب لويس معلوف اليسوعى، ووضع قسم الإعلان منه راهب نصرانى آخر هو الأب «فرنافد تول» اليسوعى، وطبعته المطبعة الكاثوليكية، وأغلب الذين قاموا على تحرير مواده اللغوية والعلمية من النصارى، مثل كرم البستانى، والأب اليسوعى بولس موترد، وعادل أنبوبا، وأنطوان نعمة، وبولس براورز، وسليم دكاش، وميشال مراد، وغيرهم.

ولا اعتراض على ذلك، ولكن الاعتراض على أنه اتجه اتجاهاً نصرانياً حاداً، يقترب من الخط التبشيرى، «فهو معجم نصرانى، وهو من ثمة يمثل الرأى النصرانى، ويعكس المشاعر النصرانية، ويعطى الصدارة دائماً لكل ما هو نصرانى، ومع ذلك تجد هذا المعجم فى مئات الألوف من البيوت المسلمة، وأصحابها فى الغالب لا يعرفون مدى السم الكفرى المراق فيه»(١).

وقد تعقب الدكتور إبراهيم عوض، هذا المعجم وكشف عما فيه من طوابع تبشيرية، نصرانية، جاءت أحياناً على حساب الحقائق العلمية، وأحياناً على حساب الدين الإسلامى، وفى ذلك ما فيه من التزييف، والخداع، والتضليل. ونعرض فى السطور الآتية بعض ما عرضه الباحث الكريم من مآخذ:

١ - فهو يغفل البسملة، ولا يصف القرآن بالكريم، كما يصف «الكتاب» بالمقدس، ولا يشير نهائياً إلى الأحاديث النبوية، أو السيرة النبوية(٢).

٢ - ولم يعتبر أيوب، وسليمان، وداود، ونوحاً، ولوطاً أنبياءً، بينما يعتبر لقمان نبياً، على عكس ما يرى القرآن(٣).

٣ - ويصف نشيد الأناشيد بأنه سفر يتغنى بالحب والجمال فى نزعة صوفية(٤).

---

(١) د. إبراهيم عوض: النزعة النصرانية فى قاموس المنجد ١٠.

(٢) انظر السابق ١٠ - ١٣.

(٣) انظر السابق ١٨ - ١٩.

(٤) انظر السابق ٢١.

مع أنه نص من الغزل الحسى الفاحش، لا يمكن أن يكون من عند الله، أو جاء على لسان نبى.

٤ – ويتحدث عن الأخطل الشاعر الأموى بأنه: ذو الصليب الأخطل الشاعر النصرانى، مع أنه لقب غير معروف للأخطل(١).

٥ – ومن كفرياته قوله فى مادة (جسد) سر التجسد، سر اتخاذ السيد المسيح كلمة الله طبيعته البشرية، يقصد أن له عليه السلام طبيعتين: طبيعة إلهية، وطبيعة بشرية بعد تجسده ونزوله من علياء ألوهيته، ليولد من رحم مريم عليها السلام، ويتعذب، ويموت على الصليب، وبذلك يتم فداؤه البشر من خطيئة أبيهم آدم (أستغفر الله)(٢).

٦ – وهو يشرح المصطلحات الدينية بمفهومها النصرانى، مسقطاً من حسابه مفهومها فى الإسلام، وكأن هذا المعجم اللغوى العربى صنع للنصارى فقط(٣).

* * *

وفى مقام التعريف بالشخصيات نكتفى بمثال واحد وليكن نوبار باشا، يكتب عنه المنجد «سياسى مصرى أرمنى الأصل، عمل على تحرير بلاده من السيطرة العثمانية، وسعى فى شق ترعة السويس، وفى تنظيم القضاء».

والمعروف تاريخياً أنه أجنبى نصرانى، كان عميلاً للاستعمار الإنجليزى، وتولى رياسة الوزارة فى حقبة سوداء من تاريخ مصر(٤).

* * *

وبصمات العلمانية فى التعليم أوضح من أن نتوقف عندها طويلاً، والفاعل الأصيل هنا ليس مستشرقاً ولا مبشراً، ولا أجنبياً، بل مسلم من جلدتنا، ويتكلم لساننا، ولكنه ينفذ – بالوعى، أو باللاوعى، بالإرادة «الحرة»، أو «بالتسيير الفوقى»، أو تأثراً بالجو

---

(١) د. إبراهيم عوض: النزعة النصرانية فى قاموس المنجد ٢٦.

(٢) السابق ٢٦.

(٣) انظر السابق ٢٩ – ٣١.

(٤) السابق ٤٤.

« المكروب السائد » – سياسة تعليمية تكاد تدور فى فلك السياسات التبشيرية . والمجال يتسع لكلام كثير جداً، ولكنى أجتزئ بالإيجاز عن التفصيل :

١ – مادة التربية الدينية لا يختلف اثنان على أهميتها معرفياً، وتربوياً، وسلوكياً على مستوى الفرد، والأسرة، والمجتمع . . ونبحث عن « موقع هذه المادة فى مناهج جمهورية مصر العربية »(٤)، فنجد أن جهوداً صادقة نجحت فى اعتبار التربية الدينية « مادة أساسية » وأنها مادة نجاح ورسوب، ولكن لا تضاف لمجموع الدرجات فى الشهادات العامة، كالتاريخ، والجغرافيا، والكيمياء، والطبيعة، والرياضيات . . . فما قيمة « الأساسية » هنا؟ وقد كان لكاتب هذه السطور مناقشات طويلة مع « كبارِ مسئولين »، وفى حوار مفتوح طرحتُ السؤال التالى :

لماذا لا تطبق «الأساسية» على مادة التربية الدينية بمفهومها الدقيق؟ ومن مستلزمات ذلك إضافة درجة التربية الدينية على مجموع الدرجات فى سنوات النقل، والشهادات العامة حتى يشعر الطلاب بجدية وصف (الأساسية) التى توصف به المادة، وحتى يشعر الطلاب بأن وراء مجهودهم المبذول عطاء منصفاً، يرجح كفتهم إن صدقوا فى بذل هذا المجهود .

وكان الجواب – أو الاعتذار – غريباً وخلاصته :

١ – أن « أساسية » مادة الدين الإسلامى لا تتمثل فى درجة تمنح، ولكن فى تركيز الأساتذة على السلوكيات، والجوانب العملية فى نطاق المدرسة، بحيث يكون المدرس رافداً دينياً لطلابه .

٢ – لو أضيفت الدرجة إلى المجموع لتفوق الطلاب الأقباط على المسلمين، لحصولهم على درجات أعلى، وذلك لتعاطف الأساتذة الأقباط – الذين يقدرون الدرجات – مع أبناء دينهم، زيادة على السهولة المفرطة التى يتسم بها مقرر التربية الدينية المسيحية .

---

(١) اخترت مصر مثالاً لخبرتى بها أكثر من غيرها وقد عايشت مشكلات هذه المادة عن كثب معلماً وموجهاً .

وهما دليلان أو دفاعان لا يصمدان أمام النقد:

١ – فتمثل الدين فى السلوكيات العملية لا يتعارض، ولا يمنع من تقدير درجة لها قيمتها، تضاف إلى مجموع درجات الطالب، وليكن جزء من هذه الدرجة (ربعها مثلاً) على سلوكيات الطالب فى المدرسة.

٢ – وأما الدفاع الثانى فيمثل تأثراً صامتاً أو استجابة غير مباشرة لما يحرص العلمانيون، والمستشرقون، والمبشرون عليه من عزل ديننا بمفاهيمه الحية عن واقع حياتنا، واستهانة الطلاب والشباب به علماً وقيماً.

٣ – وحتى لو صح الدليل الثانى – وهو مجرد احتمال – فإنى على يقين من أنه لن يتحقق إلا لعام واحد، وامتحان واحد، وبعدها يكون الطلاب المسلمون على يقين من أن هناك جدية فى تقدير درجاتهم، فيأخذون المسألة مأخذ الجد والاهتمام.. إن لم يكن بدافع عاطفة دينية قوية، فبدافع الحرص على تحصيل درجة قيمة تضاف إلى مجموعهم.

٤ – وأخيراً لن يعدم المسئولون من رجال التعليم الأقباط من يتابع، ويراجع تقدير درجات الطلاب الأقباط بنزاهة وجدية بعيداً عن المجاملة والمحاباة، وخصوصاً إذا وضعت قواعد، وضوابط صارمة، يكون من الصعب تخطيها ومخالفتها(١).

---

(١) انظر جابر قميحة «آثار التبشير والاستشراق ٧٣ – ٧٨»، وخصوصاً الصفحتين الأخيرتين، هذا وقد استغل عتاة العلمانيين الأحداث الدامية التى وقعت على أيدى بعض الشباب المتطرفين دينياً فى مصر فدعوا إلى ما أسموه «بتجفيف المنابع» ويعنون بها أن يحذف من المقررات الدراسية ما يدعو «إلى التهييج والفتنة»، كآيات الجهاد، وموقف رسول الله ﷺ من اليهود.. إلخ، وللأسف وجدت هذه الأصوات المنكرة استجابة من كثيرين.

٣ - التلفيق الدينى.. والإسلام العيسوى!!

على الرغم من القدرات، والإمكانات المادية والسياسية الهائلة فى مجال التبشير إذا قيست بإمكانات الدعوة إلى الإسلام فإن النتائج التى حققها هؤلاء المبشرون – فى أفريقيا بصفة خاصة – تعد متواضعة جداً، ولا تتفق مع قدر هذه الإمكانات، وهذه الظاهرة عللها بعض الغربيين بأن المبشرين بالنصرانية لا يريدون نصارى من السود يساوونهم فى المنزلة، ولكنهم يريدون أشخاصاً يستتبعونهم فى استغلال البلاد التى يبشرون فيها، وهذا أمر ظاهر من مقارنة حال الذين يسلمون بحال الذين يتنصرون، وفى ذلك يقول وسترمان Wester man فيما كتبه عن الإسلام فى غرب السودان ووسطه Islam in the west and central Sudan :

حينما يعتنق الزنجى الإسلام فإنه يصبح حالاً عضواً فى هيئة اجتماعية أعلى (من تلك التى كان فيها من قبل)، ثم هو يبلغ بسرعة إلى الشعور بالثقة بنفسه، وإلى الشعور بمقامه، كما يشعر بأنه قد أصبح عضواً فى منظمة منتشرة حول العالم كله، وكذلك تنشأ له صلات واضحة المعالم بالأوربيين أنفسهم.

إن الزنجى الذى كان يعيش فى الأدغال محتقراً يصبح بالإسلام ذا مقام، ويجد أن الأوربيين أنفسهم قد جعلوا – على الرغم منهم – يعاملونه باحترام، أما إذا انتقل الوثنى والزنجى إلى الجماعة المسيحية، أى إذا صبأ إلى النصرانية، فالذى يحدث هو خلاف ذلك تماماً، إننا نحن الأوربيين نبقى غرباء عن الأفريقى، وحينما هو يتبنى حضارتنا فى ظاهرها، فإنه فى الحقيقة لا يفهمها، إننا لم نتعلم بعد – ولا المبشرون منا أيضاً – أن نتفهم الزنجى فى خصائصه المميزة له... وهكذا تجدنا معرضين إلى أن نجعل من الزنجى صورة شوهاء للأوربى، بينما **الإسلام يجعل منه أفريقيا يحترم نفسه**.

وفوق ذلك لا نجد الزنجى المتمدين بالمدنية الأوربية يبلغ تلك المساواة الاجتماعية التى يبلغه إياها الإسلام بطبيعة الحال، ثم إن هناك نفراً من الأوربيين قلما كلفوا أنفسهم عناء فى إخفاء حقيقة عندهم هى: أن الزنجى المسيحى لايزال محتقراً فى أعينهم كالزنجى الذى يسكن الأدغال، كما أنه ليس من النادر أن ترى هؤلاء ينتهزون كل فرصة يظهرون فيها تفضيلهم للسود المسلمين (على السود المتنصرين).

تلك الحقيقة وحدها تفسر لنا بكل وضوح واقعاً هو أن الأفريقيين الذين تلقوا فى المرة الأخيرة تعليماً مسيحياً قد انقلبوا دعاة للإسلام، **وبما أن الأفريقيين لا يأملون أبداً أن ينالوا (بالنصرانية) مقاماً اجتماعياً مساوياً لمقام إخوانهم فى العقيدة من النصارى الأوربيين، فقد نشأ فيهم استعداد لأن يروا فى الإسلام الدين الوحيد للأفريقى الحديث**[1].

وما كتبه «**وسترمان**» يخلص بنا إلى عدة حقائق بعضها صريح، وبعضها قد يغيب عن الذهن، ولكن غيابه لا ينفي وجوده، **وتتلخص هذه الحقائق فيما يأتى**:

١ – أن قوى التبشير فى أفريقيا بصفة خاصة لم يتحقق لها من النتائج ما هو منشود على مستوى العالم المسيحى، وما يتفق مع الإمكانات والموارد المرصودة لهذا الغرض.

٢ – أن هذا الإخفاق – حتى لو كان جزئياً – لا ينفى نجاحات أخرى حققت فى القارة الأفريقية أو غيرها بالوسائل التى عرضناها، وهى الإحسان، والمعونات، والتطبيب، والتعليم.

٣ – أن عقدة الاستعلاء الأوربى التى تهيمن على المبشر الغربى – وهى ذات جذور استعمارية – من أهم أسباب هذا الإخفاق، وعكس هذه الطوابع كفل النجاح للدعوة الإسلامية بين السود والزنوج.

٤ – ويترتب على هذين الحالين شعور «زنجى الإسلام» بالارتفاع إلى مقام أعلى، والاندماج مع من أخذوا بيده إلى الإسلام، وهذا مالا يجده الزنجى أو الوثنى المتنصر عند المبشرين.

٥ – لم يراع المبشرون الطبيعة النفسية، والمزاج الشخصى وخصائصه المميزة، وهم يحاولون «تمدينه» أو «تحضيره»، وكانت النتيجة أنه لم يتبن من الحضارة الأوربية إلا ظاهرها وقشورها، لأنه لم يفهمها، لأن الداعين إليها يظلون غرباء عن نفسية الزنجى بإقامة حواجز الاستعلاء النفسى، ومن ثم تفرز «الدعوة التنصيرية» «زنجياً أوربياً ممسوخاً»، وتفرز الدعوة الإسلامية «أفريقياً يحترم ذاته».

---

(١) عن خالدي وفروخ: مرجع سبق ٢٤٤ – ٢٤٥.

٦ - وهذه السياسة التبشيرية تقود منطقياً وعملياً إلى خدمة الدعوة الإسلامية، وانتشار الإسلام، لا على أيدى الدعاة المسلمين فحسب، بل على أيدى السود الذين تلقوا تعليماً مسيحياً، وأُعدوا للتبشير، بعد أن فقدوا الأمل فى الارتفاع إلى مقام إخوانهم فى العقيدة من الأوربيين.

* * *

وهذا الواقع هو الذى دفع القوى والمنظمات التنصيرية إلى تطوير أسلوبها فى التنصير، وخصوصاً بين المسلمين اقتناعاً بفكرة أساسية ميدانية، وصل إليها المنصر «**دون باكرى**» **بأن أكبر عقبة تواجه عملية تنصير المسلمين هى عدم وجود كنيسة خاصة بالمتحولين عن الإسلام ممن قبلوا الرسالة النصرانية، أى كنيسة تلائم تقاليدهم الثقافية والاجتماعية.**

وحرصاً على تطوير أسلوب التبشير مع مراعاة الحقيقة السابقة عقد **مؤتمر فى مدينة جلين آيرى بولاية كولورادو فى الولايات المتحدة الأمريكية فى مايو سنة ١٩٧٨**، وقد أعد للمؤتمر إعداداً جاداً، وقامت **منظمة التصور الدولية بواسطة مركز الاتصالات والدراسات المتقدمة لإرساليات التنصير التابع لها** بتوفير مكاتب للمؤتمر، وموظفين لإدارته، كما قدمت الدعم المالى السخى لإنجاح هذا المشروع.

وقامت اللجنة بتوزيع أربعين بحثاً أساسياً، واشترك فيه ١٥٠ شخصية من النوعيات المتميزة التى تمثل شتى المذاهب والدراسات، وقد اجتمعوا على صعيد واحد، يربطهم هدف واحد، هو البحث عن أنجح السبل لتنصير ٧٢٠ مليون مسلم.

يقول رئيس منظمة التصور العالمى و. ستانلى مونيهام، وهى المنظمة التى تبنت المؤتمر:

تشرح الأبحاث الأساسية للمؤتمر، وكلمات الخطباء، وتقارير قوى التنصير العالمية، فضلاً عن تقرير المؤتمر حاجات المسلمين، وتقصير الكنيسة، والفرص المثيرة للتنصير التى تواجه الكنائس وإرساليات التنصير فى الوقت الحاضر، فالعالم الإسلامى يمر اليوم بحالة من التمزق الاجتماعى والسياسى، ولذلك يوجد لدى المسلمين اليوم استعداد قلبى وعقلى لتقبل رسالة المسيح.

كما توجد هناك بعض الشعوب الإسلامية التى يصعب الوصول إليها، ولذلك يجب على الكنيسة أن تبتعد عن الأساليب غير المثمرة، وتسلك طرقاً ثقافية ملائمة من أجل تقديم عيسى المسيح بكل إخلاص وقوة إلى المسلمين.

إن الأعمال التى يجب على الكنيسة القيام بها متعددة:

١ – لابد أن يجد الإنجيل طريقه إلى الملايين بين المسلمين.

٢ – يجب على القائمين على التنصير أن يتخلوا عن الإحساس المتبلد، واللامبالاة، والتعصب للتقاليد البالية، وسبل التنصير الفاشلة.

٣ – يجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بحزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.

٤ – يجب على المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية، وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً بروح تامة من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك[١].

* * *

ولا يتسع المقام لاستعراض بحوث المؤتمر، ولكننا نقف وقفة مع واحد من أخطرها إن لم يكن أخطرها جميعاً – وهو الذى قدمه **دونالدر. ريكاردر بعنوان «تطوير وسائل جديدة لتساعد فى تنصير المسلمين»**[٢]. وفيه يعرض بعض الوسائل الجديدة لتنصير المسلمين، منها: حلقات الدراسة بالمراسلة، والإذاعة، وكذلك الاصطلاحات اللغوية... إلخ.

* * *

وأخطر ما فى البحث أنه فى سياق حديثه عن اللغة واصطلاحاتها الدينية يقترح أن يطلق على المسلمين الذين يعتنقون النصرانية (مسلمون عيسويون» وهذا له معنيان:

---

(١) التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى ٦ – ٧ من تصدير الكتاب وهو الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى مدينة جلين آيرى فى الولايات المتحدة ونشرته دار MARC بعنوان:
TheGospel and Islam. A1978 Compendium.

(٢) السابق ٦٠٣ – ٦٢٠.

أولا : أنهم استسلموا لعيسى.

ثانياً : أنهم مازالوا جزءاً من ثقافتهم ووطنهم.

فلا يمكن إنكار أن كلمة مسلم لها اليوم مدلول قومي وثقافي، ووطني، كما لها أيضاً مدلول تاريخي، ولاهوتي، فالمدلول التاريخي لكلمة المسيح « نصراني » تشوش تشويشاً كاملاً على هذا الموضوع؛ فقد ارتبط ذلك بالصليبيين، وشخصياتهم الشريرة. وباستخدام اصطلاح « مسلم – عيسوي » يمكن المحافظة على الثقافة، والولاء الجديد معاً.

كما أن كلمة « مسجد » هي الأخرى تثير المشاعر، ويجب أن يعالجها المنصرون.. لماذا لا نطلق على المكان الذي يلتقي فيه المسلمون العيسويون « مسجد عيسوي »؟ فربما قبل المسلمون في النهاية المسجد العيسوي، كفرع طبيعي ضمن الثقافة الإسلامية؟ ويمكن أن يمجد ربنا يسوع المسيح فوق المنبر في مسجد عيسوي، كما يمجد داخل مبنى يطلق عليه : الكنيسة المشيخية في « إسلام فيل »، فالإنجيل سيقوم بالإقناع بغض النظر عن اللافتة الموجودة على الباب.

ونحن لا نفكر هنا أبداً في إيجاد مكان لمحمد بجانب المسيح. وما أريد أن أقوله هو أنه إذا لم تنتهك مبادىء الكتاب المقدس إذن، فليس هناك ما تربحه من جراء طمس كل الاعتبارات الثقافية وإزالة البنية الاجتماعية للمسلمين العيسويين، والذي يؤدي إلى شعور بفراغ اجتماعي يؤدي إلى هروب عدد كبير من المتنصرين[1].

* * *

وعن الطقوس الدينية في المسجد العيسوي يقول الباحث : يجب المحافظة على أكبر قدر ممكن من الخلفية الثقافية، كي نساعد المسلم العيسوي على أن يشعر بأنه بتنصره وإيمانه بالمسيح فإنه لم يكن عليه أن يتنقل من ثقافته إلى ثقافة أجنبية غريبة عليه. وهذا العمل يتطلب منصراً من نوعية خاصة جداً للقيام به.

وحتى لا تكون هناك حواجز تعزل المسلم عن ثقافته يقترح الباحث :

١ – أن تترك الأحذية عند الباب في المسجد العيسوي (وليس هناك خسارة في القيام بذلك).

---

(١) التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي، ص ٦١٢.

٢ – أن تكون هناك أوضاع متعددة للصلاة العامة (والكتاب المقدس يسمح بالركوع، ورفع الأيدى) .

٣ – ألا تكون هناك مقاعد، وأن تستعمل حصائر للصلاة، إذا رغب المصلون بذلك(١) .

٤ – وليس من الضرورى أن يكون يوم العبادة الجمعى عند المسلمين العيسويين هو يوم الأحد، بل يوم الجمعة الذى تعتبره حكومات البلاد الإسلامية يوم العطلة الأسبوعية(٢) .

٥ – ويجب أن يجعل من شهر رمضان شهراً مليئاً بالعمل والنشاط والحيوية . . . فيجب أن يتم التخطيط لمؤتمرات، وندوات دراسية على امتداد الشهر لأعمار، وأجناس مختلفة . يجب أن يكون هذا الشهر شهر تركيز، واهتمام بالنسبة للمسلمين العيسويين إذ يقيمون الاحتفالات، والأفراح كما يفعل جيرانهم المسلمون المحمديون . .

أما مناسبات الزواج والميلاد، وحتى الجنائز فيمكن أن تكون عيسوية بعد إسقاط ظواهرها الوثنية، بحيث تظهر بالنسبة للمسلم الخارجى على جزء من الثقافة الوطنية(٣) .

ويختم الباحث بحثه برفض منطق بعض المنصرين الذين يريدون استمرار حالة حرب دائمة، فهم يودون مواجهة المسلم فى كل موقع من كيانه الثقافى، ويصرون على تطهيره بصورة كاملة من مجمل ثقافته مما ينتج عنه حصاد ضئيل، ويمكن أن ينظر إليه على أنه لا يمت إلى الإنجيل بصلة . . .

وارتكازا على تخطيطه يرى أنه من الممكن كسب المسلمين إلى النصرانية بأعداد كبيرة، والمحافظة على المسلم العيسوى فى إطار ثقافته، ورؤية كنيسة يسوع المسيح تنمو فى الأراضى الإسلامية .

---

(١) التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى، ص ٦١٣ .

(٢) انظر السابق ٦١٤ .

(٣) السابق ٦١٥ .

ولكن ذلك يتطلب قدراً كبيراً من الشجاعة، والقناعة، بالإضافة إلى كثير من التواضع للتخلص من فلسفة ومنهجية الماضى[١].

* * *

ومما يؤسف له أن هناك من العلمانيين من يتبنى مثل هذه الدعوة فى صورة مكشوفة مفضوحة، فنجد أحدهم[٢] يدعو إلى «الجامع الجامع»، وهو النقيض لمسجد المسلمين، ولا يمكن أن يكون إلا كذلك فهو مكان يريد «النيهوم» أن يجتمع فيه **«الناس المتفرقون بين المساجد، والكنائس، والمعابد فى جهاز إدارى موحد**. هذا الجامع - كما يقول النيهوم - لم تعرفه ثقافتنا العربية قط، لأنه انتهى قبل أن تولد، وتركها تنمو فى المساجد، لكى تصبح نصف ثقافة لغتها تقول شيئًا، وواقعها يقول شيئًا آخر»[٣].

******

(١) التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى، ص ٦١٥.

(٢) هو الكاتب الليبى «المسلم» الصادق النيهوم فى كتاب له عنوانه «الإسلام فى الأسر».

(٣) الإسلام فى الأسر ٣٣ عن كتاب محمد جلال كشك: الحوار أو خراب الديار ٩٠.

٤ - المغالطات والتشويه

على مدار التاريخ - وخصوصاً القرنين التاسع عشر والعشرين - استهدفت جهود أعداء الإسلام صرف المسلم عن دينه، واستئصال جذوره من نفوس المسلمين وعقولهم، وذلك بالمغالطات، والتشويه، والكذب، والبهتان.

ومن عجب أن من هؤلاء - وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) - من يرى أن تخليص المسلمين من إسلامهم يزيل أكبر معوق في طريقهم للانطلاق، والنهوض، والتقدم. يقول رينان: « وأعتقد أن تجديد، أو إعادة ميلاد البلاد الإسلامية لن يتم بواسطة الإسلام، بل سيتم بإضعاف الإسلام.. إن المسلمين هم أول ضحايا الإسلام.. وتحرير المسلم من دينه هو أكبر خدمة يمكن أن تسدى له.. »[١].

وبسلاح التشويه، والكذب، والافتراء، والمغالطة واجه أعداء الإسلام « أصوله العظمى » المتمثلة في اللغة العربية الفصيحة، وشخصية النبي ﷺ، وشخصيات أصحابه، والمبادىء والقيم الإسلامية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية.

ولاشك أن استقراء أساليب العدوان، وتظاهره على هذه الثلاثية يحتاج إلى بحوث مستقلة لذا سنكتفي بذكر أهمها على سبيل الإيجاز.

---

(١) عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ٣١٧.

أولاً: اللغة العربية:

اللغة العربية الفصيحة بالنسبة للأمة العربية تعتبر أهم من أية لغة أخرى بالنسبة للأمة التى تتكلم بها، ويرجع ذلك لتفرد العربية بعدد من السمات والملامح يجعل منها لغة فائقة جديرة بالمكانة العليا بين لغات العالم:

١ - فهى لغة القرآن الكريم: وقد تعهد الله - سبحانه وتعالى بحفظه - ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر: ٩]، وهذه الحماية تمتد إلى العربية الفصحى، لأنها وعاء القرآن، ولا حفظ للمحتوى إلا إذا حفظ الوعاء الذى يحتويه.

٢ - وهى لغة قومية: جمعت العرب من قديم فى وحدة لغوية متماسكة كانت لغة التفاهم، والتجارة، والأدب، والشعر، والسفارات.

٣ - وهى لغة تراثية: بمعنى أنها حفظت التراث العربى والإسلامى من الضياع، وحفظت من الضياع كذلك تراث بعض الأمم الأخرى لكثير من شرائح التراث اليونانى الذى ترجم إلى العربية، فلما ضاعت أصوله اليونانية ترجمه علماء اليونان من العربية إلى اليونانية.

٤ - وهى لغة قادرة: حيث تملك من الملامح والإمكانات الذاتية ما حرمت منه أو من بعضه اللغات الحية، وهى فى هذه الخصائص تتفوق على اللغات السامية جميعاً، فهى «أغزر اللغات السامية مادة، وأكثرها تنوعاً فى الأساليب، وأدقها فى القواعد»(١).

كما ثبتت قدرتها على الاستجابة لمقتضيات كل عصر، والتعبير عن مطروحاته من المخترعات، ومظاهر التقدم فى التجارة، والصناعة، والتعامل الاجتماعى. وكذلك دقة الأداء، وإبراز الفروق بين المظاهر والأشياء فى مجالات العمل، والنفس، والمشاعر(٢).

* * *

(١) د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة ٦.

(٢) ارجع إلى الفصل الرابع (٥٣ - ٦٨) من كتاب جابر قميحة: أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى اللغة العربية.

وقد قامت محاولات لتدمير العربية لغة القرآن على أيدى الاستعماريين، والمبشرين، والعلمانيين من المصريين والعرب. وكل هذه المحاولات، تسترت خلف قناع الزعم بتيسير اللغة العربية، وتسهيل تعلمها؛ **ومن هذه الدعوات**:

١ - استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية

وتولى كبر هذه الدعوة عبد العزيز باشا فهمى فى اقتراح قدمه لمجمع اللغة المصرى فى ٣/٥/١٩٤٣[١].. ولم تلق هذه الدعوة قبولاً من أحد. وهى تعتبر تجديداً واقتداء بما فعله مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا. ولكن القياس يأتى مع الفارق الكبير:

أ - فالتراث العربى والإسلامى المكتوب بالعربية أغزر وأكثر كمًّا من التراث التركى.

ب - والقرآن الكريم، وكذلك كل تراثنا الأدبى والفقهى والتاريخى والفلسفى مسجل بالحروف العربية.

ولو أخذنا بهذه الدعوة المذكورة، لقطعنا الصلة بين الأجيال القادمة والقرآن والإسلام والتراث، وتطبيق هذه الدعوة يحتاج إلى إمكانات مادية ضخمة .. وعشرات من السنين للتنفيذ.

جـ - والقول بأن الحروف اللاتينية تيسر الكتاب والنطق فيه، تهويل لا يتفق مع الواقع[٢].

* * *

٢ - إحلال العامية «محل الفصحى»:

وكان أنكر الأصوات الداعية إلى ذلك صوت **وليم ولكوكس**[٣]، لأنه انطلق فى دعوته هذه من الهجوم الضارى على اللغة العربية الفصحى، فهى فى رأيه «لغة مصطنعة، يتعلمها المصرى كلغة أجنبية ثقيلة فى كل شىء»، وإن وصلت إلى الرأس، فهى لا تصل أبداً إلى القلب، وهى تقف عقبة فى سبيل تقدم المصريين، ودراستها نوع

---

(١) د. نفوسة زكريا: تاريخ الدعوة إلى العامية ١٤٤.

(٢) انظر قميحة: السابق ٣٥ - ٣٨.

(٣) وهو مهندس رى إنجليزى وفد إلى مصر سنة ١٨٨٣ فى أول عهد الاحتلال البريطانى لمصر [نفوسة: مرجع سبق ٣١].

من السخرة العقلية، حالت بين المصريين والابتكار، وقضت على الطلبة النابهين من المصريين الذين كان يرجى منهم كثير. وأدت صعوبة فهمها إلى حدوث بعض الكوارث التى شاهدها أثناء إقامته فى مصر، ودراستها مضيعة للوقت، وموتها محقق كما ماتت اللاتينية[1].

وتبنى **سلامة موسى** دعوة ولكوكس، وهاجم الفصحى، ووصفها بالصعوبة، والعجز، والعمل على بعثرة الوطنية المصرية، وعلو النبرة بلا داعٍ.

ومن هؤلاء أيضاً **لطفى السيد** الذى لم يكتف بتمجيد العامية، بل وصف العوام «بأنهم يملكون بالوراثة سر اللغة، ويصرفون البيان فيها تصريفاً حيا مألوفاً»[2].

وقامت فى لبنان حركة ناشطة لتقعيد العامية اللبنانية، ومن الكتب التى ألفت فى ذلك:

- قواعد اللهجة اللبنانية السورية: للأب رفائيل نخلة.
- التحفة العامية فى قصة قنيانوس: تأليف شكرى الخولى.
- فى متْلُوهَلْكتاب: تأليف الخورى مارون غصن.

ولكن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح[3].

* * *

٣ - القضاء على النحو العربى:

وذلك بإلغاء الإعراب، وتسكين أواخر الكلمات. وهناك من اكتفى بالدعوة إلى حذف بعض قواعد النحو، أو تعديلها كحذف موانع الصرف، وجعل العدد من جنس المعدود.. إلخ.

وقد ناقشنا هذه الدعوة المدمرة فى غير هذا المكان[4]. والإعراب ليس مسألة شكلية؛ لأن تحديد المعنى يتوقف عليه ونضرب مثالا واحداً يوضح ذلك:

---

(١) عن د. نفوسة: مرجع سبق: ٣١ - ٤٢. وارجع كذلك إلى خالدى وفروخ: مرجع سبق: ٢٢٤ - ٢٣٢.

(٢) انظر نفوسة السابق ١٢٤ - ١٣٦.

(٣) انظر خالدى وفروخ: مرجع سبق: ٢٢٤.

(٤) فى كتاب: أثر وسائل الإعلام - (مرجع سبق) ٤٧ - ٥٢.

ما أجمل الربيع

فمعنى هذه الجملة يختلف باختلاف الضبط على النحو الآتى:

أ - لو ضبطنا الكلمتين بالفتح (ما أجملَ الربيعَ!!) لكنا أمام أسلوب تعجب.

ب - ولو ضبطنا الأولى بالفتح، والثانية بالضم على الفاعلية: (ما أجملَ الربيعُ)، لكنا أمام أسلوب نفى، أى أن الربيع لم يبْدِ جمالا.

جـ - ونكون أمام أسلوب استفهام برفع الأولى، وجر الثانية بالإضافة (ما أجملُ الربيعِ؟) أى: أى أيام الربيع أجمل؟ أو عن مكان الربيع مثلاً فيكون الجواب: ربيع الريف.

وتسكين أواخر الكلمات لا يحدد المعنى المقصود، كما أن من مساوئه تدمير تراثنا الشعرى كله، وإغلاق الباب أمام نظم الشعر بعد ذلك.

* * *

ولكن سقطت كل هذه الدعوات والمؤامرات لتدمير لغة القرآن، وما كانت لتسقط مقهورة إلا لأن الله منح هذه اللغة من الفرائد، والخصائص الذاتية ما يضمن لها الحياة والخلود، وما يعد رداً عملياً واقعياً على كل ما رميت به اللغة العربية من عيوب ونقائص، ويكفيها شرفاً أنها لغة القرآن الذى تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجر: ٩].

******

ثانياً: شخصية الرسول ﷺ وشخصيات الصحابة رضي الله عنهم:

وجه أعداء الإسلام سهامهم إلى شخصية الرسول ﷺ، وكلهم - كما يقول العقاد - يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الإسلام هو تشويه سمعة النبى - ﷺ - وتمثيله لأتباعه فى صورة معيبة، لا تلائم شرف النبوة، ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الإصلاح»[1].

وأغرب التهم التى حاول بعض المستشرقين إلصاقها بالنبى ﷺ **أنه كان يصاب بالصرع، وأن ماكان يسميه الوحى الذى ينزل عليه** إنماكان أثرا لنوبات الصرع التى كانت تعتريه، وأن أعراض الصرع كانت تبدو على محمد، فكان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنجات، وتخرج من فيه الرغْوة. فإذا أفاق من نوبته ذكر أنه أوحى إليه وتلا على المؤمنين به **ما يزعم أنه من وحى ربه**[2].

ويفند الدكتور هيكل هذه الفرية:

بأن تصوير ما كان يبدو على محمد ﷺ فى ساعات الوحى على هذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ؛ فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أى ذكر لما مرّ به أثناءها، ولا يذكر شيئًا مما صنع أو حل به خلالها؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل، وهذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم.

ولم يكن ذلك مما يصيب النبى العربى أثناء الوحى، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه.

هذا ثم إن نزول الوحى لم يكن يقترن حتماً بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحى غاية التنبه، بل كان كثيراً ما يحدث والنبى فى تمام يقظته العادية[3].

* * *

---

(١) عباس العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢٥٤.

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ٤٥. وممن قال بذلك المستشرق الألمانى تيودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣١). انظر ترجمته ٥٩٥ - ٥٩٨ من كتاب: موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوى.

(٣) هيكل السابق ٥٧.

ومما يهاجم فيه رسول الله ﷺ تعدد الزوجات، حتى بلغ عدد نسائه التسع خلوصاً إلى وصفه ﷺ بالشهوانية المفرطة، مما لا يليق بنبى يدعو إلى التصون والاعتدال.

كتب عباس العقاد: قال لنا بعض المستشرقين: إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية.

قلنا: إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed، لأنه لم يتزوج قط، فلا ينبغى أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية Oversexed، لأنه جمع بين تسع نساء.

فحب المرأة لا معابة فيه، هذا هو سواء الفطرة لا مراء، وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه، وحتى يشغل المرء عن غرضه...

فَمَنْ من بناة التاريخ قد بنى فى حياته، وبعد مماته تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية؟

ومن ذا الذى يقول: إن هذا عمل رجل مشغول به؟ وأعجب شىء أن يقال عن النبى ﷺ إنه قد استسلم للذات الحس، وقد أوشك أن يطلق نساءه، أو يخيرهن فى الطلاق، لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة، وهو لا يستطيعها؟

ومحمد كان معروف الشباب قبل بعثته، فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس، أو لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح، بل عرف بالطهر والأمانة والجد والرصانة.

ولما بنى بخديجة - أولى زوجاته - كانت هى فى الأربعين، وهو فى الخامسة والعشرين. فأين مكان الحس فى هذا الزواج؟! ولو كانت لذات الحس هدفاً له لجمع له بعد وفاتها تسعاً من أجمل أبكار العرب، ولكنه لم يتزوج بكراً قط سوى عائشة بنت أبى بكر، بناء على ترغيب من خولة بنت حكيم..

ثم كانت سودة هى أولى النساء التى بنى بهن بعد خديجة، وهى أرملة مات زوجها، وهى مهاجرة معه إلى الحبشة.

وكذلك أجمل زوجاته «زينب بنت جحش» لم يكن للذات الحس سلطان فى زواجه بها؛ لأنه هو الذى زوجها عتيقه «زيد بن حارثة»، وكان الخلاف، واستحال التوفيق

بينهما، فتم الطلاق وتزوجها النبى ﷺ، ولو كان للذات الحس سلطان فى هذا الزواج، لتزوجها ابتداء، وما روضها على قبول زيد، وهى تأباه.. فكان زواج النبى ﷺ بها (حلا لمشكلة بيتية) بين ربيب فى منزلة الابن، وابنة عمة أطاعته فى زواج لم يقرن بالتوفيق.

أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة، أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة، يستوى فى ذلك أم سلمة، وجويرية بنت الحارث، وحفصة بنت عمر، ورملة بنت أبى سفيان(١).

* * *

ومن الأكاذيب والمفتريات هذه الآراء المشتطة التى كتبها أعداء الإسلام عن شخصية الرسول ﷺ:

١ – ما ذهب إليه (دوزى) من أن «محمداً» سيطر على مواطنيه – لا لأنه كان أسمى منهم – ولكن لأنه كان صاحب خيال، فى حين أن العرب كانوا مجردين من الخيال، وكان ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك!!

٢ – ويرى دوزى أن محمداً قبل البعثة كان سوداوى المزاج يلتزم الصمت، ويميل إلى التنزهات الطويلة فريداً، وإلى التأملات المستغرقة فى شعاب مكة الموحشة.

بينما يرى لامانس أنه ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلته، فقد كان ينفر من الوحدة ويكره النسك.

٣ – يرى ستوك أن الباعث على رسالة محمد إنما هو فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب، وتفكيره المتواصل فى مصيره، وفى الجنة وفى النار.

أما «مرجليوث» فيرى أن الباعث على بعثة الرسول أعمال الشعوذة!! فقد عرف أعمال الحواة، وحيل الروحانيين، ومارسها فى دقة وفى لباقة، وقد كان يعقد فى دار الأرقم جلسات روحانية، وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية تشبه الماسونية،

---

(١) انظر: عباس العقاد، عبقرية محمد ١٠٢ – ١١٠، وعن زوجات الرسول ﷺ وظروف زواجه بكل واحدة منهن راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٨/٢٤٩ – ٢٥٥.

ولهم إشارات تعارف مثل: «السلام عليكم»، وعلامات يتميزون بها، كإرسال طرف العمامة بين الكتفين!!

٤ - وعن مرض الرسول ﷺ وموته يقول لامانس: «كان لمحمد شهوة قوية جيدة، وقد كثفت جسمه الملذات، وخدرت أعضاءه، فأصبح مهدداً بداء السكتة»!.

ويرى المستشرق «بينيه سنفله» أن رؤى محمد كانت فى بعض الأحيان أثراً لضعفه الشديد من الجوع، ولقد كان يسمع أثناء صومه ما يشبه مواء القطط، أو أصوات الأرانب، ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين»(١).

٥ - ويستخدم بعض هؤلاء ألفاظ السوقة وسفلة السفلة، كما فعل «چورچ سيل» الذى ترجم القرآن فى أوائل القرن الثامن عشر بوصف الرسول ﷺ بأنه دجال ومخاتل ومجرم.. إلخ.

ويقول أحد المنصفين الغربيين العدول - وقد هاله هذه الاتهامات الكاذبة الساقطة-: لم يوضح لنا هذا الكاتب كيف أن الدجال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين لفتح مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة، وكيف أتاح للبشرية حضارة مازالت حتى اليوم قائمة؟(٢)

* * *

وكان من الطبيعى أن تتكامل المنظومة المنكودة بعد الإساءة إلى رسول الله ﷺ بالإساءة إلى أصحابه وتجريحهم، **فشحذت أقلام سوداء للتشكيك فى نقائهم وعلمهم ومصداقيتهم**، وكتب المستشرقين غاصة بهذا اللون الخسيس الذى يغذيه الحقد، والتعصب، والجهل، أو التجاهل، والعمى، أو التعامى. ولكن الأكثر إيلاما أن **نرى من بنى جلدتنا الذين يتكلمون بلساننا، و«يعتنقون» ديننا من هبط إلى هذا الدرك بصورة قد تكون أكثر إسرافا وشططا. ومن هؤلاء نختار كاتبين هما: محمود أبو رية، وطلبة زايد.**

* * *

ونبدأ **بمحمود أبى رية** وكتابه المسموم عن أبى هريرة رضى الله عنه:

(١) د. عبد الحليم محمود من تقديمه لكتاب: محمد رسول الله لإيتين دينيه وسليمان الجزائرى ٢٨ - ٣٣.
(٢) ر.ف. بودلى: الرسول حياة محمد ١٠ - ١١.

محمود أبو رية شيخ مصرى لم يكمل تعليمه الأزهرى، وأخفق فى الحصول على الثانوية الأزهرية، وقد بدأ نشاطه التأليفى بكتاب تافه جداً سماه (أضواء على السنة المحمدية) . والكتاب مشحون بالأكاذيب والأغاليط، وقد احتضنه بعض الأدعياء، ولكن الكتاب لم يحقق لأبى رية الشهرة التى ينشدها، فأراد أن يتقدم خطوات غير مشروعة لتحقيق مزيد من الشهرة، وقد رأى كيف سلطت الأضواء على « على عبد الرزاق » – القاضى الذى كان مجهولاً مغموراً – إلى أن خرج على المسلمين بكتابه الحقير الذى أنكر فيه الحاكمية فى الإسلام، وسمى كتابه (الإسلام وأصول الحكم) . ورأى كيف استقطب « طه حسين » أضواء الشهرة بكتابه عن الشعر الجاهلى الذى أنكر فيه وجود إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام!

رأى « أبو رية » ذلك فأراد أن يحقق من الشهرة أقصى درجاتها، فكتب كتابه (شيخ المضيرة : أبو هريرة) . وفى الكتاب – بل كل الكتاب – طعن فى الصحابى الجليل، بل فى الإسلام ورسوله، كما سنرى!

ولسنا فى مقام الرد الشامل على هذا الكتاب، أو الكتاب الذى أصدره قبله، فهناك كتب كثيرة تصدت لتفنيد كل ما جاء فى الكتاب الأخير بصفة خاصة . ومن أهم هذه الكتب كتاب الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله « السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى »، وكتاب الأستاذ عبد الرحمن عبد الله الزرعى « أبو هريرة وأقلام الحاقدين » .

ولكننا فى هذه العجالة سنكتفى بنقل بعض العبارات من كتاب « أبى رية » (فى طبعته الثالثة)، لنتبين منهجه فى رسم صورة مشوهة للصحابى الجليل أبى هريرة، ولنرى هل كان أبو رية هذا عالماً مجتهداً – كما ذهب بعضهم أو أحدهم :

عنوان الكتاب يبين ابتداء عن سوء قصد المؤلف؛ فالمضيرة لون من الطعام كان أبو هريرة يحبه – ولا عيب ولا حرمة فى ذلك – فقد ورد عن رسول الله – ﷺ أنه كان يحب من الطعام « الدباء ولحم الطير »، وتعاف نفسه أكل الضب، ووصف أبى هريرة – فى عنوان الكتاب – بأنه شيخ المضيرة يعطى انطباعاً صارخاً بأنه عاش كأشعب الطفيلى، لاهمَّ له إلا الطعام! فتشويه شخصية الصحابى الجليل هدف واضح من عنوان الكتاب .

ومن عبارات أبى رية فى الكتاب – ونحن ننقلها بالنص:

١ – «عاش (أبو هريرة) مجرداً من القيم والمبادئ: فعندما نشب القتال بين على ومعاوية فى صفين كان أبو هريرة يأكل على مائدة معاوية الفاخرة، ويصلى وراء على، وإذا احتدم القتال لزم الجبل»! ص ٥٤ .

* * *

عجبا يا «أبا رية»!! وكأنى بصفين التى طارت فيها آلاف الرؤوس معركة تدور فى أحد البيوت، لا فى ميدان واسع الأرجاء، مترامى الأطراف!! وكيف كان أبو هريرة يجد من الوقت ما يمكنه من مشاركة معاوية فى وجباته اليومية الخمس أو السبع – كما أحصاهن أبو رية (فى كتابه ص ٢٠٨) – ثم يستطيع أن يدرك «عليا» ليصلى وراءه خمس صلوات؟

وهل كان على – كرم الله وجهه – يعلم بذلك أم لا؟

وما قيمة الصلاة وراء على، وقد نقل أبو رية حديثاً عن أبى هريرة نصه «الأمناء ثلاثة: جبريل وأنا ومعاوية» (ص ٢٣٠). ألم يقتنع راوى الحديث بأن الصلاة وراء معاوية – وهو أحد الأمناء الثلاثة – أجدر وأحق من الصلاة وراء على، أو – على الأقل – لا يقل فضلها عن الصلاة وراء على؟؟

* * *

٢ – «وأبو هريرة لا يصلح لخوض غمرات الحروب وحمل السيوف بل كان جباناً رعديدا»! ص ٧٢ .

٣ – «وهو كذاب يحلف باليمين الغموس» إلخ (ص ٧٢) .

٤ – «وهو مصاب بمركب النقص، فهو من أجل ذلك يسعى ليستكمل هذا النقص، ويخلع عن نفسه إزار الخمول والضعة، ليستبدل به لبدة الأسد»!! . (ص ٢٢٧) .

٥ – «وهو مهين، استخفه أَشَره، ونم عليه أصله وطبعه، فخرج على حدود الأدب والوقار»!! (ص ٢٤١ – ٢٤٢) .

* * *

وأبو رية الذى يقطع بكذب كل مرويات « أبى هريرة » يسلم تسليما مطلقاً بما يحكى فى كتب القصص والمجالس والمسامرات إذا كانت تخدم غرضه. وعلى سبيل التمثيل يذكر أن معاوية كان يأكل كل يوم خمس أكلات، وآخرهن أغلظهن، ثم يقول: « يا غلام: ارفع، والله ما شبعت، ولكن مللت »، وأنه أكل مرة عجلاً مشوياً مع دشت من الخبز السميذ، وأربع خراف، وجدْيا حاراً، وآخر بارداً سوى الألوان!! ص ٢٠٨.

وهذا يعنى أن معاوية كان يلتهم فى الوجبة الواحدة، أو فى اليوم الواحد - من اللحم فقط - ما لا يقل عن مائة كيلو جرام، أى ما يكفى لإشباع ثلاثمائة من البشر، أو خمسين أسداً (فى الوجبة الواحدة)!! ولو صدقنا « أبا رية » لكان معاوية من أشهر أصحاب « المعجزات » والخوارق فى التاريخ! نعم فمثل ذلك أكبر من أن يكون من قبيل الشراهة والنهم.

إن هذا الخبر الأخير - ومثله كثير - يكشف عن طبيعة « منهج الحياد والإنصاف » الذى ادعاه أبو رية، وكأنه لا إنصاف ولا حياد إلا بتجريح الصحابة والتهجم على قيم الإسلام!

ولنعد إلى « أبى هريرة » ونسأل « العالم المجتهد » أبا رية: أين كانت عبقرية رسول الله - ﷺ - وهو الحصيف البصير، القدير على سبر أغوار النفوس - حتى يقرب إليه رجلا « ممسوخ النفس والعقل والعقيدة » مثل أبى هريرة (كما صوره أبو رية)؟

وأعتقد أن أبا رية لو خلع على رأس النفاق عبد الله بن أبى ابن سلول، أو أبى جهل ما خلعه على أبى هريرة من صفات لكان فى ذلك غلو، وشطط، وإسراف.

* * *

ولنترك ما خلعه « أبو رية » على من نقدوه من أمثال الدكتور مصطفى السباعى، فقد سبه بقوله: « إنه عيير وحده فى فن الهجاء » ص ٣٠، ووصفه لمحب الدين الخطيب بأنه « ناصبى جاهلى » ص ٣٠، ٢٠٨. بل يرى فى كل شيخ أزهرى « مفتقراً للنزاهة والعدل »! ص ١١.

لنترك كل أولئك لنرى « أدبه » مع رسول الله ﷺ!! إنه لا يذكر اسمه مشفوعا بالصلاة والسلام عليه إلا قليلاً جداً. ولكن دعك أيضاً من هذا؛ فقد يحتج للرجل

بالنسيان، أو إغفال المطبعة. لننظر إلى بعض ما سجله فى كتابه بالنص:

« .. ولو أن النبى قد عهد إلى أبى هريرة وحده أن يكون راوية الإسلام للناس كافة، لكنتُ أول كافر به، ولا أبالى » ص ٧.

والضمير فى (به) يحتمل الرجوع إلى أبى هريرة، ويحتمل كذلك الرجوع إلى النبى – ﷺ – وفى كلتا الحالتين يكون الكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام – واردا، وذلك رفض صريح لأمر الله الذى جاء فى آيات كثيرة منها:

– قوله تعالى: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الحشر:٧].

– وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء:٥٩].

– وقوله تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء:٦٥].

فالكفر بمن عهد إليه رسول الله – ﷺ هو الكفر نفسه برسول الله بلا تفريق فى الحالين. والكفر برسول الله – ﷺ – وأوامره.. إنما هو كفر بالله – سبحانه وتعالى – وأوامره.

* * *

«**وخطيئة المذاهب**» كتاب سام مسموم آخر ألفه الطبيب طلبة زايد[1]. وأيسر ما يقال عن الكتاب إنه بعيد بعد المشرقين عن الموضوعية، وقواعد المنهج العلمى؛ فهو معرض غير منظم، وغير شريف لسيل من الشتائم، والسباب، والتجريح، والأحكام العامة

(١) المؤلف طبيب مصرى عمل فى محافظة الدقهلية بمصر، ثم سافر إلى الكويت واستقر بها. قام بطبع كتابه هذا على نفقته الخاصة طباعة فاخرة جدا على ورق ثقيل مصقول، ومع الكتاب الكبير كتيب أنيق مستقل يمثل تلخيصاً للكتاب الأصلى باللغتين العربية والإنجليزية، وعرض الكتاب فى عدد من دور النشر، ولكنه كان يوزع الأعداد الكبيرة منه مجاناً، وفى مؤتمر «الإسلام اليوم Islam Today» الذى عقد فى إسلام آباد بباكستان سنة ١٩٨٥ رأيت كيف وزع أعداداً كبيرة على الحاضرين، فلما اكتشفوا حقيقة الكتاب ردوه إليه.

المتقلبة التى لا تتفق مع أدب المسلم، والتزامه حدود الجدل الشريف العفيف. وأجتزئ ببعض النقول من الكتاب ليرى القارئ فداحة ما ذهب إليه الكاتب الطبيب:

- « . . . ليس كل الدين خالصاً لله . . بل أكثر المؤمنين بالله هم فى الحقيقة مشركون، وهم لا يشعرون »! ص ١٤.

- « وتلك المذاهب - الأربعة المشهورة - تحرّم ما أحل الله، وتحل ما حرم الله، فيطيعون المذاهب، ويخالفون أمر الله، فهؤلاء (المسلمون) مشركون أقبح الشرك، بتفضيلهم عبادة المذاهب على عبادة الله »!! ص ١٦.

ولم يقدم الطبيب « طلبة زايد » دليلا واحداً يقطع - أو حتى يوحى - بأن إماما من الأئمة الأربعة أحل ما حرم الله، أو حرم ما أحل الله. ولا أعلم أن شافعياً، أو حنبلياً، أو مالكياً، أو حنفياً عبد مذهبه، أو فضله على عبادة الله، وكأن هذه المذاهب ما نشأت إلا لهدم الإسلام، وإعادة الناس إلى الشرك، وعبادة الأوثان!

* * *

- ويقول الطبيب زايد: « الأحبار هم علماء الأديان فى كل زمان ومكان، كالربانيين والحاخامات فى بنى إسرائيل، والبابوات والكرادلة والقساوسة فى النصارى، والأئمة والفقهاء فى المسلمين . . » ص ٣٣.

وأعتقد أن مسلما يسوى بين الأئمة والفقهاء المسلمين الذين ينهلون من دين حق وبين البابوات والحاخامات والقساوسة - وهم يعتمدون فى علمهم على أباطيل وأساطير وأكاذيب - لغارق فى الخطأ والجهل والخطيئة. وهذه الحقيقة أوضح من أن تحتاج منا إلى مزيد من التعليق.

* * *

- ويقول: « لا ينبغى لحبر، أو مذهب أن يقول: حكمنا فى مسألة كذا هو كذا، بل يجب أن يقال: حكم الله فيها هو كذا، مع إيراد النصوص الدالة على صحة ذلك من كلام الله أو كلام رسوله فقط لا من مصنفات الفقهاء الطافحة بالأخطاء » ص ٤٢.

والكاتب الطبيب يعطى لنفسه بذلك الحق المطلق فى إغلاق باب الاجتهاد فى وجوه الأئمة والفقهاء، فمصادر التشريع - بناء على قوله السابق - هى القرآن والسنة فقط،

ولا مجال للاجتهاد بالرأى أبدا - فى نظره - حتى فيما سكت عنه القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة!

والاجتهاد بالرأى ثبت بالسنة القولية القاطعة حين أقر النبى - عليه السلام - معاذ ابن جبل على أن يجتهد برأيه ولا يألو (أى لا يقصر)، وذلك إذا لم يجد فى الكتاب والسنة حكما لقضية تعرض له.

وهذا الاجتهاد لا يعطى الحق لصاحبه أن يقول: «حكم الله فى هذه القضية هو كذا»، بل عليه أن يقول: «حكمنا فيها هو كذا». فالفقيه بشر يصيب ويخطىء. وقد قدر له النبى - ﷺ - هذا المجهود الذى يبذله فى استنباط الحكم حتى لو كان الحكم غالطاً - من حيث لا يتعمد الخطأ طبعاً - فجعل للمجتهد المصيب أجرين، وجعل للمجتهد المخطئ أجراً واحداً.

ولا خلاف فى أن القرآن والسنة هما المصدر الأساسى للتشريع، ومن الفقهاء والأصوليين من يجعلهما مصدرا واحدا يطلق عليه «الوحى»؛ إذ إن السنة - والتشريعى منها بخاصة - سماها القرآن وحيا، إذ يقول: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣، ٤].

ولكن هناك مصادر أخرى لا ترقى فى قوتها إلى المصدرين أو المصدر السابق مثل: عمل الصحابى وفتاواه، والإجماع، والمصالح المرسلة، والاستحسان، وعمل من قبلنا(١).

وكيف جهل الكاتب الطبيب أن أغلب ما جاء به القرآن الكريم كليات، وقواعد عامة، ثم جاءت السنة وفصلت المجمل، وقيدت المطلق، وخصصت العام إلى ما هو معروف فى كتب الأصول والفقه؟! والأئمة المجتهدون لم يجتهدوا بالرأى اتباعاً للهوى، بل كان اجتهادهم فيما لا نص فيه، كما كان محكوماً بالمبادئ والقواعد التى قطع بها القرآن والسنة.

بل إن النبى - ﷺ - قد أقر مبدأ الاجتهاد بالرأى حتى لو أدى الاجتهاد إلى نتائج متعارضة؛ مادام المجتهد اعتمد على فهم سديد، ولم ينقض باجتهاده إحدى قواعد الدين، وما عرف منه بالضرورة. يتجلى ذلك فى الواقعة الآتية:

---

(١) انظر فى ذلك: على حسب الله: أصول التشريع الإسلامى ٨٣، ١١٧، ١٦٩، ٢٠٤، ٢٨١.

حينما همَّ الرسول – ﷺ – بغزو بنى قريظة فى السنة الخامسة للهجرة أمر الرسول مؤذناً فأذن فى الناس « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »، وفهم بعض المسلمين الأمر على أنه كناية عن الالتزام بسرعة الزحف لغزو اليهود، فصلوا العصر قبل غروب الشمس، وفهم آخرون الأمر « على حرفيته »، فنفذوا الأمر بحذافيره، ولم يصلوا العصر إلا بعد أن حطوا بأرض بنى قريظة بعد العشاء الآخرة، « فما عابهم الله بذلك فى كتابه، وما عنفهم به رسول الله – ﷺ »[1].

* * *

والكاتب الطبيب مصرّ على تخطىء كبار الصحابة دون دليل يهضمه العقل، بل الحد الأدنى من العقل. فالباب الخامس من الكتاب عنوانه (طائفة من الأخطاء). وفى هذا الباب نصطدم بالعناوين الفرعية الآتية:

– « أخطأ عمر وعثمان فى النهى عن التمتع بالعمرة مع الحج »! ص ٥٧.

– « أخطأ على بن أبى طالب، وابن عمر فى النهى عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث »! ص ٦١.

– « أخطأ ابن عباس فى الحكم أن عدة الحامل المتوفى عنها زوجها هو أبعد الأجلين »! ص ٦٣.

– « وأخطأ أبو هريرة فى النهى عن صوم رمضان لمن أدركه الفجر جنبا ». ص ٦٤.

* * *

هذا عن الصحابة فما رأيه فى التابعين وتابعيهم؟ يقول طلبه زايد: « أما من دون الصحابة من التابعين، وسائر الأئمة وفقهاء المسلمين، فهؤلاء أخطاؤهم فى الدين فاشية فشوا ذريعا، لا تكاد تمر مسألة من مسائل الدين إلا ولهم فيها تناقضات، واختلافات تصل إلى حد تحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أو شرع ما لم يأذن به الله، أو ابتداع ما لم يفعله رسول الله ﷺ »! ص ٦٩.

هؤلاء هم الصحابة، وهؤلاء هم التابعون والأئمة فى نظر الطبيب زايد.. جماعات من الخطائين الذين يحلون الحرام، ويحرمون الحلال، مع أن الكاتب الطبيب – هداه الله –

---

(١) عبد السلام هارون: تهذيب سيرة ابن هشام ١٤١.

أورد من قبل فى كتابه قول الرسول – ﷺ –: « خير القرون قرنى، ثم الذى يلى، ثم الذى يلى » ص ٥٤ .

وإذا كانت هذه هى حال صفوة الصحابة والتابعين، فهذا يعنى الخروج بنتيجتين غريبتين بل فاحشتين:

الأولى: أن الإسلام – والعياذ بالله – قد أخفق إخفاقاً ذريعاً فى تربية الرعيل الأول، وتكوين « الشخصية الإسلامية » النموذجية فكراً وخلقاً وعقيدة .

الثانية: أن تقييم رسول الله – ﷺ – لكثير من الصحابة، وشهادته لهم بالفقه والعلم والأمانة – على ما هو مذكور فى الصحاح عن فضائل الصحابة – يصبح تقييماً فى غير محله، لأن طلبة زايد (اكتشف) فيهم الكذب والخطأ . . بل الخطيئة!! ومرة ثانية: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وهناك نتيجة ثالثة من السهل إدراكها ومؤداها: إذا كانت هذه هى حال الصفوة من مجتهدى الصحابة والتابعين، فهذا يعنى أن الأجيال التى تلت جيلهم – بما فيها جيلنا طبعاً – تعتبر كافرة كفراً بواحا، ومارقة من ملة الإسلام!

* * *

واختلاف الصحابة والأئمة والفقهاء فى الاستنباط لا يزرى به الكاتب فحسب، بل يفسره على أنه فرقة فى الدين، وتطاحن بين « أهل الهوى »!! . وهذا شىء عجيب: فالرجل العامى الأمى يعرف بحاسته أن « اختلافهم رحمة »، حتى أصبحت هذه العبارة تجرى مجرى الأمثال؛ لأن فى هذا الاختلاف سعة وتسهيلاً على المسلم، فالدين يسر، ودفع الحرج والمشقة قاعدة أصيلة من قواعد الإسلام .

كما أن هؤلاء الأئمة – مهما اختلفوا – إنما كان هدفهم التوصل إلى الحق والحقيقة، وإن اختلفت الطرق والوسائل فى استنباط ما يعتقد المجتهد أنه الحق، بعد أن يستخدم أقصى طاقاته فى سبيل ذلك .

وقد بين ذلك بوضوح الإمام ابن القيم إذ يقول: « . . إن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأى طريق كان، فثم شرع الله ودينه، ورضاه

وأمره، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد، وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الكتب أن مقصوده هو إقامة الحق والعدل، وقيام الناس بالقسط، **فأى طريق استخرج بها الحق، ومعرفة العدل، وجب الحكم بموجبها ومقتضاها. والطرق أسباب ووسائل لاتراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد**»[1].

فهل بعد ذلك يحكم على الصحابة والأئمة المجتهدين - لأنهم اختلفوا فى استنباط الأحكام - بأنهم من «**أهل الهوى والفرقة والضلال والخطايا**»؟ أم أن الخطيئة الكبرى هى تلك التى ارتكبها الكاتب الطبيب بهرائه الذى قدمه فى كتابه «**خطيئة المذاهب**»؟

* * *

ولا يمضى شهر - ولا أقول عام - إلا ويضاف كتاب، أو كتب لمنظومة الافتراء، والتجريح، والإساءة إلى ديننا، وقيمنا، ونبينا، وسلفنا الصالح، وأعلامنا الأتقياء الأنقياء.. بأقلام عربية «مسلمة»!! فإذا تصدى لهم أحد، صورت المواجهة على أنها «إرهاب فكرى»، وأن «ظلاميين» يواجهون «تنويريين».. وعلى مستوى العالم تثور لهؤلاء التنويريين مجمعات ومنظمات عالمية، تحاول أن تخفف عنهم إصر «الاضطهاد»، و«الإرهاب الفكرى» المزعوم بالدعاية، والصرخات، والمال الطائل، وما وراء هؤلاء إلا قوى الصليبية، والصهيونية العالمية، والإلحاد، والإباحية، وإن اختلفت الأسماء والوجوه والأساليب[2].

* * *

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٤ / ٣٧٣.

(٢) من ذلك وضع عناوين جديدة براقة للكتب سيئة السمعة فكتاب «شيخ المضيرة أبو هريرة» لمحمود أبى رية طبعته مؤسسة الأعلمى بيروت. بعنوان جديد هو: [نخب الذخائر] تأليف جمع من العلماء! وممن يسير على الدرب المنكود الكاتب اليسارى خليل عبد الكريم الذى أصدر أخيرا فى سلسلة الافتراء والتضليل كتابين هما: الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية. وكتاب: شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة: السفر الأول: محمد والصحابة!

ثالثاً: قواعد الإسلام ومبادئه وقيمه(*):

ويوجه أعداء الإسلام سهامهم كذلك إلى مبادئ الإسلام وقيمه بمفتريات وأكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان، ويتمثل ذلك فى كتب مستقلة، أو فصول فى دوائر المعارف، أو مقالات.

ومعروف أن اليونسكو «منظمة الثقافة والتربية والعلوم» تشرف على موسوعة «تاريخ الجنس البشرى، وتقدمه الثقافي والعلمي». والمجلد الثالث من هذه الموسوعة عن «الحضارات الكبرى فى العصر الوسيط»، والفصل العاشر من هذا المجلد خاص بالعرب، وهو خاص بالمفتريات، وتشويه قيم الإسلام، وتاريخ النبى ﷺ، وخلفائه الراشدين بتعصب بشع ذميم[1].

ومن هذه المفتريات:

١ - الإسلام تركيب ملفق من المذاهب اليهودية والمسيحية، بالإضافة إلى التقاليد القومية الوثنية العربية التى أبقى عليها كطقوس قبلية تجعلها أكثر رسوخاً فى العقيدة[2].

٢ - القرآن ليس أكثر من مجموعة مقتطفات خطابية موجهة - لا للقراء - ولكن للمستمعين[3].

٣ - دور المرأة فى المجتمع الإسلامى على جانب كبير من الضآلة، وضآلة مرتبتها كانت أمرا مسلماً به فى جميع مظاهر الحياة.. حتى إنه فى مسألة الميراث لم يكن نصيبها إلا نصف نصيب الرجل[4].

٤ - الإسلام لم ينصف أهل الذمة، وقد عمل على أن يظل الوضع الاجتماعى للذميين

(*) فى المكتبة الإسلامية مئات من الكتب تصدت لنقض دعاوى وادعاءات أعداء الإسلام مثل كتب العقاد وأحمد جمال الدين وسيد قطب وأحمد ديدات، لذلك لم نتوسع فى سوق الأمثلة والشواهد، وأحيانا اكتفينا بالإشارة لبعضها.

(١) تكفل بتفنيد هذه المفتريات الأستاذ محمد عبد الله السمان بكتاب عنوانه: مفتريات اليونسكو على الإسلام.

(٢) السابق ٩. (٣) السابق ٧٠. (٤) السابق ٣٨.

وضعاً سيئًا مهيناً، ويدل على ذلك الجزية التى فرضت على الذميين، وهى ضريبة باهظة أثقلت كواهلهم .. وإن إقبال الذميين على الإسلام سببه التخلص من الضرائب الباهظة، أو لكى يحظوا بحقوق المواطنة أسوة بالمسلمين[١].

٥ – الألوف المؤلفة من الأحاديث هى من وضع أصحاب رسول الله، ونسبوها إليه ليجعلوا من شخصيته مثالاً يحتذى[٢].

وهذه الأحاديث صنعت حول الخلفاء الأربعة (أبى بكر وعمر وعثمان وعلى) هالة من القداسة[٣].

* * *

ولا نقف أمام هذه الافتراءات؛ فقد تكفل الأستاذ السمان – كما ألمحنا – بنقضها واحداً واحدا. ونكتفى بمواجهة موقف واحد من مواقفهم الشائنة الحاقدة **وهو موقفهم من عقيدة التوحيد**:

يرى رينان الفرنسى[٤] أن عقيدة التوحيد فى الإسلام تؤدى إلى حيرة المسلم، كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك، وترفع الإله عنه فى علاء لا نهاية له[٥].

أما عقيدة المسيحية – فى نظره – فلأنها قائمة على التثليث – أى أن الإله الأب أوجد الإله الابن، واتصل الاثنان بصلة مع روح القدس، وعليه فيكون يسوع المسيح إلها وبشرا – هذه العقيدة تؤدى إلى ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية.

فالثالوث مشتقة أصوله من ضرورة إله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى، ويفديه من الخطيئة التى اقترفها.

وهذا الاعتقاد هو أخف وأعلى، وأجلب للثقة؛ إذ يحمل المسيحيين على إتيان الأعمال التى تقربهم إلى الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة، فى حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول، ولا يتبدل،

---

(١) السمان: مفتريات اليونسكو على الإسلام: السابق ٤٤ . (٢) السابق ٥٨ . (٣) السابق ٧٠ .

(٤) أرنست رينان (١٨٢٣ – ١٨٩٢) انظر ترجمته وأعماله فى موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوى (٣١١ – ٣٢٠).

(٥) د. محمد البهى: الفكر الإسلامى الحديث ٥٣ .

ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات، والاستغاثة بالله الأحد الذى هو مستودع الآمال، ولفظة الإسلام معناها الاستسلام المطلق لإرادة الله[1].

* * *

وتمضى مسيرة الافتراء والكذب والتضليل، فتأتى مجلة[2] "The Muslim World" فتردد هذا المعنى، وتؤكده فى شرح آية «**إلى الله المصير**» فتقول ما ترجمته:

«إن إله الإسلام متكبر جبار، مترفع عن البشرية، يطلب أن يسير العابد نحوه، بينما إله المسيحية عطوف متواضع يتودد للناس، فظهر فى صورة بشر، وذلك هو الإله الابن، **فعقيدة التثليث فى المسيحية قربت الإنسان من الإله، وأعطته نموذجاً رفيعاً واقعياً فى حياته ليسعى ليقترب منه. أما عقيدة التوحيد فباعدت بين الإنسان والإله، وجعلت الإنسان متشائماً من شدة الخوف منه، ومن جبروته وكبريائه**[3].

إنه اتهام متهافت غريب؛ لأن عقيدة التوحيد «مزية الإسلام، وآية على أنه الرسالة الكاملة الواضحة لخالق الكون فى كونه، كما أنها الطريق السليم والوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه؛ لأن صاحب هذه العقيدة لا يخضع فى حياته لغير الله، ولا يتوجه فى طلب العون إلى غير الله سبحانه وتعالى»[4].

وقد ردد هذه الآراء نفسها السياسى الفرنسى (جابرييل هانوتو) فى عدد من المقالات. وقد تكفل الإمام محمد عبده بالرد عليها وخصوصاً فيما يتعلق بعقيدة التوحيد[5]، ومما قاله:

يظن هانوتو أن الإسلام (بعقيدة التوحيد) قطع الصلة بين العبد وربه، ولكنه وهم فى ذلك؛ فإن الإسلام أفضى بالعبد إلى ربه، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده **بلا واسطة تبيعه رضاءه**. قضى الإسلام بألا يكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية

---

(١) انظر البهى السابق ٥٠ - ٥٥.

(٢) عدد أكتوبر سنة ١٩٥٥، وهى مجلة تصدرها مؤسسة Harford للدراسات الدينية والشرقية بالولايات المتحدة.

(٣) البهى، السابق ٥٧.

(٤) البهى، السابق ٥٣.

(٥) نشرت مقالات هانوتو بالفرنسية فى صحيفة الجورنال الفرنسية وترجمتها إلى العربية صحيفة المؤيد القاهرية. ثم جمعت ومعها ردود محمدعبده عليها فى كتاب بعنوان (الإسلام والرد على منتقديه).

كل مخلوق، وحظر على الناس **مقامَيْن لا يمكن الرقى إليهما : مقام الألوهية التى تفرد بها، ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء، ثم أغلق بابها** . وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهى بين يدى الإنسان، وينالها باستعداده، لا يحول دونها حجاب إلا ما كان من تقصيره فى عمله، أو قصوره فى نظره.

إذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك، وقفت نفسك حيث وضعتها، ولن تستطيع إلى التقدم سبيلاً، هكذا يرفع الإسلام الصحيح نفس صاحبه، وهذا هو معنى الإسلام والاستسلام الذى أخطأ فى فهمه مسيو هانوتو، فهل بقى الإنسان مع هذا المعنى من الإسلام فى درك من الحيوانية، وفى هجرة عن التوسل بالأسباب إلى مسبباتها فى كسب الفضائل والكمالات[١]؟ .

ومما قاله عمن اتخذوا بينهم وبين الله وسيطاً :

ماذا أصاب هؤلاء من سر ما اعتقدوا؟

استُعبدوا للسادن، والكاهن، والزعماء، ووارثيهم، واستسلموا لهم فى جميع شئونهم، فكانت علومهم من أوهامهم وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم، ينكرون الأوليات من المعلومات إذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التى تلقوها عن زعمائهم، ثم كانوا يتركون وسائل العلى اتكالا على ما يستمدونه منهم، ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الإنسانية من بلايا هذه العقائد، والعيان يؤيده فى كثير من الأمم فى الشرق والغرب إلى اليوم[٢] .

والكلام عن « عقيدة التوحيد »، ومزاياها، وأثرها فى تقدم المسلمين فى كل المجالات يطول شرحه مما لا يتسع له المقام، ولكننا نفسح المجال لسطور من كتاب لأوروبى مسيحى منصف[٣] يقول فى تصدير كتابه :

سمعت القرآن فى اللغة العربية المكية العظيمة، وأحسست دون أن أصبح مسلما روعة هذا الدين **الذى يخلى بين العبد وخالقه فى الصحراء**، وسمعت عن محمد الرجل الذى وحد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة، وجعلهم دعامة امبراطورية من أعظم

---

(١) محمد عبده : الإسلام والرد على منتقديه، ٤٦ .

(٢) السابق ٤٣ .

(٣) هو : ر.ف. بودلى فى كتابه « الرسول حياة محمد » .

امبراطوريات العالم قوة، وسمعت عنه أنه الرجل ذو القلب الحار الذى حول الوثنيين، وعبدة الأصنام إلى مؤمنين صادقين يؤمنون **بإله واحد، وباليقين بالموت والبعث فى حياة أخرى**[١].

إن البدو الذين عشت معهم فى الصحراء لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد عنهم - كما يتحدث المسيحيون عن المسيح - وإن المرء لا يحس أبداً ذلك الغموض، ولا تلك العزلة التى يحسها إنسان يرتدى ثياباً تختلف عن ثياب القوم، ويعيش فى أرض غريبة بين أناس غرباء[٢].

***

وفى الصفحات الآتية نورد آخر الوسائل أو الآليات التى يستخدمها أعداء الإسلام معتمدين على حظهم الوافر من التقنية والتقدم العلمى، وأعنى بها التقنيات الإعلامية، وقد آثرت أن أطلق عليها (القصف الإعلامى) لسبب أو أسباب لن تخفى على القارئ.

******

---

(١) بودلى السابق ٣.

(٢) بودلى السابق ٩.

٥- القصف الإعلامي

لا يستطيع أحد أن ينكر الأثر البالغ لوسائل الإعلام على الفرد، والمجتمع، والشعوب، والأمم. ووسائل الإعلام منها المقروء كالصحف، ومنها المسموع كالمذياع، ومنها المرئى كالتلفاز، وكان آخر أطواره -حتى الآن- هو ما يسمى «بالإنترنت».

وكل هذه الآليات تلتقى وتتفق فى عدة وجوه أهمها:

١- الغاية والهدف: الذى يتمثل فى التثقيف، ونقل المعارف والمعلومات والأخبار. ومنه التثقيف الموجه المخطط كالبرامج والنشرات المتخصصة للطلاب والخبراء والمزارعين وغيرهم فى حقول تخصصاتهم(١).

ومن الأهداف ما هو تربوى، وذلك بالتركيز على قيم معينة وتبسيطها، وتأكيدها، والإلحاح عليها، وخصوصًا النواحى الدينية والسلوكية والقومية.

وهناك التوجيه المذهبى أو «الأيديولوجى»، ويأتى هذا الهدف فى المرتبة الأولى عند الدول ذات النظام الشمولى، وخصوصًا الدول الشيوعية، وكان على قمتها الاتحاد السوفيتى «سابقًا»، فوسائل الإعلام - من صحافة وإذاعة وتلفاز -كلها كانت لا تعدو أن تكون أبواقًا للمذهبية الشيوعية، والترويج لسياسة الدولة، وتبرير سلوكياتها، بل أخطائها وسقوطها!

٢- تواصل العمل، واستمرارية التأثير: فالكتاب -مثلاً- قد يكون له دويه وتأثيره فى آنه، وقد يكون له تأثيره بعد ذلك لفترة ما، ثم يفتر هذا التأثير، ويذوى وينقطع، وينساه الناس تمامًا. وليس كذلك وسائل الإعلام - من صحافة وإذاعة وتلفاز - فاستمرارية الإصدار، واستمرارية الإرسال تعنى استمرارية العمل، ومن ثم استمرارية التأثير، مع اختلاف قدر التأثير تبعًا للظروف والوقائع، ومدى قابلية المتلقين فى حالتى الحرب والسلم.

٣- المرونة، والقدرة على التطور، والتفاعل مع التطورات العلمية والتقنية: وهذا

---

(١) انظر: د. عبد الفتاح أبو المعالى: أثر وسائل الإعلام على الطفل ٢٠-٢١.

واضح فى مجال البث الإذاعى، والتلفازى عن طريق الأقمار الصناعية، وما يسمى بالقنوات الفضائية، ونظم «الإنترنت»[1].

* * *

وقد استطاعت المؤسسات التنصيرية توظيف هذه الآليات بجهود وإمكانات هائلة متواصلة، وأكدت جميع المؤتمرات - التى ناقشت موضوع استخدام وسائل الاتصال الجماهيرى - ضرورة إنشاء الإذاعات فى كل مكان، وفى كل فرصة ممكنة، وإنشاء معاهد لإعداد الإذاعيين، وتدريب الكوادر، وإقامة مؤسسات لإنتاج المواد الإذاعية وتزويدها بكل الإمكانات، وتدعيمها ماليًا بكل ما يجعلها قادرة على الوفاء بالتزاماتها[2].

وتأكيداً لهذا الاهتمام بالإذاعة عامة، والإذاعة بالراديو على وجه الخصوص، وتجسيداً لهذا الاهتمام أيضاً، قامت عشرات الهيئات والمنظمات الإذاعية المسيحية فى أنحاء متفرقة من العالم، فى سويسرا، والنمسا، وإنجلترا، وألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وهونج كونج، والفلبين، والولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها بإنشاء المحطات الإذاعية، والتخطيط لها، وتبادل الخبرات، والبرامج، والاستشارات، والخبراء، وعقد المؤتمرات، وتنفيذ التوصيات، وعقد الندوات العلمية، وإقامة الدورات التأهيلية والتدريبية للكوادر، والعناصر التى تعمل فى هذه المحطات، وإجراء البحوث والدراسات على جماهير المستمعين للكشف عن مدى تأثير هذه المحطات وفاعليتها، فضلاً عن تقويم وتقييم خططها وبرامجها. **ولعل أنشط هذه المؤسسات والهيئات والمنظمات -على سبيل المثال، لا الحصر- المؤسسات التالية:**

١- الرابطة الكاثوليكية للراديو والتليفزيون: ومقرها سويسرا، وهى الرابطة التى تضم مائة محطة إذاعية كاثوليكية.

٢- الرابطة العالمية للإذاعة المسيحية: ومقرها جنيف، وتقدم منحا للكنائس، والمنظمات المسيحية للتدريب على الإذاعة فى مجال التنصير.

٣- الاتحاد العالمى للاتصالات المسيحية: أنشئ فى لندن عام ١٩٦٨.. وهو يولى

---

(١) انظر: جابر قميحة: أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ٧٣-٧٥.

(٢) د. كرم شلبى: الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب ٦٢.

الهيئات والمنظمات التنصيرية – التى تعمل فى أفريقيا على وجه الخصوص – اهتماماً فائقاً، ويخصها بالقدر الأكبر من المساعدات والرعاية.

٤- **الرابطة الدولية للإذاعيين المسيحيين**: وهى رابطة خاصة بالإذاعيين العاملين فى مجال الإذاعات التنصيرية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

٥- **جمعية التنصير العالمية بالراديو**: وهى جمعية «بروتستانتية» مقرها «نيوجرسى» بالولايات المتحدة الأمريكية، وتتولى الإشراف وإدارة عدد من المحطات التنصيرية الدولية، تأتى فى مقدمتها إذاعة «حول العالم» الناطقة بالعربية من مونت كارلو.

٦- **الهيئة التنصيرية العالمية فى هونج كونج** وهى تشرف وتدير عدداً من الإذاعات الموجهة إلى دول جنوب آسيا، مع الاهتمام الخاص الموجه إلى أندونيسيا.

٧- **الاتحاد الفلبينى للإذاعيين الكاثوليك**: ومقره تايلند، ويتولى الإشراف على عدد من المحطات التنصيرية، ويقدم لها المعلومات، وخدمات التدريب والتخطيط.

هذا بعض من كل؛ فالمؤسسات والهيئات الإذاعية التنصيرية فى العالم بلغ عددها سنة ١٩٨٠ أكثر من خمس وثلاثين هيئة ومؤسسة إذاعية دولية(١).

* * *

وقد دأبت الإذاعات التنصيرية التى تبث بالعربية على التعريض بالإسلام، والحط من شأنه، وتمجيد النصرانية والرفع من شأنها. من ذلك ما يبث فى برنامج باسم «**الحكمة السرمدية**» من إذاعة «حول العالم من مونت كارلو». ومن أمثلة ذلك ما جاء على لسان متحدث «اعتنق» النصرانية، ويتحدث بالعامية المصرية «بقالى أكثر من سنة بأدور وابحث، جربت اليوجا، وديانة كرشنا. تعرفت بناس **بتوع أديان الشرق الأوسط، وحتى ديانات أفريقيا**، ومـا وصلتش لحاجة.. آخر مـا وصلته هو الفراغ الكامل والضياع الكامل»(٢).

وإذاعة «**صوت الغفران**» التى تبث برامجها بالعربية من جزيرة سيشل،

---

(١) انظر: د. أكرم شلبى: السابق ٦٢–٦٥.

(٢) السابق: ١٤٤.

كانت -ومازالت - من أخطر وسائل تضليل المسلمين ما استحدثته فى مجال البرامج الإذاعية التنصيرية **هو ترتيل الإنجيل على غرار أسلوب وطريقة تلاوة القرآن الكريم** وذلك لخداع المستمعين البسطاء من المسلمين العرب وغير العرب، أو على الأقل لجذب انتباههم، والاستحواذ على اهتمامهم[1].

ومما جاء فى بعض برامجها:

«عزيزى المستمع.. إن المسيحية محكها الاختيار، فكم من الرجال **الذين كان يرعبهم الشعور بالذنب** وجدوا حرية وانطلاقًا عن طريق الغفران الذى يقدمه المسيح، وكم من **الذين انحدروا لأقصى الدرجات الخلقية** وجدوا فى المسيح قوة بها يحبون الحياة الفضلى، وكم من **الذين كانت حياتهم فارغة وبلا مغزى** وجدوا هدفًا، وفرحًا فى المسيح»[2].

وواضح أن المسلمين هم المقصودون بهذه الأوصاف:

- يرعبهم الشعور بالذنب.

- انحدروا لأقصى الدرجات الخلقية.

- حياتهم فارغة وبلا مغزى.

ويتحول التلميح إلى التصريح فى تقديم مقابلات إذاعية مع الذين تركوا دينهم، واعتنقوا المسيحية، ومنها -على سبيل التمثيل- ما أذاعه بالعربية برنامج **«الينبوع الحى»** بإذاعة «صوت الغفران» من لقاء مع شابين ارتدا عن الإسلام، وجرى تنصيرهما. وفى هذا اللقاء يتحدثان عن حالة الفراغ، أو الخراب النفسى التى كانا يعيشانها قبل أن يعتنقا المسيحية التى وجدا فيها الحب والطمأنينة والسلام النفسى العميق[3]!

* * *

وبالتقدم التقنى تتسع دائرة التضليل والتشويه والتدمير الخلقى، وأصبحنا نعيش عصر «القهر الإعلامى» أو عصر «الدكتاتورية الإعلامية»؛ فعن طريق الأقمار الصناعية

---

(١) انظر: د. أكرم شلبى السابق ١٤٧.   (٢) السابق ١٩٠.

(٣) انظر نص هذا اللقاء فى المرجع السابق ١٩٧-٢٠٠. ومثل هذا الحوار لا ينطلى إلا على السذج لأن ما دار (بل ما أدير) على لسانيهما يدل على «ضلاعة وتمرس طويل فى المسيحية» يعجز المعتنق الجديد عن أدائه. فالمسألة إذن «عملية تمثيلية» مدروسة، للتغرير بالسذج من المسلمين.

أنشئت عشرات من المحطات أو القنوات الفضائية التى يستمر إرسال كل منها طيلة اليوم، فقناة كل إرسالها «الأفلام» وخصوصًا «الأفلام ذات الطوابع الهابطة». وقناة - بل قنوات - تخصصت فى تقديم «الجنس» الخالص، غير القنوات الداعية «لمذهبيات» أو «أيديولوجيات» هدامة!

أما تشويه الإسلام وتاريخه، والإساءة إلى نبيه ﷺ فأصبح لازمة من لوازم الدعاية الإعلامية الغربية والصهيونية، ومن عجب أن يكون لذلك فى «**الإعلانات التجارية**» نصيب وافر. واكتفى بمثال واحد خلاصته:

عرضت الشركة الإيطالية «فايما» FAEMA المنتجة «لقهوة إكبريسو» إعلانا عن بضاعتها اخترعت فيه رواية مفتراة خلاصتها **أن جبريل عليه السلام أيقظ النبى محمداً (ﷺ) من نعاسه بكوب من القهوة الساخنة قبيل تكليفه بمهمة خطيرة، وأن تأثير هذه القهوة كان قويًا لدرجة أن النبى لم يبتعد عنه النعاس فحسب، وإنما منحه قوة خارقة مكنته من هزيمة أربعين رجلاً دفعة واحدة**[1]!

* * *

وعلى شبكات الإنترنت عشرات من «المواقع» للهجوم على الإسلام، وعلى القرآن، ونبى الإسلام ﷺ، منها موقع خاص بإرسالية «**هايدبارك**» النصرانية بلندن، عنوانه «**المناظرة**» للهجوم على الرسول ﷺ:

فهو ليس مؤهلاً ليكون نبيًا لعدم تحقق شروط النبوة فيه:

- لأنه عارض بكلماته كلمات مَنْ قبله، مع أنها من عند الله، كرأيه القائل ببشرية المسيح.
- ولأن العرب ليسوا أبناء إسماعيل، بل من نسل ستة أبناء لزوجة ثالثة لإبراهيم عليه السلام.
- ولأنه ليس له معجزات، ولم يأت بأى توقعات مستقبلية.
- ولأن الإنجيل يقول إن النبى القادم من إخوانكم، أى لابدّ أن يكون من بنى إسرائيل.

---

(١) عن صحيفة (المسلمون) العدد ٦٩٠ السنة ١٤ (السبت ٢٨/١٢/١٤١٨-٢٥/٤/١٩٩٨).

- ولأن الله حفظ موسى وعيسى فى صغرهما، بينما لم يحفظ محمداً فى صغره(؟!).

- ولأن الله تحدث مباشرة لموسى وعيسى، ولم يتحدث لمحمد[١].

* * *

ويحاول أعداء الإسلام فى المواقع التى احتلوها فى شبكات الإنترنت استغلال بعض الوقائع التاريخية، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وتوجيهها، وتفسيرها بهواهم الخسيس، وتحميلها أكثر مما تحتمل، للتضليل، وتشكيك المسلمين فى دينهم، وخصوصًا الذين لا يملكون من العلوم الدينية شيئًا مذكوراً، من ذلك التهجم على شخصية الرسول ﷺ لأنه تزوج عائشة رضى الله عنها وهى بنت تسع سنين.

ومن الزعم بأن الإسلام ظلم المرأة، وحط من قيمتها وكرامتها. وهم يصرحون بهذا الحكم اعتماداً على حديث لرسول الله ﷺ خاطب فيه مجموعة من النساء فى معرض المباسطة، وامتداحهن بما وهبهن الله تعالى من تأثير على قلوب الرجال إذ قال لهن: «**ما رأيت مِنْ ناقصات عقل ودين أخلب لِلبٍّ الرجل من إحداكن**»[٢].

* * *

ولسنا فى مقام نقض هذا الهراء؛ فهو كذب مفضوح يستطيع نقضه من أوتى أثارة من التفكير العاقل المتزن.

ولكن بقى أن نشير فى هذا المقام إلى أن هناك - للأسف الأسيف - فرقًا ضالة تدعى الإسلام، لها «مواقعها» الدائمة على شبكات «الإنترنت»، وتدعو إلى الإسلام بمفهومها ومن خلالها، وأشهر هذه الطوائف الضالة المضلة «**طائفة القاديانية**»[٣]، ولها إمكانات

---

(١) انظر صحيفة المسلمون -العدد ٦٩٥ (السبت ٥/٢/١٤١٩- ٣٠/٥/١٩٩٨).

(٢) انظر «الإنترنت المعرفة والخدمات والخطر الداهم» مقال لمحمد عبد الله القولى فى مجلة «الوعى الإسلامى» العدد ٣٩٩ - السنة ٣٥ - ذو القعدة ١٤١٩ - فبراير ١٩٩٩.

(٣) أسس هذه الفرقة غلام أحمد القادياني الذى ولد فى «قاديان» بالهند سنة ١٨٣٩. ومن ضلالاته - وهى تعد جوهر المذهب -: أن روح المسيح قد حلت فيه، وأنه يلهم بكلام كالقرآن والإنجيل والتوراة، وأن المسيح سينزل آخر الزمان فى قاديان، وأن الحج إلى قاديان فريضة لأنها المكنى عنها فى القرآن بالمسجد الأقصى، وأن الله قد أوحى إليه بعشرة آلاف آية. وأن كل الأنبياء السابقين قد شهدوا له بالنبوة! [انظر: القاديانية لأبى الحسن الندوى وآخرين ٨-٩]، وفى أخلاق مؤسس الطائفة وأكاذيبه راجع ١٢٤-١٥٩ من كتاب: القاديانية لإحسان إلهى ظهير.

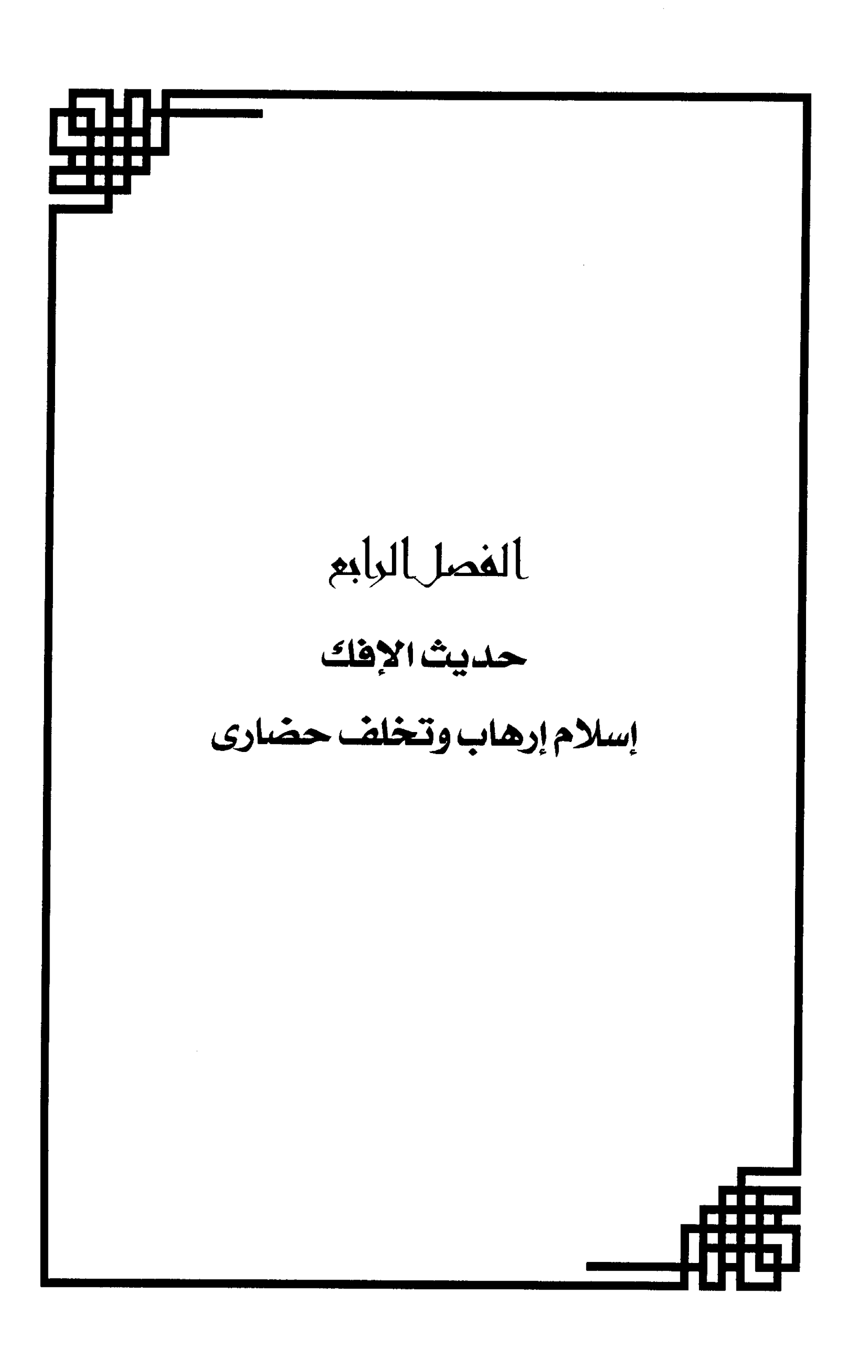
مادية هائلة تساعدها على نشر أضاليلها، وقد ثبت عمالتها من أول نشأتها للاستعمار الإنجليزى، والصليبية العالمية[1].

* * *

الإحسان والمساعدات الاجتماعية - التعليم - التلفيق الدينى - المغالطات والتشويه - الإعلام بأنواعه المختلفة. كانت هذه أهم وسائل أعداء الإسلام للتضليل والتدمير. وبذلك نكون قد « **شخصنا الداء** » وعرفنا أسبابه ومظاهره. ولكن علينا أن نقف وقفة متأنية - بعد المستجدات العالمية الجديدة - فى مواجهة الحملات الضارية المكثفة متهمة الإسلام بالدعوة إلى التخريب والتدمير والإرهاب، ومتهمة الحضارة الإسلامية بالتخلف والعدوانية وهو موضوع الفصل الرابع.

* * *

(١) راجع في ذلك كتاب إحسان: السابق ١٩-٣٣.



الفصل الرابع

حديث الإفك

إسلام إرهاب وتخلف حضارى

والقصف الإعلامى يكون أبعد أثرًا، وأسرع وصولاً وانتشاراً إذا ما جاء فى صورة تصريحات وبيانات على ألسنة قادة ورؤساء وزعماء كبار لهم ثقلهم وقدراتهم ونفوذهم على مستوى العالم كله، فى عصر «العولمة» - أو الأمركة الذى نرى فيه أمريكا، ومعها بالتبعية الدول الأوروبية تتحكم فى دول العالم الثالث كله سياسيًا، وعسكريًا، واقتصاديًا، وتعليميًا، وأكاد أقول «ودينيًا»، بتوفيق كل الأديان فى مجال التعليم والاعتقاد مع الرؤية الأمريكية.

وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ التى فُجرت فيها ناطحتا التوأم فى نيويورك أعلنت أمريكا حربًا ذات طوابع صليبية على الإسلام والمسلمين، وبدأت هذه الحرب بضرب أفغانستان ضربًا وحشيًا ممتدًا، تليها خطوات أخرى بضرب دول عربية منها العراق والسودان واليمن وغيرها بتهمة مساعدة الإرهاب وتشجيعه وتصديره، والتستر عليه.

وما يهمنا القصف الإعلامى - أن نواجه افتراءين رددهما، وروج لهما أهل الضلال والتضليل، وأعداء الإسلام والأمة الإسلامية:

الأول زعمهم أن الإسلام دين إرهاب، وعدوان، ووحشية.

والثانى: زعمهم أن الحضارة الإسلامية حضارة متخلفة، وهى لا تعد شيئًا إذا قيست بالحضارة الغربية. وفى الصفحات التالية نعرض لهذين الافتراءين كل على حده، لنتبين حقيقة كل منهما، وما يثقله من كذب وحقد، وتضليل.

أولاً: الإسلام والإرهاب

من أحدث التعريفات للإرهاب (Terrorism) أنه استخدام العنف - غير القانونى - أو التهديد به، بأشكاله المختلفة: كالاغتيال والتشويه، والتعذيب والتخريب، والنسف، بغية تحقيق هدف سياسى معين مثل كسر روح المقاومة والالتزام عند الأفراد، وهدم المعنويات عند الهيئات والمؤسسات. أو كوسيلة من وسائل الحصول على معلومات أو مال. وبشكل عام: استخدام الإكراه لإخضاع طرف مناوئ لمشيئة الجهة الإرهابية[١].

ولكن بعض المفكرين يرى صعوبة وضع تعريف موحد محدد للإرهاب، ويرى أن

(١) موسوعة السياسة ١/١٥٣.

التغلب على هذه المشكلة – إلى حد ما – يكون بالتعرف على ما يندرج، أو لا يندرج تحت عنوان الفعل الإرهابى[1].

والحد الأدنى من التعريفات المتعددة للإرهاب هو أنه القيام بإفزاع الآخرين، وبث الخوف فى نفوسهم بأية وسيلة. وقد قفز وتتردد – على المستوى العالمى بعد أحداث سبتمبر – اسم «الإرهاب»، والقضاء على الإرهاب، وهذا يعنى القضاء على الإرهابيين، والمصادر التى تمدهم بعناصر البقاء والقوة.

* * *

وإذا كان هذا هو مفهوم الإرهاب فى حده الأعلى وحده الأدنى، وإذا كان أهل الإفك يتهمون الإسلام بالدعوة إلى الإرهاب والحث عليه وتشجيعه، فإن نقض هذا الادعاء يقتضينا العودة إلى الجذور، والمرجعية الإسلامية الأصيلة المتمثلة فى القرآن والسنة وعمل السلف الصالح.

لقد خلق الله الإنسان وكرمه، وسخر له ما فى الأرض جميعًا، وجعل حياته متوقفة على تحقيق أمرين:

الأول: إشباع الحاجات المادية من طعام وشراب وملبس ومسكن وغير ذلك، وما يتعلق به مما يختلف باختلاف العصور.

والثانى: إشباع الحاجات النفسية، كالشعور بالطمأنينة، والأمان، والاستقرار، والسلام.

وهذا ما عبرت عنه سورة من أقصر السور المكية، ومن أولياتها نزولاً، وهى سورة قريش. يقول تعالى: ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [سورة قريش] .

والنظر المتأنى لهذه السورة يقودنا إلى تبين الحقائق الآتية:

(١) أن المذكورات فيها جاءت على سبيل التمثيل لا الحصر، فذكر الطعام تمثيلاً للحاجات المادية، وذكر الأمان والشعور بالطمأنينة تمثيلاً للحاجات النفسية، يدل على هذا ما ذكر فى سور وآيات أخرى من ألوان النعم المتعددة: كإنزال الماء، وتسخير الأرض

(١) انظر: أريك موريس: الإرهاب: التهديد والرد عليه ٣٥.

للزراعة، والبحر للتنقل، ومصدر من مصادر الطعام والحلى، والزواج لحفظ النوع واستشعار المودة والرحمة والاستقرار والسكينة، وغير ذلك كثير وكثير.

(٢) أن الآيات ربطت بين تحقيق هذه الحاجات والسعى والتنقل والعمل، وذلك على سبيل الإشارة إلى رحلة الشتاء والصيف.

(٣) أن الآيات ربطت هاتين النعمتين: المادية والنفسية بقيمة روحية عليا هى العبادة.. عبادة الله دون سواه، ويستنأس لهذه القيمة بأن الله قد جعل البيت مثابة وأمنًا. قال تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [القصص: ٧٥] وأن هاتين النعمتين كانتا استجابة لدعوة إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٥] ... ﴿ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ....

وكان أهل مكة تجاراً، يتعاورون ذلك شتاء وصيفًا، آمنين فى العرب، وكانت العرب يغير بعضها على بعض، ويقطعون طريق القوافل. وكان القريشيون إذا رحلوا قالوا نحن من حرم الله، فلا يعرض لهم أحد فى الجاهلية[١].

والشعور بالطمأنينة والأمان والسلام النفسي يمنح الإنسان طاقة قوية للعمل والإنتاج، والتقدم. وفى هذا المعنى يقول ديورانت:.. والحضارة تبدأ حيث ينتهى الاضطراب والقلق، لأنه إذا أمن الإنسان من الخوف تحررت فى نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهض للمضى فى طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها[٢].

وجعل الله سبحانه وتعالى إشعار الآخرين بالآمن والطمأنينة، وتأمين سلامتهم فرضًا على المسلمين، حتى لو كان الآخرون مشركين، ما لم يتعرضوا للمسلمين بحرب أو إيذاء. يقول تعالى: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٦].

واستجارك: طلب منك أن تكون له جاراً، أى محاميًا ومحافظًا من أن يظلمه ظالم، أو يتعرض له متعرض. ومعنى الآية: يا محمد إن استجارك أحد من المشركين الذين

---

(١) أنظر تفسير الطبرى ٣٠ / ٣٩٨.

(٢) قصة الحضارة ١ / ٤.

أمرت بقتالهم، فأجره، أى كن جاراً له، مؤمنًا محاميًا، حتى يسمع كلام الله منك، ويتدبره حق تدبره، ويقف على حقيقة ما تدعو إليه، ثم أبلغه مأمنه، أى إلى الدار التى يأمن فيها بعد أن يسمع كلام الله إن لم يسلم(١).

وتنقل لنا أخبار السيرة أن النبى ﷺ أمن أهل مكة مرتين:

المرة الأولى قبل أن يدخلها، إذ طلب من أبى سفيان أن يبلغ أهل مكة أن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن(٢).

والمرة الثانية بعد أن دخل المسجد الحرام، واجتمع عليه الناس، وخطب فيهم. وفى آخر خطبته قال: يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً؛ أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: ا ذهبوا فانتم الطلقاء(٣).

* * *

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يروِّع مسلم مسلمًا - على سبيل الجد أو الهزل. فعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: حدثنا أصحاب رسول الله ﷺ: أنهم كانوا يسيرون مع رسول ا لله ﷺ فى مسير، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى نبل معه، فأخذها، فلما استيقظ الرجل فزع، فضحك القوم، فقال: ما يضحككم؟ فقالوا: لا إلا أنا أخذنا نبل هذا ففزع، فقال رسول الله ﷺ «**لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا**»(٤).

وقد يقال: كيف يستقيم هذا مع قول النبى ﷺ من حديث له« .. **نصرت بالرعب مسيرة شهر**»(٥). ألا يفهم من هذا أنه ترويع للآمنين؟ وتدبر الحديث فى ظل منهج النبى ﷺ تشريعًا وسلوكًا ينفى هذا الفهم العجلان. إذ المقصود بالحديث أنه ﷺ كان له من الهيبة والقدرة والحزم والعزم ما يجعله مخشيًا فى نظر أعدائه، فلا يقدمون على قتاله.

---

(١) الشوكانى: فتح القدير ٢ / ٤٢٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ٤٠٣.

(٣) السابق ٢ / ١٢.

(٤) مسند أحمد بن حنبل ١٦ / ٥١٣ - حديث ٢٢٩٥٩. وهناك روايات أخرى، وألفاظ مشابهة فى سنن أبى داود ٤ / ٣٠٣. حديث رقم ٥٠٠٣، ورقم ٥٠٠٤.

(٥) أنظر الحديث بتمامه فى البخارى: كتاب الجهاد. ومسلم كتاب المساجد

ويقول ابن حجر «وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق، حتى لو كان وحده بغير عسكر. ويتساءل ابن حجر: وهل هى حاصلة لأمته من بعده؟ ويأتى جوابه فى كلمة واحدة: احتمال[1].

وما نظر إليه ابن حجر على أنه احتمال كان فى الواقع حقيقة متمثلة فى بعض القادة العباقرة الأقوياء، لعل أشهرهم **خالد بن الوليد** الذى سبقه اسمه إلى أطراف الدولتين، فحارب أعداءه بهيبته، قبل أن يحاربهم بسيفه، وكانت هذه أول مزية لاختياره، وأول فضل يحسب له فى ميزانه، ويضاف إلى قيادته، ويعمل عمله فى نفوس أعدائه، كما يعمل عمله فى نفوس أتباعه.

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره إليه «أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أصمد فى حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعونى، وصالحوا القوم».

وكان الرجل من العرب يعيش فى الشام، ويهجر موطنه الأول، ولكنه يسمع باسم خالد، ويتلقى أنباءه من وراء المهامه [2]. والدروب، فما هو إلا أن ينضوى إليه حتى يوقن بيمن طائره، ويسرع إلى طاعة أمره، عليماً بأنه لا يأمر الأمر إلا وهو قادر على إنجازه. كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمرّد:

إذا قال سيف الله كُرّوا عليهمُ

إذا قال سيف الله كُرّوا عليهمُ كررتُ بقلبٍ رابطِ الجأشِ صارمِ[3].

فهى إذن «الهيبة» النابعة من قوة الإيمان واليقين، والثقة بالنفس، والاستهانة بالموت، ويأخذ القائد مكانه فى قلوب الأعداء خوفًا وخشية، وفى قلوب أنصاره وأتباعه ثقة وتقديراً. هى الهيبة السوية، وليست القهر، والإفزاع العدوانى، والإرهاب الظالم، وما يتبعه من تخريب وإفساد، وتدمير.

* * *

وينهى رسول الله ﷺ المؤمن أن يستشعر الخوف والرهبة فى حضرة من هو أعظم

---

(١) فتح البارى ١ / ٥٢١.

(٢) المهامه: جمع مهْمه، وهى الصحراء البعيدة، والبلد المقفر.

(٣) العقاد: عبقرية خالد ١٦٣ - ١٦٤.

وأقوى منه. ويروى أنه ﷺ رأى رجلاً بدا عليه الخوف والرهبة بين يديه، فقال له: هون عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»(1).

* * *

ويتسع هذا المفهوم الإنسانى الكريم للتعامل مع الحيوان الأعجم، ومن أعجب ما يروى فى هذا الباب أنه عليه الصلاة والسلام حينما زحف بالألوف لفتح مكة، رأى كلبة تهر(2). على أولادها، وهن حولها ترضعهن، فأمر «**جعيل بن سراقة**» أن يقوم حذاءها حتى لا يفزعها الجيش الزاحف عن أولادها، أو يفزع أولادها عنها(3).

ومن الأحاديث الجامعة فى مجال «الإحسان» ما روى عن شداد بن أوس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»(4).

فحتى لا تروع البهيمة قبل الذبح أمر رسول الله ﷺ بحد الشفار - أى شحذها - وأن توارى عن البهائم، أى لا تراها البهيمة حتى لا تفزع، وللسبب نفسه ألا تذبح ذبيحة بحضرة الأخرى(5).

* * *

وقد يعن لمن يتهم الإسلام بالحث على الإرهاب أن يحتج بقوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والآية يجب ألا تفسر فى ضوء المفهوم الآلى السائد حاليًا للإرهاب، فيقال أنها تدعو المسلمين إلى الإرهاب والتخريب والتدمير والعدوان. إنما هى مجرد أمر صريح للمسلمين بأن يكونوا على أهبة الاستعداد دائمًا بكل ما يستطيعون من قوة وسلاح، وهى دعوة

(١) سنن ابن ماجه. كتاب الأطعمة، باب القديد ٣/ ١٧١.
(٢) الهرير: صوت الكلب فيه خوف وحزن.
(٣) المقريزى: امتاع الأسماع ٣٦٦.
(٤) رواه مسلم: كتاب الصيد - باب الأمر بإحسان الذبح والقتل. وتحديد الشفرة ٤/ ٦٢٢ حديث ١٩٥٥.
(٥) أنظر: الوافى فى شرح الأربعين النووية لمصطفى البغا ١٢٠ - ١٢١.

متجددة للمسلمين فى كل زمان ومكان، حتى يكون لهم هيبهم ومكانتهم، فيخشاهم أعداؤهم، ولا يقدموا على العدوان عليهم، سواء أكان هؤلاء الأعداء ظاهرين معروفين، أم كانوا أعداء يعملون فى الخفاء، ولا يعلنون صراحة عداوتهم للمسلمين.

وهذا «الإعداد الجاد المتكامل» يحقق هدفين قيمين:

الأول: حماية الدولة الإسلامية، وكسر العدو إذا ما اعتدى عليها، أو هدد حدودها.

والثانى: تحقيق ما يسمى حديثًا «بقوة الردع» فيكون هذا الاستعداد فى صف السلام، ولمصلحته، إذ يمنع العدو الظاهر والخفى من العدوان وشن الحرب على دولة قوية كاملة الإعداد.

ولما كان إعداد العدة يقتضى أموالاً، وكان النظام الإسلامى كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال فى سبيل الله، «وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم، وأنتم لا تظلمون»، وهكذا يجدد الإسلام الجهاد والنفقة فى سبيله من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصى، ومن كل شعور قومى أو طبقى ليتمخض خالصًا لله، فى سبيل الله، لتحقيق كلمة الله، ابتغاء رضوان الله[1].

* * *

وباستقراء الماضى وواقع الحاضر الذى نعيشه نجد أن الإرهاب يصدق على مفهومين:

الأول هو الإرهاب بمفهومه النفسى: وهو فى صورته السوية يعنى إشعار الآخرين بقيمة الدولة وهيبتها حتى لا يقدم أعداؤها على العدوان عليها، فهو يشكل «قيمة ردع» فى صف إقرار السلام. وهذا ما دعت إليه آية الأنفال.

أما الإرهاب النفسى الذى يمثل تهديداً للأفراد والشعوب، وإفزاعها، وجعلها فى خوف واضطراب دائمين، وهذا ما لا يقره الإسلام الذى جاء نبيه للناس جميعًا رحمة مهداة. ولم تشرع فيه الحرب إلا لإقرار الحق والعدل والسلام، فهى دائمًا «فى سبيل الله». ورحم الله عمر بن الخطاب إذ قال «لوددت أن بيننا وبين الفرس الروم جبلاً من نار، فلا يصلون إلينا، ولا نصل إليهم».

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن ٣/١٥٤٤.

والثانى هو الإرهاب بمفهومه المادى الفعلى: وهو المفهوم العرفى السائد الآن، فهو لا يطلق على المعنى النفسى، ولكن على الفعل المادى: أى استعمال العنف اللا إنسانى فى التعامل مع الآخرين. وأوضح أمثلته ما تفعله إسرائيل مع الفلسطينين من قتل النساء والأطفال، ونسف البيوت، وتجريف الأرض وقطع الأشجار وخلعها من جذورها، وكذلك ما تفعله الولايات المتحدة فى أفغانستان من قتل المدنيين بالطائرات، واستخدام قنابل تبلغ زنة الواحدة منها عدة أطنان، زيادة على صواريخ كروز التى كانت تطلق من البوارج الحربية البحرية من خارج أفغانستان.

أما الإسلام فيحرم على الجندى المسلم - إذا قاتل أعداءه: الخيانة، والغدر، والغلول (النهب)، والتمثيل بالجثث، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، والرهبان المنقطعين للعبادة، وقتل البهائم، والتخريب بقطع النخل والشجر، وحرق المواطن والمنازل، ومعصية الله فى السر والعلن [١].

* * *

وقد أخذ المسلمون أنفسهم بهذه التوجيهات الإنسانية فى حروبهم وفتوحاتهم، وتعاملهم مع الآخرين، بينما عاش الغرب على العدوان الذى يعجز القلم عن وصفه. وهو عدوان لم يتوقف على مدى التاريخ، ويؤكد هذا الحكم ما ارتكبه الصليبيون من جرائم عندما اقتحموا بيت المقدس. **ونترك ابن الأثير يصف ما حدث.. وكان ذلك فى أواخر شعبان سنة ٤٩٢هـ**... وركب الناس السيف، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعًا، يقتلون فيه المسلمين، وقتلوا فى المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة للمسلمين وعلمائهم، وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف... وأخذوا من عند الصخرة نيفًا وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه اربعون رطلاً بالشامى، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفًا وعشرين قنديلاً، وغنموا منه مالا يقع عليه الإحصاء[٢].

ومن أغرب ما ذكره ابن الأثير أن القسيسين من الصليبيين أخذوا يقتطعون قطعًامن

---

(١) ارجع إلى وصية أبى بكر لبعث أسامة: تاريخ الطبرى ٣/٢٢٧ ووصيته ليزيد بن أبى سفيان: فتوح الشام للواقدى ١١.

ووصية عمر بن الخطاب لقادته عند عقد الألوية لهم: أدب الخلفاء الراشدين: جابر قميحة ١١١.

(٢) الكامل ٩/١٩.

صخرة الأقصى، ويبيعونها للفرنج الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة، يشترونها بوزنها ذهبًا رجاء بركتها، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة، ويجعل فى مذبحها(١).

فما قام به الصليبيون يمثل عدوانًا وحشيًا دمويًا سافرًا، ولم يكن حرب مواجهة بين جيشين، لقد قتلوا فى المسجد سبعين ألف مسلم، منهم الأئمة والعلماء والعبّاد والزّهاد، ونهبوا محتويات المسجد، وممتلكات الناس، واقتطعوا أجزاء منه بنوا فيها مساكن ومخازن ومراحات(٢).

* * *

وبعد هذه المأساة بواحد وتسعين عامًا هزم صلاح الدين الصليبيين فى حطين هزيمة نكراء، وفر عشرات الآلاف منهم إلى القدس حتى اجتمع منهم قرابة ستين ألفًا.. وعقدوا لواء القيادة لفارسهم «**باليان ده إيبالين**»، وهو من الذين تمكنوا من الهرب من حطين، وأمده البطريرق الصليبى فى القدس بما تحتاجه الحرب، حتى لقد جمع له سبائك الذهب والفضة، بل وزينة الكنائس، ولم يستثن من ذلك الذهب والفضة التى زينوا بها قبر المسيح(٣).

وفى سنة ٥٨٣ زحف صلاح الدين إلى بيت المقدس.. وحاصرها، ونصب المجانيق خارجها.. وبدأ النقابون ينقبون أسوارها، فعلا صراخ الصليبيين وبكاؤهم داخل المدينة، وألقى كثير منهم السلاح خوفًا ورهبة، فاتفق رأيهم على طلب الأمان من صلاح الدين، وتسليم بيت المقدس، واستشار صلاح الدين أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم للأمان، وعقدت اتفاقية يوم الجمعة ٢٧ من رجب ٥٨٣.

وظهرت إنسانية صلاح الدين فى التعامل مع الصليبيين فى المظاهر الآتية:

(١) أعطى صلاح الدين للصليبيين مهلة طويلة للخروج من بيت المقدس مدتها

---

(١) الكامل ١٠/١٥٨.

(٢) انظر تفصيلاً فى موسوعة السياسة ٤/٧٦٣ - ٧٦٨.

(٣) انظر السابق ٤/٧٦٨.

ومن حقنا أن نقول أن هذا المال الهائل لم يكن لكلفة الحرب بقدر ما كان رشوة للقائد الصليبى حتى يثبت ويقودهم للنصر.

أربعون يومًا، ولهم الحق أن يحملوا معهم ما يشاءون من أموالهم وأملاكهم - عدا السلاح والخيل -، وسمح لهم أن يبيعوا ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم، وذخائرهم، وأموالهم وعقاراتهم.

(٢) وللخروج على كل صليبى أن يدفع مبلغًا زهيداً هو عشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، وديناران للطفل.

(٣) أمّن نساء ملوك الفرنجة وأمرائهم، وسمح لهن بالخروج ومعهن من الخدم والحشم والعبيد والجوارى، والأموال، والجواهر النفيسة الكثير والكثير.

(٤) أطلق ملكة القدس، ومعها خدمها، وحشمها، وأموالها وكان زوجها يحكم نيابة عنها، وأسره صلاح الدين، وحبسه بقلعة نابلس، فأستأذنت صلاح الدين فى المصير إلى زوجها هناك فأذن لها، وأقامت عنده.

(٥) كان صلاح الدين قد قتل أرناط « رينودى شاتيون » بيده بعد أسره، لأنه خان الميثاق الذى عقده معه، وقام بقتل أسرى المسلمين، وهدد بالزحف إلى المدينة، ونبش قبر الرسول ﷺ . فأتته زوجته، فشفعت فى ولد لها مأسور فوافق صلاح الدين بشرط أن يسلم الصليبيون له قلعة الكرك، فسارت إلى الكرك، ومعها أموالها، وعبيدها، وحشمها، ولكن الفرنجة رفضوا طلبها.

(٦) سمح بخروج البطرك الأكبر، ومعه من الأموال والمتاع ما يصعب وصفه وإحصاؤه. وأشار عليه بعض قواده أن يأخذ ما معه ليقوى به المسلمين، فرفض، وقال: « لا أغدر به أبداً ». ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير كأى صليبى من عامة الناس.

(٧) وخوفًا على الخارجين من قطاع الطرق أرسل معهم قوة من جيش المسلمين تحميهم إلى أن يصلوا إلى مدينة « صور »[1].

مع أن « صور » كانت مركزًا من مراكز الصليبيين، ووصول هؤلاء إليها يزيد من قوتهم وقدرتهم على التصدى لصلاح الدين.

(٨) أما النصارى من أهل القدس - الذين ليسوا من الفرنج - فقد طلبوا من صلاح

---

(١) لم يقدر هؤلاء الصليبيون اللاجئون إلى « صور » سماحة صلاح الدين، فانضموا إلي حاميتها، فاستعصى فتحها على صلاح الدين، وقتل من جنوده كثيرون عند حصارها. ومات صلاح الدين دون فتحها. وقد نقد ابن الأثير صلاح الدين فى إفراطه فى التسامح، وتضييعه الحزم. (الكامل ١٠ / ١٦١).

الدين أن يسمح لهم بالمقام فى مساكنهم، ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاستقروا، واشتروا من الفرنجة ما لم يستطيعوا حمله من أملاكهم ومقتنياتهم.

* * *

وبعد هذا الخروج الكبير باشر صلاح الدين بنفسه إعادة المدينة المقدسة إلى طهرها، ونقائها، وعمارها، وأمر- كما يقول ابن الأثير - «بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس» . وأزال المساكن والمخازن والمراحات التي بناها الفرنجة غربى الأقصى، وعلى أرض من حرمه . ولما كان الجمعة الأخرى (٤ من شعبان ٥٨٣) صلى المسلمون فيه الجمعة، ومعهم صلاح الدين ، وصلى في قبة الصخرة . . ثم رتب فيه خطيبًا وإمامًا برسم الصلوات الخمس . . وأمر بإحضار المنبر الذي كان نور الدين محمود قد صنعه من عشرين عامًا للمسجد، ومات دون أن يتحقق أمله في نقله إلى المسجد . وأمر بعمارة المسجد الأقصى، واستنفاد الوسع في تحسينه، وترصيفه، وتدقيق نقوشه، «فأحضروا من الرخام الذي لا يوجد ، ومن الفص المذهب القسطنطينى، وغير ذلك مما يحتاجون إليه».

وأظهر الصخرة المقدسة بعد أن فرش الفرنجة الرخام فوقها ووضع هلالاً ضخما مكان الصليب الذهبي الكبير فوقها.

وأقام ببيت المقدس إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس والإنشاءات المختلفة[1].

***

وهذا العرض التاريخي لمظاهر الإجرام الصليبي عند اقتحام بيت المقدس، ومظاهر الإنسانية عندما استعادها صلاح الدين الأيوبي، واضح الدلالة على التناقض الشاسع بين منهجين : منهج العدوان والوحشية والإرهاب، ومنهج الحق والسماحة والرحمة والإنسانية ، وهي قيم تمثل ركائز قوية في الإسلام الحنيف.

ولكن هناك من المواقف والأحداث العابرة مالا يتوقف عنده كثير من المؤرخين على قوة تأكيده لطبيعة المنهجين، نذكر منها في هذا السياق ما قام به صلاح الدين عندما

---

(١) نظر : الكامل ١٠ /١٥٤ - ١٦٠

وموسوعة السياسة ٤ /٧٦٨.

وصلاح الدين الأيوبي - للدكتور عبد المنعم ماجد، ١٢١.

علم بمرض خصمه الملك ريتشارد (قلب الأسد)، وبأنه بحاجة إلى بعض الفاكهة والبلح حتى بادر بما يحتاج من ذلك ، فلما استرد صحته عاود الحرب ضد صلاح الدين.

وكانت هذه الإنسانية هي طابع أخلاق صلاح الدين في تعامله مع عامة الصليبيين كذلك ، فعندما كان يحاصر حصن الكرك أمر بقصف الحصن بالمنجنيقات، ولكن الأضواء، وأصوات الغناء كانت تصعد وتتردد من أحد الأبراج، إنه حفل عرس، وأرسلت أم العريس رسولاً يحمل بعض طعام العرس لصلاح الدين، وفي بادرة إنسانية تترفع عن الهمجية دون تفريط فى واجب الجهاد أمر صلاح الدين بإيقاف قصف هذا البرج الذي يقام فيه حفل العرس.

وعلى النقيض من هذه الإنسانية الدفاقة نرى مسلك ريتشاد بعد دخوله عكا عام ١٢٩١م إذ سرعان ما نسى شروط الأمان التي منحها لحاميتها المسلمة بناء على اتفاقية تسليم وتأمين، وقام بالقبض على أكثر من ثلاثة آلاف مسلم، وساقهم إلى تل قريب، وقتلهم عن آخرهم طعنًا بالرماح، وضربًا بالسيوف[١].

***

والذين اتهموا ويتهمون الإسلام والمسلمين بالإرهاب يقعون في مستنقع الخطأ والخطيئة والمغالطة؛ لأنهم قرءوا – ويقرأون التاريخ الإسلامي بعين عوراء، وأنفاسهم مثقلة بركامات من الحقد الأسود والتعصب الأعمى. ويسقطون من التاريخ الإسلامي، وواقع الأمة الإسلامية صفحاته الوضيئة في السياسة والعلم والسماحة ، والسلوك الإنساني، والتقدم الحضارى.

كما أن هؤلاء يلجأون إلي التعميم الغالط، واستخلاص أحكام عامة من الوقائع الفردية التى لا يمكن أن تمثل ظاهرة : فإذا لجأ مسلم إلى عنف غير مشروع، حكموا على الإسلام بأنه دين إرهاب، وبأن المسلمين إرهابيون بطبيعتهم. فهم يصدرون الأحكام، ويحددون المعايير بميزان تختل إلى درجة التخبط الأعمى، والتناقض الفادح. ولعل فلسطين ، وما يحدث فيها تمثل أصرخ مثال في هذا السياق :

فالاستعمار الاستيطاني الصهيوني لأرض فلسطين . . أرض المسرى، إنما هواسترداد

---

(١) انظر للدكتور أحمد الصاوي : مقالاً بعنوان : ومضات إنسانية من الحروب الصليبية. ص ٢٨ – ٣١ من مجلة القدس القاهرية . العدد ٢٧ – مارس ٢٠٠١.

لحق يهودى تاريخي ثابت !!! أما العرب أصحاب الأرض فلا حق لهم فيها، وعليهم أن يعيشوا مطاريد غرباء، ومشردين ضائعين، أو صرعى عدوان آثم متواصل لا يرثى لهم أحد.

ودفاع الشعب الفلسطيني عن أرضه وشرفه وحقه إرهاب يجب أن يحارب، ويغتال المدافعون والمجاهدون، ويقتل النساء والأطفال. أما المذابح التي يرتكبها الإسرائيليون بالطائرات والصواريخ، والمدفعية، والدبابات، فهو دفاع مشروع عن النفس.

وهذا المنهج ليس جديداً على إسرائيل دولة العدوان والإرهاب، وإلي القارىء بعض مفردات قائمة الإرهاب الصهيوني على مدى نصف قرن:

١- مذبحة قرية «الشيخ» التي ارتكبتها عصابة «الهاجاناه» مساء يوم ٣١ من ديسمبر عام ١٩٤٧، راح ضحيتها ستون شهيداً من أهل البلدة، وجدت جثث أغلبهم داخل منازلهم. ودخلت القرية في أملاك إسرائيل باسم عبري جديد هو «تل غنان».

٢- مذبحة قرية «سعسع» التي ارتكبها الصهاينة، فقاموا بنسف عشرين منزلاً فوق رؤوس ساكنيها.

٣- مذبحة قرية «أبو كبير» التي ارتكبتها عصابة «الهاجاناه» يوم ٣١ من مارس عام ١٩٤٨، وفيها قتل كل من حاول الفرارمن أهل القرية.

٤- مذبحة «دير ياسين» التي ارتكبتها عصابتا «أرجون» و«الهاجاناه» في ٩/٤/١٩٤٨. وهى تقع على أطراف مدينة القدس، وأسفرت عن ذبح ٢٥٠ عربياً، وجرح عدد مماثل معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ، والذين لم يقتلوا من أهل القرية اقتديوا فى سيارات نقل إلى الأحياء اليهودية من القدس، حيث استعرضوا أمام الجمهور الصهيوني الذي أخذ برميهم بالحجارة. وتولى كبر هذه المذبحة «مناحم بيجين» الذى أصبح رئيساً للوزراء في إسرائيل ابتداء من يونيو ١٩٧٧.

وكان الهدف الرئيسى من هذه المذبحة إرهاب الفلسطينيين، وترويعهم حتى يتركوا بيوتهم وأرضهم، وقدتحقق الهدف الذي حرص الصهاينة على تحقيقه.

٥- مذبحة قرية «أبوشوشة» في ١٤/٥/١٩٤٨، وقام بها جنود لواء من الجيش النظامى، واستشهد فيها خمسون مدنياً، بإطلاق الرصاص، وضرب الرءوس بالبلط.

٦- مذبحة «اللد» فى ١١/٧/١٩٤٨، ارتكبتها وحدة «كوماندوز» إسرائيلية بقيادة موشى ديان، وحينما حاول بعض المدنيين الاحتماء فى المسجد، فلاحقهم اليهود، وقتلوا منم ١٧٦ مواطنًا، وكانت الحصيلة النهائية ٤٢٦ شهيداً.

ثم جمع الصهاينة من بقى حيًا من أهل «اللد» في ملعب المدينة، وأمروهم بمغادرة البلدة فوراً سيراً على الأقدام، مما أدى إلى وفاة كثير منهم جوعًا، وعطشًا ورعبًا، وإرهاقًا.

٧- مذبحة قرية «علبيون» في ٢٩/١٠/١٩٤٨ التي اقتحمها الجيش الإسرائيلى، وجمعوا المدنيين في ساحة البلدة، وأخذوا يطلقون النارعليهم من كل الجهات.

٨- مذبحة «قلقيلية» في ١٠/١٠/١٩٤٨فتحت حماية القوات النظاميةهاجمت أعداد كبيرة من المستوطنين الإسرائيليين هذه القرية، ثم استخدمت الطائرات والمدفعية لقصفها، وسقط فى المذبحة سبعون شهيداً.

٩- مذبحة قرية «شرفات» في ٧/٢/١٩٥١،التى هاجمها فصيل من الجيش الإسرائيلى، وبث في القرية عدداً كبيراً من الألغام أدت إلى قتل كثير من أهل القرية، وخصوصًا النساء والأطفال.

١٠- مذبحة قرية «نلة» التي هوجمت في ٩/٢/١٩٥١، وتسلل أحد اليهود، فقتل في بيت واحد رجلاً وطفلاً وطفلة، وعاد إليها اليهود من جديد في هجوم ثان، فقتل وجرح عدد كبير من سكانها.

١١- مذبحة قرية «قبية» التي ارتكبا الجيش الإسرائيلي علي مدى ١٦ ساعة ابتداء من ليلة ١٤/١٠/١٩٥٣. وفي هذه المذبحة سقط من المدنيين ٦٧ شهيداً، ودمر مسجد القرية، وخزان المياه، وستة وخمسون منزلاً.

١٢- مذبحة «كفر قاسم»، وهي من أغرب المذابح التى ارتكبها اليهود. وكانت الحكومة الإسرائيلية قد فرضت حظر التجول علي الأهالي ابتداءً من السادسة مساءً. وفي ٢٨/١٠/١٩٥٦ أصدر اليهود أمراً لعمدة البلدة أن يكون حظرالتجول ابتداء من اليوم في الخامسة مساء - لا السادسة - (وصدر هذا الأمر في الخامسة إلا الربع)، وقد تعود الفلاحون العودة من حقولهم إلي بيوتهم في السادسة إلا الربع، وليس

هناك متسع من الوقت لكى ينقل إليهم العمدة الأمر الجديد . وعاد الفلاحون إلى بيوتهم كالعادة بعد الخامسة ، وقبل السادسة ، فاعتبروا مخالفين لأمرعسكري (لم يبلغ إليهم) وعلي أبواب القرية ، وقفت قوة من ضابطين، وعشر جنود إسرائيليين، وفتحوا مدافعهم الرشاشة علي الفلاحين الأبرياء، فاستشهد منهم سبعة وخمسون ، وجرح سبعة وعشرون، وكان من الشهداء طفل وسبع عشرة امرأة .

١٣ – مذابح المخيمات التي ارتكبها الجيش الإسرائيلى ضد اللاجئين الفلسطينيين في المخيم الرئيسي بمدينة خان يونس يوم ٣ / ١١ / ١٩٥٦ وسقط فيها أكثر من ٢٥٠ شهيداً فلسطينياً .

وتكررت المذبحة يوم ١٢ / ١١ / ١٩٥٦ ، واستشهد فيها ٢٧٥ فلسطينيًا .

وفي اليوم نفسه زحف الإسرائيليون – بعد المذبحة السابقة مباشرة – إلى مخيم رفح للاجئين ، وقتلوا أكثر من مائة لاجىء .

١٤ – مذبحة « صابرا وشاتيلا » يومي ١٨ ، ١٩ من سبتمبر ١٩٨٢ وراح ضحيتها أكثر من ٣٥٠٠ من الفلسطينيين المدنيين أغلبهم من النساء والأطفال والشيوخ، وقد خطط للمذبحة ، وأشرف عليها رئيس الوزراء الإسرائيلي الحالي « إرييل شارون » .

١٥ – مذبحة المسجد الأقصى في ٨ / ١٠ / ١٩٩٠ ، وسببها تصدي المصلين للمتطرفين اليهود الذين يطلق عليهم « جماعة أمناء الهيكل » عندما حاولوا وضع حجر الأساس لما يسمونه، بالهيكل الثالث « فى ساحة الحرم القدسى »، وحضرت قوات من الجيش الإسرائيلى، وأخذت تطلق النار بشكل عشوائى على المصلين، وكانت الحصيلة استشهاد ٢١ مدنياً، وجرح ١٥٠ ، واعتقال قرابة ٣٠٠ .

١٦ – مذبحة « الحرم الإبراهيمى » فجر يوم ٢٥ / ٢ / ١٩٩٤ ، وهى تلك التى ارتكبها الإرهابى الصهيونى « باروخ جولد شتاين »، ومجموعة من مستوطنى مستوطنة « كريات أربع »، وقد أطلقوا النار على المصلين، وهم سجود، فسقط فى المسجد خمسون شهيداً .

١٧ – مذبحة « قانا » فى ١٨ / ٤ / ١٩٩٦ التى ارتكبتها المدافع والمروحيات الإسرائيلية، وراح ضحيتها ١٦٠ مدنياً لبنانيًا، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ .

وقد تمت هذه المذبحة بقصف ثكنة من ثكنات قوات الأمم المتحدة جنوب لبنان لجأ إليها واحتمى بها اللبنانيون .

١٨- مذبحة النفق فى الأيام من ٢٥ إلى ٢٧ من سبتمبر ١٩٩٦، وقد راح ضحيتها سبعون شهيداً فلسطينيًا برصاص جنود الاحتلال الإسرائيلى، بسبب احتجاج الفلسطينيين، ورفضهم فتح نفق يهدد أساسيات المسجد الأقصى .

وتطول بنا المسيرة لو رحنا نتتبع المذابح الإسرائيلية بعد ذلك، وقد تطورت آليات الإرهاب الإسرائيلى، ومن صوره احتلال مناطق جديدة، ونسف بيوت الفلسطينيين، وجرف أراضيهم، واستخدام المروحيات، والطائرات الأمريكية والإسرائيلية (F.16)، والاغتيال بالصواريخ، ونسف مقار الحكومة والسلطة الفلسطينية، وأبراج الإذاعة والتلفاز، وخزانات المياه، ومحطات الكهرباء .

والإسرائيليون لا يصدرون فى مذابحهم وعدوانهم الوحشى إلا عن تعصب ذميم، وحقد أسود، يدل على ذلك الحوار الصحفى التالى الذى أجراه أحد الصحفيين مع بعض العسكريين الذين اشتركوا فى مذبحة كفر قاسم سنة ١٩٥٦ . ومن هؤلاء الضابط اليهودى « مالنكى » .

س : هل أنت نادم على ما فعلت؟

جـ: بالعكس لأن الموت لأى عربى فى إسرائيل معناه الحياة لأى إسرائيلى . والموت لأى عربى خارج إسرائيل معناه الحياة لإسرائيل كلها . . فالعمل الذى قمت به واجب دينى ووطنى .

أما الملازم « غبريال دهان » : فدار معه الحديث التالى :

س : كم عربيًا اصطدت فى المجزرة؟

جـ: ثلاثة عشر فقط .

س : ماذا كان شعورك أثناء المجزرة؟

جـ: كنت معطشًا للدم العربى، وقد شربت حتى سكرت .

س : هل فى نيتك معاودة الشرب؟

جـ: إذا سمحت الظروف.

وسئل الشاويش «شالوم».

س: كم عدد ضحاياك فى المجزرة؟

جـ: خمسة عشر فلسطينيًا، لقد ضربت الرقم القياسى، وكان حظى أحسن من زملائى فى اختيار المكان الذى وقفت فيه[1].

* * *

وما باح به هؤلاء العسكريون الثلاثة لا غرابة فيه لأنه تمثيل صادق أمين لطبيعة الشخصية الصهيونية المفطورة على الإثم والإرهاب والعدوان، كما أنه تمثيل حقيقى للواقع الدامى الذى يعيشه الشعب الفلسطينى الآن تحت وطأة إجرام إسرائيلى يومى لا ينقطع. وهو إجرام يطور وسائله وآلياته لاستخدام ما هو أشد فتكًا وتدميراً وإرهاباً.

وآخر ما نقلته الصحف ووكالات الأنباء من استخدام إسرائيل فى قمع انتفاضة الشعب الفلسطينى ذخائر الكترومغناطيسية تطلق أحزمة إشعاعية تحرق الأجسام، وأسلحة تعمل بالليزر، والموجات الصوتية، وتحت الصوتية، تؤدى للإصابة بحالة شلل واحتراق..، وكذلك استخدام الألغام المضادة للأفراد التى يجرى تفجيرها عن بعد لقمع المتظاهرين الفلسطينيين ضد الاحتلال... وكوكتيل من غازات الأعصاب ضد الشعب الفلسطينى فى جنوب قطاع غزة.

وأشار تقرير عربى إلى أن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية بدأت بالاستعداد لإمكانية نشوب حرب كيماوية، وبيولوجية، كما أشار التقرير إلى أنه أقيمت فى هذا السياق ندوة شارك فيها نحو مائة ضابط كبير من الشرطة، وقادة المناطق تحت إشراف قادة المخابرات الأمريكية، وممثلون من عدة هيئات أمنية أمريكية... وقد تم الإيعاز إلى مصانع السلاح الكيماوى ومختبراته بإنتاج معدات تسمى أدوات الموت النظيف والأفرس إشعاعيًا، وكيماويًا[2].

---

(١) انظر: موسوعة السياسة ٢/٧٣٩، ٥/١٢٧.
والطريق إلى بيت المقدس «القضية الفلسطينية منذ عهد آدم وحتى عام ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩. د. جمال عبد الهادى، د. وفاء رفعت: ٣٢٦ - ٣٣٣. وانظر مقال: السجل الأسود للإرهاب الإسرائيلى. لمرسى عطا الله - الأهرام ٢٩/١١/٢٠٠١.

(٢) الوفد (٩/١٢/٢٠٠١).

وبعد ذلك تزعم إسرائيل وأمريكا ودول الاتحاد الأوروبى أن الجماعات التى تدافع عن الأرض والممتلكات و الشعب الفلسطينى – وخصوصًا جماعتى حماس والجهاد – جماعات إرهابية يجب ضربها، والقضاء عليها قضاء مبرمًا.

ونتساءل مع الأستاذ محمد عبد المنعم: هل هناك إرهاب دولة مثل هذا الإرهاب البشع الذى تمارسه إسرائيل أو تستعد لممارسته فى الأيام القليلة القادمة؟

وهل هناك ما يدعو المجتمع الدولى – وخصوصًا دول التحالف ضد الإرهاب – إلى مواجهة إسرائيل، والتصدى لما تقوم به من إرهاب علنى مكشوف، ومثل هذا الإرهاب الذى تقوم به للقضاء على مقاومة فلسطين، والتهديد بخلع ياسر عرفات من رئاسة النظام الفلسطينى، وقيامها بالغارات المستمرة على الأراضى الفلسطينية التى كانت مدرجة فى خرائط المناطق الفلسطينية المحررة من الاحتلال الإسرائيلى بمقتضى الاتفاقات المعقودة بين الطرفين؟»[1].

* * *

وآخر البيانات العدوانية ما صرح به «الامبراطور بوش» الابن يوم الاثنين ٨/٧/٢٠٠٢ من أنه قرر القضاء على النظام الحاكم فى العراق، وأن الولايات المتحدة ستتخذ كل الوسائل لتحقيق هذا الهدف.

ونشرت وكالات الأنباء أن بوش قد أعد لغزو العراق ربع مليون جندى، هذا طبعًا عدا الطائرات والسفن الحربية، وربما قنابل نووية. وكل أولئك لأن العراق فى زعمهم تملك «أسلحة المدار الشامل». فبماذا نسمى الأسلحة التى استخدمتها الولايات المتحدة ضد الشعب الأفغانى المسلم. ومن أيام سقط ما لا يقل عن مائة أفغانى مسلم ما بين قتيل وجريح كانوا – مع أهلهم وأصحابهم – يحتفلون بزفاف أحد الشباب.

هذا عن إرهابهم الحقيقى، والإرهاب الإسلامى المزعوم المدَّعَى. فماذا عن الحضارة الإسلامية.

ثانيًا: الحضارة الإسلامية

رأينا فى الصفحات السابقة كيف استهدف الإسلام من القصف الإعلامى الغربى

---

(١) الوفد ١٣/١٢/٢٠٠١.

متهماً إياه بالإرهاب، ثم كان الهدف الثانى لهذا القصف هو «الحضارة الإسلامية» باتهامها بالتخلف والعدوانية، وغير ذلك من الصفات التى لا تتفق مع طبيعة هذه الحضارة وتاريخها.

وحتى نخلص إلى الحقيقة، ونحيط بكل أبعادها نرى أن المناقشة الموضوعية تتطلب التعرف ابتداء على مفهوم الحضارة. وقد تعددت تعريفات الحضارة فى كتب التاريخ والسياسة والاجتماع ومن هذه التعريفات:

(١) الحضارة نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى، والحضارة تتألف من عناصر أربعة هى: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون[١].

ونلاحظ أن «ديورانت» الذى قدم التعريف السابق يستخدم – فى سفره الضخم: قصة الحضارة – كلمتى: الحضارة والمدنية بمعنى واحد. وقد ذكر ذلك صراحة فى مقدمة كتابه، فقال: إن قصة الحضارة تعنى تاريخاً للمدنية.

(٢) الحضارة جملة مظاهر الرقى العلمى وا لفنى والأدبى التى تنتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع أو مجتمعات متشابهة، وهناك حضارات قديمة، وأخرى حديثة، وحضارات شرقية، وأخرى غربية. والحضارات متفاوتة فيما بينها، ولكل حضارة نطاقها، وطبقاتها وكتابها[٢].

(٣) الحضارة – فى مفهومها العام – هى ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية[٣].

ويشترك فى صنع الحضارة عناصر ثلاثة هى الزمن أو التاريخ، والعقل أو التفكير، والإنسان بتركيبه العضوى، وخصائصه البدنية كذلك[٤].

(٤) الحضارة مجموعة الانجازات الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، والصناعية التى يحققها مجتمع معين فى مسيرته لتحقيق الرقى والتقدم.

---

(١) ديورانت: قصة الحضارة ١ /٣.
(٢) مجدى وهبة: معجم مصطلحات الأدب ٧٠.
(٣) حسين مؤنس: الحضارة ١٣.
(٤) أنظر السابق ١٤ – ١٨.

ويركز البعض فى استخدام المصطلح على الناحية الثقافية، بينما يستخدمها البعض الآخر على أساس أنها سيادة العقل فى المجتمع، أما استخدامها المعاصر فقد شدد على ما تضمنه من التطور العلمى والتكنولوجى، ومايفرزه هذا التقدم من انجازات فى الميادين الأخرى من الحياة[١].

* * *

وهناك تعريفات أخرى وهى - فى مجموعها - تدور فى هذا الفلك، وإن كان بعضها يخلط بين تعريفها، وتعريف الثقافة.، وهى - كما عرفت «الأرث الاجتماعى، ومحصلة النشاط المعنوى والمادى للمجتمع، وهى ثمرة المعايشة للحياة، والتمرس فيها، والتفاعل مع تجاربها ومراحلها»[٢]. وبعضهم يعتبرها «إحدى مراحل التقدم فى حضارة ما»[٣].

وبصرف النظر عن الخلط والتداخل تعتبر الثقافة - كمعرفة واسعة مميزة - آلية من آليات الحضارة وتقدمها. ومن ناحية أخرى تعتبر ثمرة من ثمرات الحضارة فى مسيرتها السديدة المطردة.

والتعريفات السابقة - على اختلافاتها الجزئية - تلتقى فى أن الحضارة تمثل العطاء الإنسانى - على مدى الأجيال - فى مجال العلم والاقتصاد والسياسة والمعيشة، ونظم الحياة.

وتعريفات الحضارة - تأثراً بالتوجهات الغربية - تجنح - فى مجموعها جنوحًا ماديًا حاداً، أما الحضارة بالمفهوم الإسلامى - وإن اتسعت للعناصر السابقة - فتجمع بين المادة والروح، وتجعل الدين ركنها الركين، كقوة فعالة دافعة من ناحية، وكمبادئ وقيم روحية وأخلاقية من ناحية أخرى. فكل حضارة من الحضارات التى مرت بها البشرية - كما يقول سيد قطب[٤]. - لم تكن كل قيمتها فيما يراه من نتاج، إنما كان معظم قيمتها فيما اهتدى إليه الانسان من حقائق عن الكون، ومن صور وقيم للحياة، وما تركه هذا الاهتداء فى شعوره من ارتقاء، وفى ضميره من تهذيب، وفى تصوره لقيم الحياة من

---

(١) موسوعة السياسة ٢/٥٤٩. (٢) السابق ١/٨٤٤.

(٣) مجدى وهبة: مرجع سبق ٩٨.

(٤) مجلة الرسالة (القاهرية) ٥/١١/١٩٥١ - وكتاب: أمريكا من الداخل ٩٨.

عمق، والحياة الإنسانية بوجه خاص، مما يزيد المسافة بعداً فى حسابه، وحساب الواقع بينه وبين مدارج الحيوانية الأولى فى الشعور والسلوك، وفى تقويم الحياة، وتقويم الأشياء.

فأما ابتداع الآلات، أو تسخير القوى، أو صنع الأشياء، فليس له فى ذاته وزن فى ميزان القيم الإنسانية، إنما هو رمز لقيمة أساسية أخرى هى مدى ارتقاء العنصر الإنسانى فى الإنسان، ومدى الخطوات التى يبعد بها عن عالم الأشياء، وعالم الحيوان، أي مدى ما أضاف إلى رصيده الإنسانى من ثراء فى فكرته عن الحياة، وفى شعوره بهذه الحياة هذه القيمة الأساسية هى موضع المفاضلة والموازنة بين حضارة وحضارة، وبين فلسفة وفلسفة كما أنها الرصيد الباقى وراء كل حضارة، المؤثر فى الحضارات التالية حين تتحطم الآلات، وتفنى الأشياء، وحين تنسخها آلات أجدّ، وأشياء أجود مما يقع بين لحظة وأخرى فى مشارق الأرض ومغاربها[1].

* * *

وعلى ذكر الحضارة ظهر فى الغرب طروحات تتحدث عما أسمته «صراع الحضارات» أو صدامها، وهى فى مجموعها تنتصر للحضارة الغربية وتزرى بالحضارة الإسلامية، وواقع المسلمين حاليًا وتوجهاتهم العقدية. ولعل أشهر من تولى كبر هذه الطروحات: صمويل هنتنجتون، وفرانسوا فوكوياما.

والأول له طروحات ثلاثة، هى بترتيب ظهورها:

١ – مقال بعنوان «صدام الحضارات» نشر فى صيف ١٩٩٣ فى مجلة فصلية هى مجلة «شئون خارجية» Foreign Affairs .

٢ – كتاب بعنوان «صدام الحضارات» إعادة صنع النظام العالمى وهو يعد تمديداً مفصلاً مضخمًا لمقاله السابق.

٣– مقال بعنوان «عصر حروب المسلمين» نشر فى مجلة «النيوزويك» Newsweek – العدد السنوى الخاص ديسمبر ٢٠٠١ – فبراير ٢٠٠٢.

أما **فوكوياما** فقد كتب كتابه المشهور «نهاية التاريخ». وآخر طروحاته مقال بعنوان

(١) سيد قطب: أمريكا من الداخل ٩٨ – ومجلة الرسالة القاهرية ٥/١١/١٩٥١.

«إنهم يستهدفون العالم المعاصر» نشر بالنيوزويك: ديسمبر ٢٠٠١ – فبراير ٢٠٠٢ ص ٢٠٠.

ولسنا في مقام الرد على هذه الطروحات، ونقض كثير من مضامينها فذلك يحتاج إلى دراسة مستقلة، ولكنها، في مجموعها تنم على الحقائق الآتية:

١- فقر الكاتبين في المعارف والدراسات الإسلامية، والاعتماد على استقراء ناقص جداً في الخلوص إلى الأحكام، مما أبعدهما جداً عن الموضوعية والحياد في معالجة موضوع الحضارات ومسارها وطبيعة العلائق بينها من صدام أو صراع، أو تفاعل، أو تكامل... الخ.

٢- الوقوع في أخطاء تجافي المنهجية العلمية؛ لأنها لا تعتمد على أساس منطقي أو عملي كقول هنتنجتون في مقاله «عصر حروب المسلمين»..... وبحلول عام ٢٠٢٠م سوف تنخفض حدة الزيادة في عدد فئة الشباب في العالم الإسلامي، وبالتالي فإن عصر حروب المسلمين قد يختفي في أدراج التاريخ، وتتبعه حقبة جديدة تهيمن عليها أشكال أخرى من العنف بين شعوب العالم.

٣- التعصب الشديد ضد كل ما هو إسلامي: حضارة، وتاريخًا، وواقعًا، ففوكوياما يتهم الإسلام بالفاشية فيقول في مقاله: «إن التحدي الذي يواجه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين، فبحر الفاشية الإسلامية يشكل تحديًا أيديولوجيًا هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية...». وعنوان مقاله «إنهم يستهدفون العالم المعاصر» يعطي إيحاء قويًا بأن المسلمين بفاشيتهم وتخلفهم يستهدفون الغرب المتحضر لتدميره، والقضاء على قيمه من حرية، وديمقراطية، وتكنولوجيا.

وبالمقابل ظهر – في هذه الكتابات التعصب الشديد للغرب والمسيحية اعتماداً على مغالطات، وبيانات مبتورة ناقصة.

هذا وقد تصدى الدكتور صلاح قنصوه لنقض الأباطيل والأغاليط التي وقع فيها «صمويل هنتنجتون» في كتابه «صدام الحضارات»، وذلك في تقديمه للكتاب

(١) تقديم كتاب «صدام الحضارات» ٩ – ٢٨.

المذكور[١]، فهو يرى – ضمن ما رأى – أن « ما يصنعه هنتنجتون » فى نهاية الأمر، أو يقدمه، هو خريطة جديدة لإدارة الأزمات التى تنتج عن عوامل الصراع الحقيقية.

ويضع « جدول أعمال يغير فيه من مواقع الأولويات للأوضاع الاقتصادية والسياسية الفعلية». وهو ما من شأنه أن يساهم مساهمة نشطة فى تزييف وعى المواطنين فى مختلف بلدان العالم. ويفضى ذلك جميعًا إلى صرف الانتباه عما يجرى فى الواقع العالمى بحيث يتم تحريك الأطراف المختلفة بكفاءة واقتدار لخدمة مصالح بعينها بعيدة عن مصالح أوسع لفئات الجماهير سواء فى الشرق أو الغرب.

فالكتاب كله تذكير ملح على واجب المواطنين فى التشبث بالخصومة بين البشر، حتى يفرغ أصحاب المصالح لشئونهم، وإدارة العالم الممزق. ونظرته فى « الصدام الحضارى » لست أكثر من ثوب قشيب لفكرة أو ممارسة عتيقة جداً هى « فرق تسد »[١].

ومن أمثلة التدليس حرص هنتنجتون على اعتبار « الماجناكارتا » عنوانا للأصولية الغربية، مع أن الذى أصدرها هو الملك « جون » الذى اغتال شقيقه الملك « ريتشارد » – قلب الأسد – فى طريق عودته إلى انجلترا من الحروب الصليبية المقدسة. وكانت « الماجناكارتا » بيانًا لحقوق النبلاء الإقطاعيين إزاء الملك، وليس للشعب أو العامة نصيب فيها[٢].

ومن مظاهر التعصب ضد المسلمين ما زعمه هنتنجتون فى مقاله الأخير بقوله « وعبر العالم الإسلامى – خاصة فيما بين العرب – يوجد إحساس قوى من الحزن والاستياء والحسد والعدوانية تجاه الغرب، وثروته وقوته وثقافته... ».

وهذا الافتراء الهش ينقضه الواقع التاريخى، وينقضه الواقع المعيش، فالحضارة الإسلامية كانت حضارة غنية متكاملة، وعاش الغرب عالة عليها قرونًا طويلة، كما عاش قرونًا من التخلف تفوق ما كان عليه البدو الاقحاح فى العصر الجاهلى. كما أن الغرب فى القرنين الأخيرين حقق ثراءه بالاستيلاء على أراضى الشعوب الأخرى ونهب ثرواتها مرتكبًا أبشع الجرائم، كما حدث فى الأمريكتين، وتسمانيًا. وفضحه مؤلف كتاب « حرب قذرة » وغيره.

صحيح أن المسلمين والعرب يشعرون بالحزن والاستياء والنقمة على الغرب لأنه اتخذ

---

(١) السابق ٢٥.
(٢) انظر السابق ١٥.

منهم موقف العداء الذميم، وعمل - ومازال يعمل - على إضعافهم، ونهب ثرواتهم، والتحيز الإجرامى لإسرائيل، والوقوف وراءها، والعمل على تقويتها بكل ما يستطيعون.

أما إلصاق تهمة الحسد والعدوان على الغرب بالعرب فيدعو إلى الضحك، ويدخل فى نطاق المثل العربى المشهور «رمتنى بدائها وانسلت»، فهو من قبيل الإسقاط.

وإذا كان المسلمون يرفضون «الحضارة الغربية» كمشروع كامل، فلأن هذه الحضارة مجهضة بطوابعها المادية الحادة، مما دفع كثيرين من الغربيين إلى رفض كثير من معطيات هذه الحضارة.

ولكن المسلمين يأخذون منها ما يجدون فيه نفعًا لمجتمعاتهم فى الجوانب العلمية بخاصة؛ فنبيهم ﷺ يقول «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها»[١].

وواضح فى هذه السياقة - بعد الذى عرضناه أن الغرب أصبح يعتنق اصطلاح «الصدام» أو «الصراع»، وأصبح يدور على الألسنة والأقلام، وأراد أن ينهى هذا الصراع لمصلحته، فظهرت «العولمة»، والأدق - اعتماداً على الواقع المعيشى - أن نسميها «الأمركة»، وهى تعنى فرض الحلول الأمريكية والغربية - اقتصاديًا وسياسيًا، وعسكريًا، وإعلامياً، وتعليمياً على الشعوب الأخرى، وخصوصاً شعوب العالم الثالث[٢].

ونتيجة لهذه السياسة التسلطية، وهذا السلوك العملى الشائن، أصبحت كلمة

---

(١) نهض عدد من الكتاب لدحض أكاذيب «صمويل هنتنجتون» و«فرانسوا فوكوياما» منهم: محمد حامد الجمل: «الدين والأخلاق وصراع الحضارات» الوفد ٢٣ / ٢ / ٢٠٠٢ - د. مصطلفى عبد الغنى: «أى حوار وأى حضارة؟» ا لأهرام ١٧ / ١٢ / ٢٠٠١، ٣١ / ٢ / ٢٠٠١ - د. حسن محمد وجيه «بل عصر تكنولوجيا العداء للمسلمين» الأهرام ٢٠ / ١٢ / ٢٠٠١ - «من يستهدف من فى طرح فوكوياما الأخير»؟ الأهرام ١ / ١ / ٢٠٠٢ . د. أحمد عبد الرحمن «مزاعم فوكوياما ضد الإسلام». آفاق عربية ١٧ / ١ / ٢٠٠٢، ٢٤ / ١ / ٢٠٠١.

د. نادر نور الدين محمد« سماحة الإسلام وحوار الحضارات «الأهرام ٦ / ١ / ٢٠٠٢.

د. عبد المنعم سعيد «نظرية صراع الحضارات والواقع» الأهرام ٢٤ / ١٢ / ٢٠٠١.

د. أحمد عبد الرحمن السايح «حوار الحضارات» الأهرام ٣١ / ١٢ / ٢٠٠١.

د. محمد جلاء إدريس «البعد الغائب فى الحضارة الغربية» الأهرام ٣١ / ١٢ / ٢٠٠١.

د. عبدالله التطاوى «حوار وصراع الحضارات» رسالة إلى الأجنبى فى الشرق والغرب. الأهرام ٧ / ٧ / ٢٠٠٢. هذا، وما كتبناه فى هذا الفصل «الرابع» يعد رداً ونقضاً لهذه المفتريات.

(٢) من الكتب التى تناولت «العولمة بالدراسة» الإسلام والعولمة. د. أحمد فؤاد باشا - العولمة للدكتور جلال أمين - ظاهرة العولمة: رؤية نقدية. د. بركات محمد مراد - الوطنية فى مواجهة العولمة. د. محمد رؤوف حامد - مصر ورياح العولمة: د. محمود عبد الفضيل.

« صراع » كلمة مشبوهة، بل متهمة، ورأينا مفكرين مسلمين لهم مكانتهم ينكرون هذا المصطلح، ويستبدلون به أسماء أخرى: فالدكتور محمد عمارة يرى أن البديل الإسلامى « لصراع الحضارات » ليس حالة السكون فى علاقات الحضارات بعضها بالبعض الآخر؛ لأن فى السكون « مواتًا »، ربما أفضى إلى التبعيةوالتقليد اللذين ينتهيان إلى الواحدية والمركزية الحضارية، وإنما البديل الإسلامى لفلسفة الصراع، هو فلسفة التدافع بين الحضارات، وهذا التدافع هو « حراك » اجتماعى وثقافى حضارى، أى تنافس، وتسابق بين الحضارات(1).

وشبيه بهذا ما كتبه الدكتور مجدى قرقر، فهو يؤثر « التدافع » على « الصراع »؛ لأن الصراع – من وجهة نظره « لا يحتمل إلا معنى واحد، وهو القضاء على الآخر وفناؤه » . أما التدافع فيحتمل عدة معان، وهو وسيلة للحيوية والحركة، والنمو، وانطلاق الطاقات، وله صوره ودرجاته المتعددة، بداية من الحوار، ومروراً بالجدل والمناظرة، والمنافسة، والسباق، والمواجهة،والمغالبة، وانتهاء بالصراع أو القتال(2).

واعتمد هذا الطرح مادة « الدفع » فى القرآن الكريم: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت : ٣٤] . وقوله تعالى ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٥١] . وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ** ﴾ [الحج : ٤٠] .

* * *

ونحن نرى أن رفض اصطلاح « صراع الحضارات » رفض فى غير محله؛ لأن مشكلة هذا الاصطلاح ليست مشكلة ذاتية، ولكنها مشكلة تفسيرية سلوكية، فالذين تناولوا هذا المصطلح بالنقد اعتبروه مرادفًا – أو على الأقل مقاربًا – للعدوانية، كما أن السلوك الغربى، والأمريكى بخاصة يكاد يكون تطبيقًا عمليًا لهذا التفسير.

أما الكلمة فى ذاتها – بصرف النظر عن المستجدات فى المواصفات العالمية أخيراً –

---

(١) ص١٦ من تقديم الدكتور محمد عمارة لكتاب « حوار الحضارات » للأستاذ عطية فتحى الويشى.

(٢) د. مجدى قرقر: التدافع الحضارى بديلاً عن الصراع (دراسة فى مجلة المنار الجديد ٥٧ – ٦٣ : العدد ١٧ – شوال ١٤٢٢ – يناير ٢٠٠٢ .

تعد تمثيلاً للواقع على مدار التاريخ، فالحضارات تتقابل، وتتصارع، وليس من اللازم توظيف الحرب والسلاح كآلية دائمة من آليات هذا الصراع.

ولكن صراع الحضارات فى مجالاته العقدية والسياسية والاقتصادية والثقافية يتم غالبًا فى صورة عفوية على مدى طويل إعمالاً لقاعدة «البقاء للأصلح»، إذ ينهزم «العمْد» الذى يملك القوةأمام «العفوى» الذى يملك الصلاحية والتفوق المعنوى، فرأينا كيف ذابت حضارات البلاد المفتوحة فى الحضارة الإسلامية، وكيف انصهر التتار فى بوتقة الإسلام.

وفى هذه السياقة نذكر أن السيطرة العثمانية هيمنت على الشرق العربى إلى القرن التاسع عشر، فكانت اللغة التركية هى اللغة الرسمية: لغة الإدارة والدواوين والوظائف، وكانت هى المادة الأساسيةفى المدارس حتى بعد دخول الإنجليز مصر واحتلالها سنة ١٨٨٢، هذا يعنى أن اللغة التركية كانت هى المعبر الوحيد للمناصب، وتحصيل الرزق، وتحصيل المكانة والثراء ومع ذلك انتصرت العربية، وانتصر معها الوجدان العربى والهوية المصرية... وكذلك كانت الحال فى سائر البلدان العربية، ومن أوضح الشواهد– فى هذا المقام – محاولات فرنسا بكل ما تملك من إمكانات، وعلى مدى سبعين عامًا لفرنسة الجزائر عقيدة، ولغة، وعادات وتقاليد، ولكن جهودها باءت بالإخفاق الذريع(١).

* * *

فالصراع بين الحضارات قائم أردنا أو لم نرد. والانتصار يكون للحضارة التى تملك قوة البقاء والأفضلية والحيوية، بشرط تجنب الظلم والقهر والعدوانية، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد: ١٧]. وهذا الصراع لا يلغى الحوار، والتنافس، ومحاولات إثبات الوجود، والتفاعل أخذاً وإعطاء،تأثرًا وتأثيراً.

وليس من الضرورى أن ينتهى الصراع بالإحلال، أو الحلول الكامل.. حلول الفاضل محل المفضول بإطلاق، فقد يكون الحلول جزئيًا، بأن يكون فى المفضول ما ينتفع به الفاضل. ويستأنس لهذا بقول الرسول ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها».. و«الضالة – لغة – هى الشىء الذى يكون للإنسان فيفقده، فيظل يبحث

---

(١) أنظر: جابر قميحة: أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى اللغة العربية ٢٠ – ٢١. ومحمود فهمى حجازى: اللغة العربية عبر القرون ٥٢ – ٦٨.

عنه حتى يجده، فهذا المجاز أبلغ ما عرف من نوعه فى بيان ضرورة الحكمة للإنسان، وأبدع ما أثر عن البلغاء من عبارات الحث على تطلُّبِهَا، فإذا كانت الحكمة ضالة كل مؤمن، فكيف يغفل عن البحث عنها فى جميع مظانها من بطون الكتب، أو من أساطير الأولين، أو على السنة الناس كافة، فإذا وجدها وجب عليه أن يأخذها دون تردد»[1].

* * *

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد حفر الخندق حول المدينة لحمايتها من كفار مكة والأحزاب سنة ٥هـ، أخذاً بمشورة سلمان الفارسى رضى الله عنه، وكان حفر الخنادق نظامًا قاسيًا لحماية المدن[2]. وعنهم أخذ الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه نظام الدواوين[3].

* * *

والمجال لا يتسع لأن نعرض بتفصيل - أبعاد الحضارة الإسلامية وطوابعها، والأسس التى قامت عليها، ومدى تفاعلها مع الحضارات الأخرى تأثراً وتأثيراً. ومكانها بين الحضارات الأخرى، وبطلان ما اتهمها به أعداؤها. ولكننا نقدم - قدر الطاقة - فيما يأتى - ما يبين - إلى حد معقول - عن الأمور التى أشرنا إليها آنفًا.

لست من الذين يحرصون على الهرولة إلى آراء الغربيين ليدعموا بها الرؤية الإسلامية، وكأنهم عثروا على بيضة الديك، ولكنى أرانى هذه المرة مخالفًا وجهتى.. مستشهداً بآراء بعض عدول الغربيين، بل رأيت أن ذلك ضرورة فى هذا المقام لأسباب ثلاثة:

الأول: أنهم - أو أغلبهم على الأقل - أكثر علمًا، وأوسع معرفة من هؤلاء الذين هاجموا الحضارة الإسلامية.

والثانى: أنهم أيدوا أحكامهم بأحداث ووقائع وإحصائيات من الواقع التاريخى لا يستطيع أحد إنكارها.

والثالث: أننا - وأعداء الإسلام - فى ميدان مواجهة، وضربهم بآراء أبناء جنسهم يكون أوقع، وأقوى تأثيراً.

---

(١) محمد فريد وجدى: مهمة الإسلام فى العالم ١٨٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٦.

(٣) الطنطاويان: سيرة عمر بن الخطاب ٣٢٨.

ومن هؤلاء هربرت جورج ويلز، ففى مقام حديثه عن الفكر العربى، والحضارة الإسلامية، وامتداد تأثيرها على نطاق واسع يقول بأسلوبه الأخاذ: لقد قذفت المقادير بالذكاء العربى فى طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليونانى قبل ذلك بألف سنة خلت. لذلك عظمت إلى أقصى حد الاستثارة الفكرية التى أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربى بلاد الصين، كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة، وتطور أخرى جديدة...

كان العلم يثب على قدميه وثبًا فى كل موضع وطئته قدم الفاتح العربى، فلم يحل انقرن الثامن الميلادى حتى كانت للدولة منظمات تعليمية تنتشر فى كل أرجاء العالم المستعرب.، وحين وافى القرن التاسع إذا بالعلماء فى مدارس قرطبة بالأندلس يتراسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى سمرقند[١].

ويقدم «ويلز» شواهد لتفوق هذه الحضارة، وكيف حقق العرب فى حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروبًا كثيرة من التقدم، فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة، وحلت محلها الأرقام العربية التى نستعملها إلى يومنا هذا، واستعملت علامة الصفر لأول مرة[٢].

* * *

ويتحدث «**أليكس جورافسكى**» عن امتداد تأثير هذه الحضارة إلى مناخ وميادين كثيرة فى أوروبا، فعمّ بدرجة كبيرة، أو صغيرة مستويات الحياة الأوروبية جميعًا، ونال أكثر المجالات والبنى اختلافًا وتباعدًا، بما فى ذلك النواحى المعيشية والتجارية والاقتصادية، والتقنية، والسياسية، والآداب، والعلوم، والفلسفة والدين[٣].

ولم يتوقف العطاء الإسلامى لأوروبا عند المعارف الجديدة، بل أثر جوهريًا - كما يقول جورافسكى - فى نمو العمليات الثقافية وتطورها، وساعد - فى كثير من الحالات - على تشكل الوعى الذاتى الأوروبى، حتى مفهوم «أوروبا المسيحية»: بل قل التصور العام عن أوروبا كوحدة جغرافية وثقافية تكوّن فى أذهان الأوروبيين فقط فى مسيرة «الاستعادة»، و«التحرير» ReconQuista «ريكونكيستا» والحروب الصليبية، حيث ان

(١) هـ. ج. ويلز: موجز تاريخ العالم ٢٠٦.

(٢) أنظر السابق ٢٠٨

(٣) الإسلام والمسيحية ٣٣.

تلك التصورات الجغرافية – السياسية «الجيوسياسية» الثقافية ظهرت عندئذ، ووضعت نفسها كنقيض مضاد للعالم الإسلامى[١].

* * *

ويرجع «غوستاف لوبون» عظمة الإسلام إلى سهولته ووضوحه، وذلك لأنه يعتمد على عقيدة «**التوحيد المحض**» ومن ثم كان الإسلام خاليًا مما تراه فى الأديان الأخرى، ويأباه الذوق السليم – غالبًا – من المتناقضات والغوامض، ولا شىء أكثر وضوحًا، وأقل غموضنا من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة، ويدخل النار من يعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأى مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد، ويسرد لك أصول الإسلام فى بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك عكس النصرانى الذى لا يستطيع حديثًا عن التثليث والاستحالة، وماماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وساعد على وضوح الإسلام البالغ ما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره فى العالم، وتفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب فى عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة.

ويرفض غوستاف لوبون فرية انتشار الإسلام بالسيف لأن الواقع التاريخى يقطع بأنه انتشر بالدعوة وحدها. وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التى قهرت العرب مؤخرًا كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار فى الهند – التى لم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل – ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمى الهند يومًا فيومًا، مع أن الإنجليز الذين هم سادة الهند فى الوقت الحاضر يجهزون البعثات التبشيرية، ويرسلونها تباعًا إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى[٢].

ويبرز لوبون ما للفتوح العربية من طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيان ذلك أن البرابرة – الذين استولوا على العالم الرومانى – والترك

(١) حضارة العرب ٢٥. (٢) حضارة العرب ١٤٨.

وغيرهم – وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة – لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين انشئوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها، والذين تمنوا من اجتذاب أمم كثيرةإل دينهم ولغتهم، فضلاً عن حضارتهم الجديدة(١).

* * *

وقد ترك وجود العرب – حوالى – ٨٠٠عام فى شبه جزيرة أيبريا – علامات لا تمحى على الأرض الأيبرية، وعلى الفنون واللغات التى يتكلمها الناس هناك، كالقطلونية والقشتالية، والبرتغالية.

وبالرغم من أن فترة حكم العرب فى صقلية وأجزاء من جنوب ايطاليا. كانت قصيرة، وأن استمرار التأثير الثقافى للعرب كان أقصر عمراً، فإن هذا التأثير لم يكن فى جملته أقل شدة مما كان عليه فى شبه جزيرة أيبريا؛ لأن العرب لم يطردوا من صقلية بالقوة فى أثناء الاحتلال النورماندى لها. ولم يتوقف الاتصال بين المسلمين والأوروبيين، حتى بعد ان اضطر المسلمون آخر الأمر إلى الجلاء عن المناطق الأوروبية فى غرب البحر الأبيض المتوسط، واقتصرت سيادتهم على شمال أفريقيا(٢).

وعرب الأندلس وحدهم هم الذين صانوا فى القرن العاشر الميلادى العلوم والآداب التى أهملت فى كل مكان حتى فى القسطنطينية، ولم يكن فى العالم – فى ذلك الزمن – بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية – وذلك خلا الشرق الإسلامى طبعًا. ،وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليليون لطلب العلوم فى الحقيقة، ومنهم «جربرت» الذى صار بابًا فى سنة ٩٩٩م باسم «سلفستر الثانى». والذى أراد أن ينشر فى أوروبا ما تعلمه، فعد الناس عمله من الخوارق، واتهموه بأنه باع روحه للشيطان،. ولم يظهر فى أوروبا قبل القرن الخامس عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب.

وعلى كتب العرب وحدها عوّل **روجربيكون**، **وليونارد البيزى**، **وأرنود الفيلنوفى**،

---

(١) السابق ١٣٥.

(٢) مارتن بلسنر M.PLESSNER: تراث الإسلام ٢/ ١٣٩ – ١٤٠ ط٣
(تصنيف: جوزيف شاخت – كليفورد بوزورث).

وريمون لول، وسان توما، وألبرت الكبير، والأذفونش العاشر القشتالي.. الخ. قال مسيو رينان، إن ألبرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء، وإن سان توما مدين في جميع فلسفته لابن رشد»[١].

وظلت ترجمات كتب العرب – ولا سيما الكتب العلمية – مصدراً وحيداً تقريبًا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة، بل دام إلى أيامنا، فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبليه في أواخر القرن الماضي.. ولما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣م أمر بتدريس مذهب ابن رشد، ومذهب أرسطو[٢].

قال الشاعر الكبير بترارك: يا عجبًا استطاع شيشرون أن يكون خطيبًا بعد ديموستين، واستطاع فرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس، فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب؟ لقد تساوينا نحن والأغارقة، وجميع الشعوب غالبًا، وسبقناها أحيانًا، خلا العرب، فيا للحماقة!! ويا للضلال!! ويالعبقرية إيطاليا الناعسة أو الخامدة[٣].

* * *

وفي كتابه «ظلال الكنيسة» يشيد الكاتب «بلا سكوا أبانيز» بمجد العرب الأندلسيين؛ فالفتوح العربية - كما يقول - كانت غزوة تمدين، ولم تكن غزوة فتح وتدوويخ.. ولم يكن – في الواقع – فتحًا فرض على الناس برهبة السلاح، بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة. ولم يتخل أبناء هذه الحضارة زمنا عن فضيلة حرية الضمير.. فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصارى، وبيع اليهود ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقته، فعرف لها حقها، واستقر إلى جانبها غيرها سد لها، ولا راغب في السيادة عليها. وتمت على هذا – ما بين القرن الثامن، والقرن الخامس عشر – أجمل الحضارات وأغناها في القرون الوسطى.

وفي الزمن الذي كانت أمم الشمال فريسة للفتن الدينية، والمعارك الهمجية يعيشون عيشة القبائل المستوحشة في بلادهم المتخلفة كان سكان أسبانيا يزدادون، فيزيدون على ثلاثين مليونًا تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية والعقائد الدينية.. فعاشت في الجزيرة الأندلسية طوائف من النصارى والمسلمين، وأهل الجزيرة والشام، وأهل مصر والمغرب، ويهود أسبانيا والشرق، فكان منهم ذلك المزيج الذي تميز منه المستعربون،

---

(١) حضارة العرب ٥٦٨. (٢) السابق ٥٦٩.

(٣) السابق الصفحة نفسها.

والمدجنون، والمولدون. وعاشت – بفضل هذا التفاعل الحى بين العناصر والعروق – جميع الآراء والعادات والكشوف العلمية، والمعارف والفنون والصناعات والمخترعات الحديثة والأنظمة القديمة، وانبثقت من تجاوب هذه القوى مواهب الابداع والتجديد[١].

* * *

وتؤكد زيغريد هونكه هذه الحقائق، فبواسطة العرب تعرفت أوروبا على أهم آثار القدامى، وبفضل ترجماتهم للمخطوطات اليونانية، وتعليقاتهم عليها، وبفضل آثارهم الفكرية الخاصة أدخلت إلى العالم الجرمانى روح التفكير العلمى، والبحث العلمى.

إن أرقام العرب وآلاتهم التى بلغوا بها حداً قريباً من الكمال، وحسابهم وجبرهم، وعلمهم فى المثلثات الدائرية، ومصرياتهم الدقيقة، كل ذلك أفضال عربية على الغرب، وقد ارتفعت بأوروبا إلى مكانة مكنتها عن طريق اختراعاتها، واكتشافاتها الخاصة من أن تتزعم العالم فى ميادين العلوم الطبيعية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه[٢].

* * *

وفى سفره الضخم «قصة الحضارة» يعترف «ديورانت» بعمق تأثير الحضارة الإسلامية فى الغرب فى كل مناحى الحياة، وبصور متسعة متعددة؛ فقد تلقت أوروبا من بلاد الإسلام ا لطعام، والشراب، والعقاقير، والأدوية، والأسلحة، وشارات الدروع ونقوشها، والتحف، والمصنوعات، والسلع التجارية، وكثيراً من الصناعات، والتشريعات، والأساليب البحرية، وكثيراً من الأسماء مثل Lemon (ليمون) Sugar (سكر)، Sycup (شراب)، Elixir (الأكسير)، Admiral (أمير البحار).. والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة، والطبيعة، والكيمياء، والفلك، والطب، وارتقوا بها، ونقلوا هذا التراث اليونانى بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إى أوروبا.

ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوروبية، منها – على سبيل المثال – Algebra (للجبر)، Cipher . Zero (للصفر)، و Elembic (للأنبيق) Almanac (للتقويم)، وهى مشتقة من لفظ المناخ. وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب فى العالم خمسمائة عام كاملة.

---

(١) العقاد: أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ١١٧ – ١١٨.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ١٦٣.

وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة، وأبراج نواقيسها مدينة بالشيء الكثير إلى مآذن المساجد... ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج فى البندقية، ومجلدو الكتب فى إيطاليا، وصانعوا الدروع والسلاح فى أسبانيا، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناع المسلمين.

وكان النساجون فى جميع أنحاء أوروبا تقريبًا يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت - إلى حد بعيد - بالحدائق الفارسية.

وقد جاء هذا التأثير الإسلامى إلى بلاد الغرب عن طريق التجارة، والحروب الصليبية، وعن آلاف الكتب التى ترجمت عن اللغة العربية إلى اللاتينية، وعن الزيارات التى قام بها العلماء أمثال جربرت Gerbert، وميخائل اسكت Michael Scot، وأدلارد Adelard إلى البلاد الإسلامية، ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الإمراء المسلمين ليتربوا فيها، ويتعلموا الفروسية، ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين فى بلاد الشام، ومصر، وصقليلة، وأسبانيا.. وكان كل تقدم للمسيحيين فى أسبانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين، وعلومهم، وفلسفتهم، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية، وعلى سبيل المثال نرى أن استيلاء المسيحيين على طليطلة فى عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية، وأبقى على الاعتقاد بكروية الأرض(١).

* * *

وكان للإسلام والحضارة الإسلامية أثر كبير جداً فى القارة الهندية التى كانت مهداً للحضارة والفلسفة والعلوم الرياضية فى عهد من العهود، ثم أمعنت فى الوثنية والميثولوجية الهندية، والنظام الطبقى الجائر والتزمت. كتب جواهر لال نهرو: إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند، ودخول الإسلام له أهمية كبيرة فى تاريخ الهند، إنه قد فضح الفساد الذى كان قد انتشر فى المجتمع الهندوكى، إنه قد أظهر انقسام الطبقات، وحب الاعتزال عن العالم الذى كانت تعيش فيه الهند. إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التى كان المسلمون يؤمنون بها، ويعيشون فيها، أثرت فى أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم

(١) ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٨٣ - ٣٨٦.

المجتمع الهندى المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية[١].

ويقول: ن. س. مهتا (N. C. mehta) فى كتابه (Indian Civilization and Islam): إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور قد انجلت به الظلمات التى كانت تغشى الحياة الإنسانية فى عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلى، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية. لقد كانت فتوح الإسلام فى عالم الأفكار أوسع وأعظم منها فى حقل السياسة، شأنه فى الأقطار الأخرى. لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام فى هذا القطر مرتبطًا بالحكومة، فبقيت حقيقة الإسلام فى حجاب، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار[٢].

وأعجب من ذلك ما ذكره الباحث الهندى المعروف: ك. م. بانكار K. M. Panikkar، وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية فى عقلية الشعب الهندى، ودياناته، فيقرر أن تأثير الإسلام فى الديانة الهندوكية كان عميقًا فى العهد الإسلامى، ففكرة عبادة الله عند الهنادك مدينة للإسلام، فقادة الفكر والدين فى هذا العصر – وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى – قد دعوا إلى عبادة الله، وصرحوا بأن الله واحد، وهو يستحق العبادة، ومنه تطلب النجاة والسعادة.

وقد ظهر هذا التأثير فى الديانات والدعوات التى ظهرت فى الهند فى العهد الإسلامى كديانة (Bhagti)، ودعوة «كبيرداس»، وهو شاعر متصوف كان ينتقد المجتمع الهندى، ويدعو إلى الإصلاح[٣].

* * *

وفى كتاب ألفه بالعبرية: نفتالى فيدر (Naphtali Wieder) وترجم للإنجليزية باسم Islamic Infltences On The Jewish Worship (تأثير الإسلام فى العبادات اليهودية)، وقد أثبت الكاتب أن اليهود تعلموا من المسلمين فى لغتهم، وأدبهم وحكمتهم، ولم يأخذ المسلمون عنهم شيئًا[٤]..

وعندما كانت الحضارة الإسلامية فى أسبانيا ساطعة جدًا، وخصوصًا فى القرنين

---

(١) Discovery Of India 335 - 526 عن كتاب أبى الحسن.

الندوى، الإسلام والحضارة الإنسانية وواقع العالم الإسلامى ٧٥.

(٢) أبوالحسن الندوى: السابق ٧.

(٣) A survey Of Indian History - P. 132

(٤) العقاد: مايقال عن الإسلام ٧٤.

التاسع والعاشر الميلاديين، كانت مراكز الثقافة فى الغرب أبراجًا يسكنها - كما يقول لوبون - « سنيورات » متوحشون، يفخرون بأنهم لا يقرأون.

وأكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم فى أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع، وذلك كيما يكون عندهم من رقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة[1].

وكان تعذيب الجسم يعد « مثالية » روحية وأخلاقية، وينقل التاريخ أن الراهب ماكاريوس Makarius نام ستة أشهر فى مستنقع ليقرض جسمه العارى ذباب سام، وكان يحمل دائمًا قنطاراً من حديد، وكان صاحبه يوسيبيس Eusebius يحمل نحو قنطارين من حديد. وقد أقام ثلاثة أعوام فى بئر نزح، وقد عبد الراهب يوحنا St. Jhon ثلاث سنين قائمًا على رجل واحدة، ولم ينم، ولم يقعد طول هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة.

وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائمًا، إنما يتسترون بشعرهم الطويل، ويمشون على أيدهم، وأرجلهم كالأنعام، وكان أكثرهم يسكنون فى مغارات السباع، والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثيراً من الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسد منافية لنقاء الروح، ويتأثمون من غسل الأعضاء وأزهد الناس عندهم واتقاهم ابعدهم عن الطهارة، وأوغلهم فى النجاسات والدنس. يقول الراهب اتهينس: ان الراهب « أنتونى » لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره، والراهب ابراهام لم يمس الماء وجهه، ولا رجله خمسين سنة.

وقد قال الراهب الإسكندرى بعد زمن متلهفًا: وا أسفاه!! لقد كنا فى زمن يعد غسل الوجه فيه حرامًا، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات، وكان الرهبان يتجولون فى البلاد، ويختطفون الأطفال، ويهربونهم إلى الصحراء والآديار، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم، ويربونهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئًا، والجمهور والدهماء يؤيدونهم، ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم، ويختارون الرهبانية، ويهتفون باسمهم. وعرف الرهبان ومشاهير التاريخ النصرانى بالمهارة فى التهريب، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن فى البيوت،و إذ رأين الراهب امبروز «Ambrose»، وأصبح

---

(١) حضارة العرب ٥٦٦.

الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئًا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس[1].

* * *

وفى الوقت الذى كان الأطباء العرب يعالجون الأمراض النفسية بأساليب علمية، وكذلك يعالجون الجنون علاج الأمراض الطبيعية، كان الافرنج يسمون الجنون بالمرض الإلهى، أو المرض الشيطانى، لأنهم كانوا يحسبونه من إصابات الأرواح والشياطين[2].

ويقول «بلاسكوأبانيز» .... وبينما كانت شعوب الفرنجة والجرمان يعيشون فى الأكواخ، ويعتلى ملوكهم وأشرافهم قمم الصخور فى القلاع المظلمة، ومن حولهم رجالهم، وهم عالة عليهم، يلبسون الزرد، ويأكلون طعام الإنسان الأول قبل التاريخ، كان العرب الأندلسيون يشيدون قصورهم القوراء، ويرودون الحمامات، كما كان سراة روما يرودونها من قبل للمساجلة فى مسائل والأدب، وتناشد الأشعار، وتناقل الأخبار[3].

ومن مظاهر العار فى الحضارة الغربية حرب الأفيون Opium War وهى صفحة من أشد الصفحات سوادًا فى تاريخ الحضارة الغربية، وأطلق عليها هذا الاسم لأنها بدأت بقيام الجمهور الصينى فى مدينة «**كانتون**» باحراق سلع صدرتها بريطانيا إلى الهند، ولم تكن هذه السلعة إلا الأفيون، وكانت الحكومة البريطانية تشجع على تهريبها لأهداف سياسية وتجارية.

ومن أجل الأفيون، وحرص بريطانيا على تهريبه وترويجه قامت حربان مشهورتان: الأولى هى حرب الأفيون الأولى (١٨٤٠ - ١٨٤٢).

---

(١) الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٦١ - ١٦٢ . وقد أحال الندوى على كتاب «ليكى»: تاريخ اخلاق اوروبا. .Lecky: History Of European Morals Chapter iv

(٢) العقاد: أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ٤٣ . ومن مشاهد ذلك ما يروى عن ابن سينا انه دعى لعيادة فتى مريض لم يهتد الأطباء إلى علته، فأمر باستدعاء رجل من عرفاء المدينة، وتناول يد الفتى يجس نبضها، ويرقب وجهه، وطلب من العريف ان يسرد أسماء الأحياء فى المدينة، فسردها حتى جاء ذكر حى منها، فازداد نبض الفتى، ثم سأله ان يذكر بيوت الحى، فازداد نبض الفتى عند واحد منها، فسأله عمن فى البيت من الفتيات، وقال لأهل الفتى: زوجوه هذه الفتاة فهذا هو الدواء.

(٣) العقاد: السابق ١١٨ .

أما حرب الأفيون الثانية فكانت من سنة ١٨٥٧ – ١٨٦٠ .

والشرارة التى فجرت الحرب ظهرت بقيام بعض السكارى من البحارة الإنجليز بقتل احد الصينيين فى « كانتون »، ورفض « تشارلز اليوت » المشرف التجارى البريطانى فى « كانتون » أن يسلم الجناة لمحاكمتهم بناء على طلب « هسو » حاكم كانتون، فحاصر السفن التجارية البريطانية، فقامت سفينتان حربيتان بريطانيتان، فاغرقتا أغلب السفن الصينية فى الميناء، وأعلنت بريطانيا الحرب على الصين فى نيسان (ابريل) ١٨٤٠ . وكان السبب الحقيقى هو وقوف الصين فى وجه تجارة الأفيون . وانتهت الحرب بهزيمة الصين وعقد اتفاقية (شوينبى) . وسلمت « هونج كونج » ومناطق اخرى للإنجليز الذين ارتكبوا مذابح بشعة ضد المدنيين، وزيادة على غرامات ضخمة فرضت على الصينيين ضربت القوات البريطانية ساحل الصين الشمالى، واحتلت مدنا متعددة، وعلى مدى عامين كانت الخسائر الصينية فادحة ووقعت الصين فى آب (اغسطس) ١٨٤٢ اتفاقية « نانكنغ » وبمقتضاها :

(١) تدفع الصين لبريطانيا ٢١ مليون دولار مقابل الأفيون المحروق

(٢) تنازل الصين عن « هونج كونج » لتصبح مستعمرة بريطانية .

(٣) فتح خمسة موانئ صينية كبيرة للتجارة البريطانية الحرة .

(٤) يعفى المواطنون البريطانيون من الخضوع للقانون الصينى .

(٥) تمتع بريطانيا بامتياز « الدولة الأولى بالرعاية » فى معاملاتها التجارية مع الصين .

(٦) خفض الرسوم الجمركية على الواردات البريطانية إلى أقل من ٥٪ من قيمة هذه الواردات .

وبعدها، وبأسلوب التهديد حظيت الولايات المتحدة وفرنسا على ما يقارب هذه الامتيازات . وأغرى هذا الاستسلام دول الغرب بطلب المزيد من هذه التنازلات، وخصوصاً فى مجال التجارة وكالعادة استغل البريطانيون حادثة جديدة عابرة لافتعال ازمة تمكنها من طلب مزيد من المغانم، فضرب أسطولها بالمدافع ميناء « كانتون » لأن الحكومة الصينية « حكومة المانشو » رفضت الافراج عن سفينة قراصنة كانت ترفع العلم

البريطاني وتذرعت فرنسا بحجة قتل احد مبشريها في مدينة صينية في ديسمبر ١٨٥٧، وانضمت الى بريطانيا في الحرب التي أنزلت بالصين هزيمة شديدة وخرجت بريطانيا وفرنسا بمزيد من الامتيازات مما دفع الولايات المتحدة وروسيا القيصرية الى مطالبة الصين بمثل ما غنمت الدولتان فكان لهما ما أرادتا وكانت هذه هي حرب الأفيون الثانية (١٨٥٧ - ١٨٦٠).

وحرب الأفيون التي استغرقت في فترتيها قرابة خمس سنين - تكشف عن أخلاقيات الدول الكبرى التي حملت ميراث الحضارة الغربية وهي أخلاقيات تستبيح كل وسيلة من الغدر والكذب والقتل والنهب وارتكاب المحرمات سماوياً وانسانياً في سبيل تحقيق غايتها فلا يهمهم الا حصد المنافع والمغانم واحتلال الارض وإذلال الشعوب وارتكاب أبشع المذابح في حق المدنيين العزل[١].

* * *

وتتضح وحشية الغرب في سياسة النهب والقتل والطرد والتشريد في المناطق التي استولوا عليها ظلماً وعدواناً: ففي «الأريزونا» بأمريكا الجنوبية تعرضت - وتتعرض قبائل الهنود الحمر بوادي الأمازون للطرد والإبادة من جانب الشركات الأجنبية المتعددة الجنسيات التي تزحف على أراضيهم بعد اكتشاف الاحتياطيات الهائلة من الخامات كالبوكسيت «خام الألومنيوم» والنحاس والبترول في أراضي الصيد القبلية والاستيلاء على هذه الأراضي بدون أي تعويض لأصحابها السكان الوطنيين.

ولا ينسى التاريخ ما دار في جنوب أفريقيا على يد العنصريين البيض في جمهورية جنوب أفريقيا و«زامبيا» و«ناميبيا» والمدعمين من البيوتات المالية الاحتكارية الانجليزية التي جمعت ثرواتها من نهب هذه الشعوب خلال قرون مضت، والمتحالفين مع أقرانهم من الامبرياليين الأمريكيين لنهب ثروات جنوب أفريقيا من المعادن الثمينة كالماس والذهب وغيرهما.

أما عن بقايا «الهنود الحمر» في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان هو النموذج الأول في مشوار الإبادة الطويل الذي طبق على شعوب «العالم الرابع» في «الأمريكتين»

(١)أنظر موسوعة السياسة ٢/١٧٧ - ١٨٠ وكذلك ٣/٦١٩ - ٦٩٢.

و« استراليا » و« نيوزيلندة » أو ما يسمى « بالعالم الجديد » والمحرومين من أبسط حقوق الإنسان، تعيش هذه البقايا فى مناطق تشبه « حدائق الحيوان البشرية ».

* * *

وفى كتابه « حرب قذرة » يحكى الكاتب الاسترالى: كليف تورنيل Clive Turnbull قصة إبادة السكان الأصليين لجزيرة « تسمانيا » عن آخرهم وكان اسمها الاصلى « أرض فان ديمين »، وقد تم هذا الاستئصال خلال خمسة وسبعين عامًا على أيدى أسوأ أنواع المجرمين الانجليز الذين ضاقت بهم سجون انجلترا فى بداية القرن التاسع عشر لتتخلص منهم. وقد مات آخر هؤلاء السكان الاصليين – واسمه وليم لانيه – عام ١٨٧٦.

واتبع المستعمرون الانجليز أقذر الوسائل للقضاء على هؤلاء المساكين، فمنهم من أطلق عليهم النار، ومنهم من هشمت رؤسهم بمؤخرات البنادق ومنهم من حطموا بالخمر والامراض ومنهم من ألقى فى النيران الموقدة، كما اغتصبت النساء، وانتزعت رجولة الذكور، ومنهم من أنتزع من أرضه، والقى به فى جزر بعيدة، كل هذه الجرائم الوحشية القذرة من أجل السيطرة على الأرض وتحقيق النزوات[١].

أما معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة فقد اعتمدت على العدل والإنصاف والرحمة وحسن الرعاية، والأمثلة فى هذا المقام أكثر من أن تحصى، فاقباط مصر حرموا العدل فى ظل حكم الرومان. وهم أبناء دين واحد، ولم يروا نور العدل، ويستشعروا السلام والطمأنينة الا حينما دخل المسلمون مصر، وقضوا على حكم الرومان إلى الأبد.

ومن القصص المشهورة فى هذه السياقة لجوء قبطى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المدينة يشكو إليه محمد بن عمرو بن العاص وإلى مصر لأنه ضربه بالسوط، وقال: خذها وأنا ابن الأكرمين، فأبقاه عمر عنده فى المدينة، وكتب إلى عمرو أن يحضر ومعه ابنه محمد. فلما قدما قال عمر للمصرى: دونك الدرة، فاضرب ابن الأكرمين، فضربه حتى أثخنه. ثم قال: أجلها على صلعة عمرو(أى اضر ب عمرو بن العاص بالدرة على صلعته، وفى ذلك إهانة كبيرة له). فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه. فقال القبطى: يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى. قال عمر: أما والله لوضربته ما حلنا بينك وبينه،

(١)أنظر الصفحات ٦، ١٢، ١٤، ٣٨٩ – ٣٩٢ من كتاب « حرب قذرة » لكليف تورنيل.

حتى تكون أنت الذى تدعه، وقال لعمرو : أيا عمرو، متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!. ثم التفت إلى المصرى فقال : انصرف راشداً، فإن رابك ريب فاكتب إلى.

* * *

وفى عصر المماليك أسر قطز والظاهر بيبرس، ثم الناصر قلاوون طوائف كثيرة جداً من التتار فى مصر والشام، وكانوا يعاملون معاملة طيبة جداً، وأطلق عليهم اسم « الوافدية » وجعلوا لهم نظام حكم يخصهم، ولا يعم غيرهم من سكان مصر والشام، فكانوا فى المسائل الشرعية الخالصة يخضعون لسلطان القاضى المسلم الذى يعينه ولى الأمر ليقضى بين الناس. ،وبالنسبة للمعاملات الجارية كانوا يتحاكمون إلى الحجّاب، ويسيرون على مقتضى قواعد « السياسنامة » وهو كتاب الحكم الذى وضعه لهم جنكيزخان، وأكثره مخالف لما جاءت به ا لكتب السماوية، وأحكامه فيها قسوة وشده، وفيها يهدر الدم لجرائم دون القتل، فيحكم بالقتل على من ارتكب جريمة من الجرائم الآتية :

١- الزنا بإطلاق، ويستوى فيه المحصن وغير المحصن.

٢- اللواط. ٣- الكذب عمداً. ٤- السحر. ٥- إعانة أحد الخصمين بغير حق.

٦- التبول فى الماء الراكد. ٧- المنغمس فى الماء الذى تنجس بالبول... الخ[٢].

* * *

ويشهد عدول الغربيين لحكام المسلمين بالتسامح وسعة الصدر، واستخدام الحوار الهادىء مع أصحاب الأديان الأخرى، ومن شواهد ذلك أن « فرنسيس الأسيزى » - (ت١٢٢٦) مؤسس رهبنة الفرنسيسكان، قام برحلة تبشيرية إلى مصر فى سنة ١٢١٩م حيث وصل إلى دمياط فى زمن الحملة الصليبية السادسة (بقيادة جان دى بريين فى عهد الملك الكامل الأيوبى، والتقى هو وزميله « الومميناتو » بالملك الكامل فى تشرين الثانى ١٢١٩، وأخذ فرنسيس يشرح للملك معنى الثالوث، وهو يصغى برحابة صدر.. واذ شعر الأسيزى برحابة صدر الملك المسلم، وتسامحه الكبير، بادر بدعوة الملك إلى

---

(١) انظر ابن الجوزى : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٩٨ - ٩٩.

(٢) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ١٣ /١١٨. وانظر : ابن تيمية للشيخ محمد أبى زهرة ١٢٦ - ١٢٧.

اعتناق المسيحية، مع استعداده للبقاء إلى جانبه لكى يعلمه حقائقها.. وبطبيعة الحال لم يقبل الملك الكامل التحول إلى المسيحية، لأن إيمانه بالإسلام وعقيدته لم يكن أقل من إيمان فرنسيس بالمسيحية[١].

ولا عجب فى هذه السماحة من ملك مسلم مجاهد يؤمن أن الإسلام هو دين التسامح، وأن نبى الإسلام كان الأسوة الحسنة، والقدوة المثلى فى الرحمة والتسامح والتحاور مع الآخرين انطلاقًا من قوله تعالى «**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن..**».

ومن شواهد تسامحه ﷺ فى مجال العقيدة أنه عند توزيع غنائم خيبر كان بينها صحف فيها التوراة، فأمر بجمعها وردها على اليهود[٢].

ولأهمية الكلمة فى التفاهم والتعامل والدعوة كان فعل الأمر (قل) هو أكثر أفعال الأمر وروداً فى القرآن، فاستعمل قرابة ٣٥٠ مرة. كما عرض القرآن صوراً متعددة من الحوار: فعرض حواراً بين الله وإبليس، وبين الله والملائكة، وبين الله وإبراهيم، وبين مؤمن وكافر، وبين إبراهيم والملك الكافر، وعرض كذلك لونًا من الحوار الداخلى (فى الآية ٢٥٩ من البقرة). وكل أولئك يوحى أن الحوار آلية لها قيمتها فى التفاهم والتعامل والدعوة والإقناع والاستمالة.

إن الذين يهاجمون الحضارة الإسلامية أغلبهم من اليهود الصهاينة، أو من المتعاطفين معهم بسبب عقدة الحقد على الإسلام، أو لبواعث مصلحية أخرى. وكان عليهم أن ينظروا إلى التاريخ اليهودى نظرة موضوعية ويدرسو التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بعقلية متجردة من الهوى والتعصب حتى يكونوا عدولا فى تقييمهم وأحكامهم. وحرصا على هذه الموضوعية نستدعى شهادة علامة غربى لا يختلف اثنان على موسعيته وعبقريته وهو «غوستان لوبون» الذى يخلص من بحثه عن «**اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى**» إلى أن قدماء هم لم يجاوزوا أطوار الحضارة السفلى التى لا تكاد تميز من طور الوحشية، وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من باديتهم ليستقروا بفلسطين، وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة منذ زمن طويل، فكان

---

(١) أليسكس جودافسكى: الإسلام والمسيحية ٨٨.

(٢) المقريزى: امتاع الأسماع ٣٢٣.

أمرهم كأمر العروق الدنيا التى تكون فى أحوال مماثلة، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما فى حضارتها، أى لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارية، ودعاراتها، وخرافاتها فقربوا (أى قدموا القرابين) لجميع آلهة آسيا : قدموا العشتروت، ولبعل، ولمولك من القرابين ما هو أكثر جدا مما قربوه لإله قبيلتهم يَهْوَه . . وكانوا يعبدون عجولا معدنية . . وكانوا يحملون نساءهم على البغاء المقدس فى المشارف(١) .

وإذا عدوت العهد القديم، وجدت بنى إسرائيل لم يؤلفوا كتابا . والعهد القديم هذا لم يشتمل على شىء يستحق الذكر سوى ما جاء فيه من بعض الشعر الغنائى، وأما ما احتواه من أمور أخرى، فيتألف من رؤى أناس متهوسين ومن أخبار باردة، وأقاصيص داعرة ضارية(٢) .

وإذا أريد تلخيص مزاج اليهود النفسى فى بضع كلمات - كما يستنبط من أسفارهم -- وجد أنه ظل على الدوام قريبا جدا من حال أشد الشعوب ابتدائية، فقد كان اليهود عُنُدا مندفعين غُفَّلا سذجا جفاة كالوحوش والأطفال، وكانوا مع ذلك عاطلين فى كل وقت من الفنون الذى يتجلى فيه سحر صبا الناس والشعوب، واليهود الهمج إذ وجدوا من فورهم مغمورين فى سواء الحضارة الأسيوية المسنة الناعمة المفسدة أضحوا ذوى معايب، مع بقائهم جاهلين، واليهود أضاعوا خلال البادية من غير أن ينالوا شيئا من النمو الذهنى الذى هو تراث القرون .

وإذا أريد وصف المجتمع اليهودى من ناحية النظم أمكن تلخيصه فى كلمتين، وهما : نظام رعائى، مع طبائع المدن الآسيوية الهرمة، وذوقها، وعيوبها، وخرافاتها .

ويعرب حزقيال عن ذلك الرأى فى الفصل السادس عشر حين يذكر ظهور الشعب اليهودى الحقير، وأوائله الهزيلة، وما عقب استقرار بفلسطين من الحميّا، فيقول مخاطبا تلك الأمة العامة قائلا باسم يهْوه :

« فى جميع أرجاسك وفواحشك لم تذكرى أيام صباك . . وإذ كنت لم تشبعى زنيت مع بنى أشور ولم تشبعى . . فلذلك أقضى عليك بما يقضى على الفاسقات، وسافكات الدماء، وأجعلك قتيل حنق وغيرة »(٣) . .

واليهود يعتمدون فى علومهم وسلوكهم وسياستهم ورؤاهم على مصدرين أساسيين

---

(١) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ٢٠ (٢) السابق ٢٢ .

(٣) غوستاف لوبون : السابق ٥٨ .

هما التوراة والتلمود. والتوراة فى – نظر اليهود – هى كتابهم المقدس، وهى الوسيلة والأداة التى خلق بها العالم، فبها ولأجلها خلق الإله الدنيا، ولذلك فهى أقدم من هذا العالم، إنها أسمى فكرة، وإنها الروح الحية للدنيا كلها، وبدونها ليس للدنيا بقاء[1]

أما التلمود فيتكون من المِشْنا والجِمارا والمشنا الذى به زيادات لحاخامات فلسطين يسمى هو وشروحه «تلمود أورشليم» أما المشنا الذى به زيادات لحاخامات بابل، فيسمى هو وشروحه «تلمود بابل»، وهو المتداول بين اليهود، والمراد عند الإطلاق[2].

ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتابا منزلا، ويضعونه فى منزلة التوراة ويرون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة ولكنه أرسل على يده التلمود شفاها، ولا يقنع بعض اليهود بهذه المكانة للتلمود، بل يضعون هذه الروايات الشفوية فى منزلة أسمى من التوراة[3].

ومن نصوص التلمود ومضامينه:

– ندم الله لما أنزله باليهود وبالهيكل، وجاء على لسانه «تبالى لأنى صرحت بخراب بيتى وإحراق الهيكل ونهب أولادى[4].

– لا عصمة لله.. وهو مصدر الشر، كما أنه مصدر الخير.

– تتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله.

– يجب على كل يهودى أن يبذل جهده لمنع تسلط باقى الأمم فى الأرض، لتصبر السلطة لليهود وحدهم، فإذا لم تكن لهم السلطة عُدّوا كأنهم فى حياة النفى والأسر، ويعيش اليهود فى حرب مع باقى الشعوب حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع، وحينئذ يدخل الناس أفواجا فى دين اليهود، ويقبلون جميعا ما عدا المسيحيين لأن هؤلاء من نسل الشيطان[5].

– اليهودى جزء من الله، فإذا ضرب أمى إسرائيليا فكأنه ضرب العزة الإلهية، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود. ولليهودى – فى

---

(١) أحمد شلبى: اليهودية ٢٧٢.
(٢) شلبى: السابق ٢٧٤.
(٣) شلبى: السابق: ص. ن.
(٤) السابق ٢٧٥.
(٥) السابق ٢٧٦.

الأعياد – أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم غير اليهود. والشعب المختار هم اليهود فقط، أما باقى الشعوب فهم حيوانات[1].

– لا تسرق مال القريب، وهذا يعنى جواز سرقة اليهودى مال الغريب، أى غير اليهودى.

– يصرح لليهودى أن يغش غير اليهودى، ويحلف له أيمانا كاذبة.

– لا يغفر الله ذنبا ليهودى يرد للأممى ماله المفقود.

– غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا[2].

– محرم على اليهودى أن ينجى أحدا من الأمميين من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها[3].

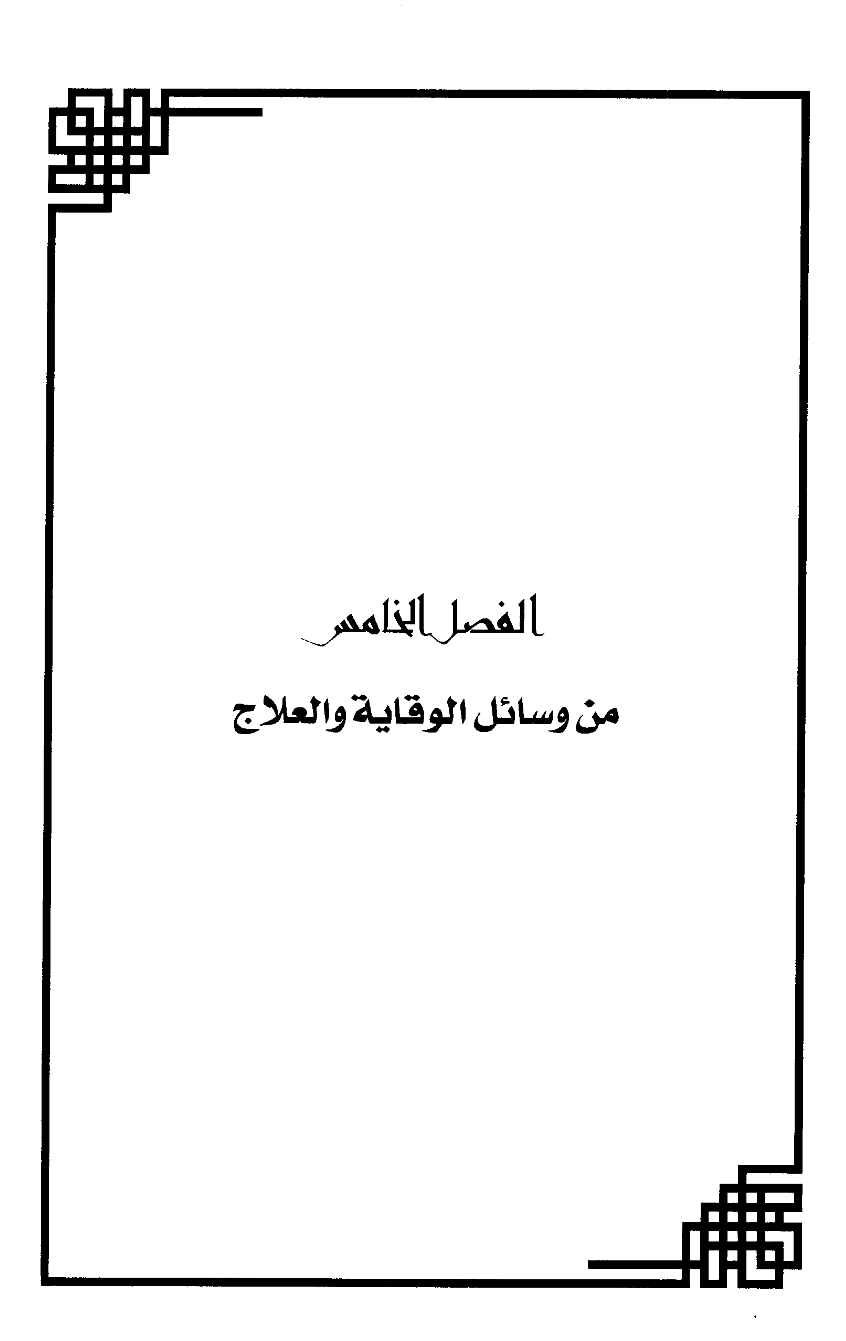
– اليمين التى يقسم بها اليهودى فى معاملاته لا تعتبر يمينا.

– يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم بين القار والنار، وأمه مريم أنت به من العسكرى «باندارا» عن طريق الخطيئة، والكنائس النصرانية هى بمقام القاذورات، والواعظون فيها أشبه بالكلاب النابحة، وقتل المسيحى من الأمور المأمور بها[4] والنصوص التلمودية السابقة – وغيرها كثير – ليست فى حاجة إلى شرح أو تعليق، فهى تبين – فى وضوح – طبيعة المزاج اليهودى وطوابعهم العقدية والفكرية والسلوكية، ومنهجهم فى التعامل مع الآخرين.

---

(١) السابق ص. ن.　　(٢) السابق ٢٧٧.

(٣) السابق ٢٧٨.　　(٤) السابق ٢٧٩.



الفصل الخامس

من وسائل الوقاية والعلاج

وبعد كل ما سبق يرد السؤال التالى :

ما الحل ؟ . . وما وسائل الإنقاذ، أو وسائل الوقاية والعلاج ؟

وهو سؤال بدهى طبعى يرد فى وقته المناسب، ويأخذ مكانه المعقول؛ لأن تشخيص الداء لا يغنى – بأية حال – عن تقديم الدواء، وإلا كان هذا التشخيص لونا من العبث، وإهدار الوقت .

ولعلنا نتفق – ابتداء – على أن أى حل لا يمكن أن يكون ناجعا – أو شبه ناجع – إلا إذا توافرت فيه عدة شرائط من أهمها :

١ – **الواقعية أو إمكانية التنفيذ**، بعيدا عن المثالية الخيالية المحلقة، أو ما يسمى (اليوتوبية)، أى يكون الحل داخلاً فى دائرة الاستطاعة، فالتكليف يجب أن يكون فى « دائرة القدرة » وإلا عدم قيمته، وكأنه لم يكن، وكان الانشغال به إهداراً للوقت والطاقة، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦][١] . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كنا إذا بايَعْنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا : « فيما استطعتم »[٢] .

وعن أميمة بنت رقيقة قالت : « أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة بايعْنه على الإسلام . فقلْن : يا رسول الله؛ نبايعك على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك فى معروف . فقال رسول الله ﷺ : « فيما استطعْتُن وأطقْتُنّ »[٣] .

---

(١) وسعها : طاقتها وما تقدر عليه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأحكام (٩٣) . باب : كيف يبايع الإمام الناس (٤٣) حديث ٧٢٠٢ . فتح البارى ١٣ / ٢٠٥ .

ومسلم : فى كتاب الإمارة (٣٣) باب البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع . حديث (٩٠) – ٤ / ٥٣٢ . كما أخرجه مالك : فى الموطأ كتاب البيعة (٥٥) باب ما جاء فى البيعة (١) حديث (١) ص ٦٠٨ .

(٣) أخرجه الترمذى : فى كتاب السير (٢٢) باب ما جاء فى بيعة النساء (٣٧) ٤ / ١٥١ . حديث ١٥٩٧ . وقال : حديث حسن صحيح .

ومالك فى الموطأ : السابق حديث (٢) .

ومن مقتضيات هذه الواقعية أن يكون الحل «بيئيًا»، أى نابعًا من الواقع المعيش فى نطاق البيئة موضوع العلاج، بامتداداتها المختلفة: دينيًا، واجتماعيًا، وعلميًا، وسلوكيًا.. إلخ.

فما يصلح لبيئة قد يعجز فى بيئة أخرى، وكم عانينا ما عانينا من حلول جاهزة مستوردة بزعم نجاحها فى بلادها، وبدعوى قدرة هذه الحلول على إنقاذ الشعوب من الفقر، والجهل، والضياع بتحقيق الكفاية، والعدل، وتحرير الأرض، ومحق الجهل.. إلخ وأثبت الواقع أن كل ذلك هراء فى هراء.

٢ - **متابعة التنفيذ بجدية، وعزيمة، وحسن نية، وأمانة**، وذلك ممن تتوافر فيهم الخبرة، والقدرة، والعلم.

وليكن نصب عيوننا منطق يوسف عليه السلام ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٥٥]. وإنما قيمة الأقوال بترجمتها إلى أعمال، وقيمة الأعمال بما صاحبها من نوايا صادقة طيبة، وعزائم متواصلة حتى لو لم تحقق كل ما كان منها مرجواً منشوداً.

٣ - **التكاتف والتعاون الصادق، والمشاركة الأمينة الفعالة**، فى المتابعة والتنفيذ بصورة جماعية: شعوباً، وحكومات، وأفراداً، وجماعات.

٤ - **إخضاع البرامج والحلول لمنطق «التجريب»** ثباتًا أو تغييراً وتعديلاً أو تطويراً تبعا لما يتحقق من تقدم ونجاح، على ألا ينال ذلك من «الثوابت الدينية»، والقيم الخلقية الأصيلة.

* * *

وبعد هذه التوطئة الموجزة التى تضع أمامنا ما يجب أن تتسم به القرارات، والرؤى للحل المنشود. يقدم البحث - لا أقول ما يراه حلاً - ولكن ما يرى أنه مجرد معالم وصُوًى على طريق الحل، أى مواجهة أساليب التضليل فى الحرب التى يشنها علينا أعداء الإسلام، ومنهم للأسف - كما ذكرنا - قوم من جلدتنا، ويتكلمون لساننا، ويدّعون أنهم دعاة هداية وتنوير، وهم فى واقعهم دعاة شر ونكاية وتدمير.

ومن أهم وسائل التصدى والوقاية والعلاج:

١ – **التحصين الدينى**: وأعنى بالتحصين الدينى أن يكون المسلم على درجة من الوعى الدينى، وقواعد الإسلام، والتاريخ الإسلامى تمكنه من فضح وسائل التضليل، وما تتمتع به من ضعف وهشاشة، ولو فى صورتها العامة وهذه مسألة ليست بالمستحيلة، بل أكاد أقول إن أضاليل أعداء الإسلام لا تعتمد إلا على مغالطات يعتورها الضعف من كل جانب، وأن النظرة البصيرة المستندة إلى قدر من العلم الدينى تكشف فى سهولة ما فى هذه الأضاليل من عوار وضعف وسقوط(١).

والتثقيف الدينى – على المستوى الشعبى – هو مهمة وسائل الإعلام بصفة أساسية – وكذلك الدعاة فى المساجد، وهذا يقتضى «وصل المواطنين» بالواقع الحاضر على المستويات المحلية والعالمية، حتى تتوافر للمواطن رؤية سديدة سوية للمواضعات التى تحيط به.

والوعى الدينى الذى «يحصّن» المسلم يجب أن يرتكز – بصفة أساسية – على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، بعيداً عن التفريط والإفراط، تحقيقاً للوسطية التى دعا إليها الإسلام، وتمثل جوهره، ومنهجه فى الحياة ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ..﴾ [البقرة:١٤٣].

ومن تتمة هذا «الوعى المحصّن» أن يكون المسلم على بيّنة من الشبهات التى تثار لتجريح الإسلام، ونبيه، وإثارة الشك فى الدين وقيمه، كما يكون على بينة أيضًا من

---

(١) يحضرنى فى هذا المقام صورة أحد كبار الشيوعيين العرب فى إحدى مناظراته مع بعض الدعاة المسلمين. وقد جاء فى بعض ما قال: إننا يجب أن نكون «مستقبليين» لا رجعيين سلفيين، وأخذ يستشهد بأقوال لماركس ولينين وإنجلز من رءوس الشيوعية. وختم كلامه بقوله: إن السلفية تعد أكبر عقبة فى طريق التنوير؛ لأنها تستند على ماض قُبر وانتهى، «وعظام الموتى لا تصنع مستقبلا».

ورد عليه الداعية المسلم ببساطة: أقول – آخذاً بمنطقك – «إنك سلفى أضلع منى فى السلفية؛ لأنك فى كل ما قلت تستند إلى «الماضى» الشيوعى، فاستشهدت فيما قدمت بثلاثة عشر قولاً لرءوس شيوعية عاشت فى «الماضى» من قرن مضى وصاروا عظامًا فى القبور. وأنا – السلفى – لم أستشهد إلا بآية وحديثين. ولكن سلفيتى تنهل من معين طاهر: من رب خالق ونبى عربى هادٍ مهتدٍ. أما سلفيتك فتنهل من ملاحدة أثبت التاريخ إخفاق ما يدعون إليه إخفاقًا ذريعًا». وبهذه البساطة والوضوح استطاع الداعية المسلم أن يصيب الشيوعى فى مقتل فعجز عن مواصلة المناظرة بحجة أن مثل هذا الكلام كلام غير علمى يقصد به كسب الجماهير!!

الدعاوى البراقة التى قد يكون فى ظاهرها رحمة، وفى باطنها الباطل، والشر، والعذاب، كالدعوة إلى « توحيد الأديان » التى أخذت صورة عملية فى بعض البلاد العربية بالدعوة إلى بناء ما يسمى « مجمّع الأديان » الذى يمثل « مسجداً وكنيسة وبيعة » فى مبنى أو مبان متلاصقة « حتى تثبت للعالم - كما قال كبير ممن تولوا كِبْر هذه الدعوة - أننا أمة نعيش فى تسامح وأمن وأمان . . بلا تعصب أو خلاف أو تطاحن » . وقد رأينا فى الفصل السابق أنها دعوة صليبية رفعت شعار ما يسمى « بالإسلام أو المسجد العيسوى » .

* * *

ومن تطبيقات هذا « المنهج التلفيقى » - وهذا جزء مما يجب أن يعيه المسلم تحقيقًا للتحصين الدينى - أن بعض الكتاب والمفكرين المسلمين - بدافع الحماسة للإسلام - يحاول أن يلبسه كل ثوب عصرى، فكلما تمخض العصر الحاضر عن مخترع علمى، أو مذهب سياسى، أو فكرة اجتماعية طريفة، حاول أصحاب هذا الاتجاه أن يوجدوا لها أصلاً فى الإسلام، هاتفين أن الإسلام سبق إليها، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٨]، فسفن الفضاء والصواريخ الموجهة لها إشارات فى القرآن ! ! و « النظرية الذرية » لها أصولها فى آخر سورة الزلزلة ! !

وحينما قامت الانقلابات العسكرية فى الشرق العربى، ولوح « الثوار » - أصحاب الحلل الصفراء، والنجوم النحاسية اللامعة - بالاشتراكية، بهر بعض الكتاب الإسلاميين بهذه الزيوف، وغصت السوق بمؤلفاتهم التى تتحدث عن « اشتراكية الإسلام »، وقد رأى بعضهم كيف قادت « الاشتراكية » إلى الفقر، والضياع، والهزائم النكراء على كل المستويات . وصدق الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

ونخشى أن يأتى غداً من يزعم أن « الهيبزية » من الإسلام ! ! لأنها - كما يزعم أصحابها، وأغلبهم يهود صهاينة - دعوة إلى عودة الإنسان إلى بساطته الأولى، وتجنب التصنع والتكلف . ولا مانع كذلك أن تكون « الوجودية » كذلك من الإسلام ! ! لأنها تقدس حرية الفرد، وتؤمن بكيانه وقيمته، وحقه فى الوجود، كما يزعم الداعون إليها .

وللأسف يحاول أصحاب كل دعوة أن « يطوعوا » نصوص القرآن والسنة - بتمحل

شـديد – لإثبات صحة هذه الدعاوى، أو هذه الادعاءات، وبذلك تذوب «شخصية» الإسلام بالتدريج بعد «توزيعه» على «أطباق» المذاهب، والفلسفات المعاصرة. ولو أنصف هؤلاء لعلموا أن الإسلام لا يضيره، ولا ينقص منه، ولا ينزل من قدره أن يبرأ من كل ما ذكروا، أما حقيقة الإسلام فتتلخص فى أنه «إسلام»، وهذه الكلمة بذاتها تعنى الدين القيم الخاتم الذى يمثل منهاجًا شاملاً للحياة بكل جوانبها الروحية، والاجتماعية، والتربوية، والسياسية، وذلك بقواعد كلية لا تمنع المسلم الانتفاع بتجارب الآخرين، وما يمكن أن ننهض به فى ميادين العلوم والتقنية وغيرها. بشرط ألا ينال هذا الانتفاع من «ثوابتنا الدينية والأخلاقية»، أو يخل بهويتنا الإسلامية، فنذوب فى غيرنا، ونعيش بلا مرجعية، وبلا هوية.

وللأسف يرتمى بعض مفكرينا فى هذا المستنقع البائس الآسن إرضاء للغرب والغربيين، فتكون النتيجة – مع تشجيعهم لهم – سقوطهم من عيون الغربيين، والنظر إليهم – على حبهم لهم – نظرة ازدراء وتحقير.

والتصرف الإسلامى السديد هو أن نطوع ما يواجهنا من معايش ومعاملات وعلائق اجتماعية وغيرها.. نطوعها للإسلام، لا أن نطوع الإسلام لها، فإن استحال ذلك كان علينا – نحن المسلمين – أن نرفضها تمامًا، حتى يتحقق لنا التدين السليم البصير.

* * *

وإذا كان هذا التحصين الدينى – وقد أشرنا إلى بعض مظاهره ومقتضياته – مهمًّا للمسلمين بعامة، فإنه يعتبر «ضرورة الضرورات» لأبنائنا المبعوثين لتلقى التعليم العالى فى الولايات المتحدة، والدول الأوروبية وغيرها، وذلك لتعرضهم لمغريات لا أخلاقية ولا دينية يعجز عنها الوصف، كما يعرض بعضهم لأن يفتن فى دينه من بعض الجمعيات أو الجامعات بمقابل دنيوى كبير.

وأغلب من يبعثون يكونون فى تخصصات أكاديمية تجريبية كالكيمياء والطبيعة والطب والهندسة، ورصيدهم من العلوم الإسلامية ضئيل للغاية، كما أن حظهم من اللغة الأجنبية التى تمكنه من الدفاع عن دينه وقيمه – ضئيل، لأن «اللغة الفقهية»، والمصطلحات الدينية مجهولة عنده، فتركيزه الأساسى – قبل بعثته – كان على «اللغة العلمية» التى تمكنه من تحقيق ما يبغيه من دراسته.

وهؤلاء المبعوثون منهم من ينكسر أمام الإغراءات الشيطانية، فينهار أخلاقيًا، ولا يبقى له من دينه إلا اسمه، ومنهم من يرزقه الله القدرة على الصمود، والقبض على دينه، ومع ذلك يبقى عاجزاً عن التصدى لما يوجه لدينه من مفتريات الصهاينة والصليبيين ضد الإسلام، وقرآنه، ونبيه؛ إما لضعف ثقافته الدينية، وإما لضعف «لغته الدينية»، وإما للسببين معًا.

وقليل جداً من هؤلاء رأيتهم متمكنين من دينهم، ولغتهم، ولغة البلد المبعوثين إليه، فكانوا دعاة ثابتين قادرين، وحرصوا على تلقف الشباب المسلم الوافد لتوعيته، والحفاظ عليه، وحققوا غير قليل من النجاح فى هذا المجال، ولكنه يبقى مع ذلك محدوداً دون المرجو المطلوب.

ولتحقيق الحصانة الدينية لهؤلاء الشباب المبعوثين إلى الخارج أوصى بما يأتى:

أ - تقديم دراسة جادة مكثفة للطالب المبعوث فى الدين والشريعة بلغة البلد الذى سيبعث إليه لا تقل عن عام أو عامين. بحيث لا يسمح له بالبعثة إلا إذا تلقى هذه الدراسة، واجتاز بنجاح الامتحان فيها شفويًا، وتحريراً قبل سفره.

ب - وَصْل هؤلاء المبعوثين بالمراكز الإسلامية فى الخارج للاشتراك - بالتلقى والعطاء - فى نشاطها الدينى والثقافى، وتوعيته بملامح المجتمعات الجديدة التى هبطوا إليها.

* * *

٢ - **تأسيس العلم الشرعى**: والمقصود بالتأسيس هنا المفهوم الكيفى لا الكمى، وإن كان الكم له أيضًا اعتبار، ولكنه يتأخر للمرتبة الثانية، فالمقصود بالتأسيس: التثبيت والترسيخ، أى جعل التعليم الدينى هو الأساس فى مدارس الأمة التى أكرمها الله بالرسالة الخاتمة، فكانت - بقيم هذا الدين - خير أمة أخرجت للناس. وكذلك فى الكليات الجامعية التى تتخصص فى العلوم التجريبية أو العلوم الإنسانية، يجب أن يحتل التعليم الدينى - كمًا وكيفًا - مكانه الأول فى المقررات الدراسية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تدرس بقية المواد من منظور إسلامى، أى أن «علينا أن نعيد صياغة المعارف الإنسانية كلها من تصور إسلامى صحيح، وبذلك نضفى على التعليم بعداً يفتقر إليه اليوم، ونزيل هذا التناقض القائم بين دروس

الدين ، والمعارف التى تعلم من تصور غير إيمانى . . أما أن يعلم الطفل شيئًا من الدين، وفى نفس الوقت تمتلئ كتبه الأخرى بمفاهيم منكرة لذلك، أو متجاهلة له، فإنه سيعيش فى حالة من التمزق الفكرى، قد يؤدى به فى النهاية إلى الكفر بكل شئ»(١).

وأعتقد أن تحفيظ القرآن للصغار فى المساجد، والكتاتيب، يعد بداية طيبة لتأسيس العلم الدينى، حتى لو لم يكن الطفل يفهم فى سن الطفولة أغلب معانيه. وطبعًا يجب الاستفادة من التقنيات الحديثة فى تعليم القرآن، وتحفيظه، من أشرطة التسجيل، إلى أسطوانات الحاسوب وغيرها، فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها(٢).

٣ - **إعداد الدعاة**: حينما نتحدث عن «الداعية» تقفز إلى ذهننا مباشرة صورة خطيب الجمعة والعيدين فى المسجد، ونرى أغلب هؤلاء الدعاة - على مستوى العالم الإسلامى - إن أتقنوا الثقافة الدينية من قرآن وسنة وفقه، يعيشون بمعزل تمامًا عن العلوم العصرية، ومجريات الأمور فى العالم، بل الوطن، ما عدا الأحداث المتوهجة المشهورة.

وبعض هؤلاء يعجز عن اختيار الموضوع المناسب الذى يهم الناس فى حياتهم، مما يصنع سدًا منكودًا بينه وبين المستمعين. وعلى المستوى العالمى: هناك عدد طيب من الدعاة إلى الإسلام، ولكنهم أقل من نصف العدد المطلوب لنشر الإسلام من ناحية، والدفاع عنه من ناحية أخرى.

وهذا الوضع يجعلنا - نحن المسلمين - فى حاجة إلى إنشاء أكاديمية للدعوة الإسلامية العالمية. وتكون مهمة هذه الأكاديمية أو هذا المعهد «**تخريج الدعاة الإسلاميين العالميين**». **وتصورى المبدئى لهذا المعهد يتلخص فى الخطوط الرئيسية الآتية:**

---

(١) د. زغلول النجار: أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية ١٠٤.

(٢) أثبتت التجارب أن الأطفال أقدر على حفظ القرآن من الكبار، وقد حفظت القرآن وختمت حفظه فى كتّاب قريتى وأنا دون الحادية عشرة شأن أغلب زملائى. وقد رأيت فى باكستان ظاهرة غريبة وهى أن أغلب الأطفال يحفظون القرآن كله. ومنهم من لم يتجاوز العاشرة - دون أن يفهموا معناه. ومن يتم حفظ القرآن يخلع عليه لقب «حافظ». قلت فى نفسى: سبحان الله.. ألا يعد ذلك وجهًا من وجوه إعجاز القرآن؟؟!!

أ - ينشأ المعهد فى عاصمة أو مدينة كبرى من المدن الإسلامية، وإذا نجحت الفكرة فلا مانع من تكرارها فى عواصم أخرى.

ب - يتكون المعهد من مراحل ثلاث: المرحلة الثانوية، والمرحلة العالية، ثم المرحلة العليا لمنح درجتى الماچستير والدكتوراه.

جـ - للمعهد مهمة محددة وهى «تخريج الداعية الإسلامى العالمى».

د - محاور البرامج، والمقررات، والمناهج الدراسية: المواد الشرعية، ومقارنة الأديان، والمذاهب الاقتصادية والسياسية، واللغات الحية، ولغات العالم الثالث.. وتعمق هذه المواد مع التقدم فى سنى الدراسة، على أن يكون «التدريب العملى» من منتصف المرحلة العالية، ويستمر إلى أن ينتهى الدارس من دراسته، والتدريب يكون على الخطابة والكتابة، والأساليب والوسائل التقنية الحديثة فى الدعوة.

وبصفة خاصة يجب الاهتمام فى كل مقررات التعليم بعقيدة التوحيد انطلاقًا من كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، مع بيان أثر الإيمان بوحدانية الله فى تشكيل الشخصية المسلمة: ثباتًا على الحق، وشجاعة فى التصدى لأعداء الله دون تردد، أو خوف ووجل، والتحلى بطمأنينة القلب، ونقاء الضمير.

ومن مقتضيات الإيمان بوحدانية الله نفى الشريك والشبيه، فليس كمثله شىء، والتنزه عقديًا وسلوكيًا عن مظاهر الشرك التى نجدها - للأسف - فى كثير من البلاد الإسلامية والعربية كالتوسل بالأنبياء والأولياء، والتمسح بالأضرحة والقبور، وغير ذلك من مظاهر الشرك الظاهر والخفى.

وبجانب ذلك لابد من دراسة ما فى عقيدة التثليث من بهتان وبطلان، وتفنيد حجج من يدعون أنها جوهر النصرانية التى بعث بها عيسى عليه السلام. وإبطال حجج من يدعى أن عقيدة التوحيد فى الإسلام تؤدى إلى حيرة المسلم، كما تحط به كإنسان إلى أسفل الدرك، كما ذكر عدو الإسلام أرنست رينان(١).

هـ - يقبل فى المعهد نوابغ الطلاب من العالم الإسلامى، ويتكفل المعهد بإسكان الطلاب، وإعاشتهم، زيادة على مرتبات شهرية مجزية.

---

(١) انظر ص ١٧٥ من هذا البحث.

و – المتخرجون فى المعهد يكونون طليعة فى « جيش الدعاة العالمى » الذى يباشر عمله فى الدعوة الإسلامية فى العالم بعامة، ودول العالم الثالث بخاصة.

ز – لا يخضع المعهد لسلطة حكومية معينة، حتى الدولة المقام المعهد على أرضها، بل تكون له « شخصيته الاعتبارية المستقلة». وتديره هيئة تتكون من أعضاء من مختلف الدول الإسلامية من المشهود لهم بالعلم والتقوى.

ح – يكون تمويل المعهد بمساهمة من الدول والشعوب الإسلامية جميعًا، ومن حصائل الزكاة، وانطلاقًا من مشروع ليكن اسمه « دينار الدعوة الإسلامية» فى صورة « بونات» تطرح فى الدول الإسلامية، والجاليات والأقليات المسلمة فى العالم كله تحت شعار « ادفع دينارًا تخدم الإسلام»، ويمنح الدعاة مرتبات عالية، تليق بمراكزهم العلمية، وتضمن لهم مستقبلاً مطمئنًا بإذن الله[1].

* * *

وقد يقال إن هناك كليات للدعوة والشريعة وأصول الدين فى أزهر مصر، وغيرها من البلاد العربية، مما يغنينا عن مثل هذا المشروع.

وأرد على ذلك بأن ما أعنيه شيء آخر يسجل الفروق الآتية بينه وبين الكليات والمعاهد الموجودة حاليا. وهذه الفروق تتمثل فيما يأتى:

١ – اشتراك البلاد الإسلامية كلها أو أغلبها فى هذا المشروع، مما يحقق « جزءًا» من الوحدة الثقافية، ويجعل لهذا المعهد طابعًا إسلاميًا عالميًا.

٢ – الالتحاق به ليس مطلقًا، بل مقيدًا بنبوغ الطلاب، فهو يعتمد على الانتقاء الدقيق لثقل المهمة التى سينهض بها الداعية.

٣ – تحتل المواضعات، والتيارات الفكرية، والتقنيات العلمية فى الدعوة مساحة واسعة فى المناهج والمقررات. فيكون هناك جمع شامل وقوى بين العلوم الدينية والتقنيات الحديثة، وبذلك يستطيع الداعية المسلم أن يزاحم بجدارة المنصرين المنتشرين فى العالم على نطاق واسع.

---

(١) انظر قميحة: آثار التبشير والاستشراق ٨٦ – ٩٠.

٤ – الاهتمام باللغات على نطاق واسع.

٥ – التخصص الرأسى الدقيق جداً: فهذا مثلاً داعية للدعوة إلى الإسلام فى نيچيريا فيكون ضمن إعداده: إتقان اللغة السواحلية إتقان علماء لا طلاب، ودراسة البلد الذاهب إليه: موقعًا، وتاريخًا، وعادات، وتقاليد، وطبائع السكان.. إلخ. زيادة على دراسة أنجع الوسائل لهذه المنطقة بالذات.

أى لا يكفى دراسة الخطوط العامة المشتركة للدعوة كما هو موجود فى الكليات والمعاهد الموجودة حاليًا. ولابد من التخصص العلمى الدقيق، مع المراجعات الدائمة فى ضوء التجارب التى يخوضها هؤلاء الدعاة.

* * *

٤ – **التصدى بفكر رصين وتخطيط علمى مدروس لدعاوى التضليل**: وذلك يكون بتشكيل لجنة أو لجان من علماء مشهود لهم بالكفاية على مستوى العالم الإسلامى، وتكون مهمة هذه اللجان ثنائية، هى: الدعوة إلى الإسلام، وبيان قواعده، مع التركيز على القيم الخلقية، والإنسانية التى يجهلها الغربيون عن الإسلام. أما المهمة الثانية – وهى أصعب من الأولى – فهى التصدى للمفتريات التى يبثها، وينشرها أعداء الإسلام.. ولتكن رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة هى التى تتولى تنظيم هذه اللجان وتخصيصها، بتوظيف كل وسائل الدعوة من كتب، وصحف، وإذاعات مسموعة، وإذاعات مرئية كالتلفاز. وهذا موجود ويؤخذ به أو ببعضه فى وقتنا الحاضر.

ولكن الأهم والأكثر خطورة وتأثيراً، والأسرع وصولاً الآن هو «شبكات الإنترنت» التى تقدم حالياً بيانات ضخمة جداً، يستفاد منها على مستوى العالم كله، وقراءة وسماع الأخبار العالمية والمحلية، واستخدام البريد الإلكترونى إلى كل أنحاء العالم فى دقائق، زيادة على نشر الصحف (عرضها على شاشة الحاسوب)، ونشر الإعلانات المختلفة للوظائف والسلع والمنتجات والاطلاع عليها، وكذلك التسوق، ويستفيد من هذه الخدمات مئات الملايين على مستوى العالم(١).

---

(١) فاروق سيد حسين: الإنترنت – الشبكة العالمية للمعلومات ١٢.

ودخلت «الإنترنت» مجال التعليم فى الجامعات، ومجال الدعوة، والدعوة المضادة، وهناك مواقع إسلامية على شبكات «الإنترنت»، مرْصَدةٌ للدعوة الإسلامية منها: موقع المنبر – وموقع أهل السنة والجماعة – وموقع شمس الإسلام – وموقع الشبكة السلفية– وموقع فتاوى الشيخ ابن باز – وموقع صفحات القرضاوى(١).

وقد أثبتت هذه المواقع أهميتها، ونجحت فى شد أنظار العالم، ولكن الدعوة الإسلامية مازالت فى حاجة إلى المزيد من هذه المواقع للدعوة إلى الإسلام من جهة، والتصدى بالتفنيد لأكاذيب أعداء الإسلام وأضاليلهم من جهة أخرى.

وعلى الدعاة الذين ينهضون بمثل هذا العمل عن طريق هذه الشبكات أن يرصدوا مفتريات الأعداء وأباطيلهم، ويجمعوها، ويدرسوها دراسة وافية، حتى تأتى الردود عليها قادرة على تفنيدها ونقضها.

وقد يُستحسن تجميع هذه الأباطيل والردود عليها فى كتب، ونشرات بلغات مختلفة، وتوزع على مستوى العالم، وبذلك يوظف الدعاة وسيلتين لهما قيمتهما فى الدعوة والتصدى لأعداء الإسلام.

* * *

٥ – **بعث روح الأخوة الإيمانية وحمايتها من حملات التضليل**: وهذا العنصر أهم العناصر كلها فى الوقاية والعلاج، ففى عالم اليوم لا مكان «للشعب الواحد المعزول» وصدق الشاعر العربى القديم إذ قال:

أخـاكَ أخـاكَ إنَّ منْ لا أخَـا لَهُ

كساعٍ إلى الهيْجَا بغيرِ سِلاحِ(٢)

وقد عاش الاستعمار فى الوطن العربى عشرات من السنين وشعاره «**فرق تسدْ**»، ونجح للأسف نجاحًا باهرًا فى تنفيذ شعاره، مستعينًا بكثير من الخونة الذين باعوا دينهم بدنياهم ودنيا غيرهم.

---

(١) للتعرف على هذه المواقع وغيرها من المواقع الإسلامية انظر ٣٨ – ٤١ من مجلة (إنترنت): العدد (٦) السنة (٢) فبراير ١٩٩٩.

(٢) البيت لمسكين الدارمى [ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/ ٥٥١].

وأخذ الاستعمار الصليبى، والاستعمار الصهيونى يسعيان فى الإيقاع بين الدول العربية، وكذلك فى نطاق الدول الإسلامية، وللأسف تكلمت لغة الدم والسلاح فى «حوارات» عربية معروفة، فى الوقت الذى تنهب فيه إسرائيل مزيداً من الأرض، وتريق مزيداً من الدم، وتتلاعب، وتعربد كيفما وأينما تشاء، وكأن العرب والمسلمين ليس لهم مكان.

وفى هذه الظروف التى تزداد سوءاً لابد من العودة إلى الله، وغسل الأيدى والقلوب، والتجمع من جديد بروح إيمانية، وحب مكين، وهذا هو ما يخشاه أعداؤنا، ونأمل أن يكون ذلك قريباً بإذن الله.

٦ - **تربية الأمة على الجهاد**: من الحقائق المؤسفة أن نرى الأمة الإسلامية تعيش حاليًا، «عصر الغربة»، بعد أن نزع الله من قلوب أعدائها المهابة منها، وقذف فى قلوب المسلمين الوهن، وهو حب الدنيا، وكراهية الموت. وكان هوان المسلمين على أعدائهم بقدر انفصالهم وتباعدهم عن مرجعيتهم الأصيلة، ومنابعهم الصافية: كتاب الله، وسنة نبيه، وعمل السلف الصالح رضى الله عنه.

لقد كانت الأمة المسلمة - فى عهد النبى ﷺ، وعهد خلفائه الراشدين رضى الله عنهم هى «**أمة الجهاد**»، فلم تعرف تقسيم الناس إلى «عسكرى» يقع عليه عبء الجهاد، والدفاع عن الوطن، و«مدنى» يتفرغ للعمل والكسب، ولا علاقة له بالقتال والأمور العسكرية، بل كانت الأمة كلها هى الجيش، وكان الجيش يستغرق كل أفراد الأمة، وكان الناس جميعًا يعشقون الجهاد، ويقبلون عليه، ويستبدبهم الحزن إذا ما عاقهم عنه عائق(١).

وكانت «التعبئة العامة» للجهاد بمفهومه الشامل هى الأصل المأخوذ به فى تجييش الجيوش، ونجتزئ فى هذا المقام بمثال واحد: فى ذى الحجة سنة ١٣هـ، علم الخليفة عمر

---

(١) فى رجب من العام التاسع للهجرة أمر النبى ﷺ المسلمين بالتهيؤ لغزو الروم فى تبوك، فقصده عدد من المسلمين الفقراء ليعطيهم من الإبل ما يحملهم إلى جبهة القتال، فقال لا أجد ما أحملكم عليه، لأن المسلمين كانوا يمرون بضائقة شديدة، فانصرفوا وهم يبكون بكاء مراً، واشتهروا باسم «البكائين». وفيهم نزل قوله تعالى نافيًا عنهم الحرج ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩٢].
أنظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٥١٨.

بن الخطاب رضى الله عنه أن الفرس جمّعوا جموعهم، وملكوا عليهم «**يَزْدجرْد**»، فأعلن «التعبئة العامة، وأمر بتجنيد كل القوى، وذلك بكتاب أو أمر عسكرى واحد الصيغة، وجهه إلى ولاته وعماله على الكور (المدن والقرى) والقبائل. ونصه:

«**لا تدعوا أحدًا له سلاح، أو فرس، أو نجدة، أو رأى إلا انتخبتموه، ثم وجهتموه إلى، والعَجَل.. العَجَل**»[1].

* * *

والآن.. وبعد زرع إسرائيل فى قلب الأمة العربية.. وفى عصر العولمة.. أو الأمركة.. عصر الحرب الصليبية الجديدة التى تستهدف العرب والمسلمين، لم يعد على الحكومات الإسلامية إلا أن تعيد عصر «**الأمة الجيش**» أو «**الجيش الأمة**» بحيث يشعر.. بل يؤمن كل فرد فى الشعب أنه «تحت السلاح»، وأنه «وحدة» فى القوة التى أمر الله بإعدادها قدر الاستطاعة.

وإعداد الشعب ليكون «جيشًا» يقتضى تحقيق جانبين:

جانب نظرى تربوى تعبوى: بتدريس «**فقه الجهاد**» فى كل المراحل التعليمية تاريخًا، وأحكامًا.

وجانبى عملى: بتدريب الشباب فى مراحل التعليم – ابتداء من المرحلة الإعدادية (المتوسطة)، وانتهاء بالمرحلة الجامعية – على فنون القتال، واستخدام السلاح كمادة دراسية لها مكانها من التقدير بين المواد الدراسية الأخرى[2].

كما يجب أن ينال فقه الجهاد حظًا وافيًا من خطب المساجد والمحاضرات العامة، والندوات والمؤتمرات، بعد أن أصبح الجهاد فى وقتنا الحاضر فرض عين لا فرض كفاية.

وعلى الدولة أن تنشئ معسكرات ومراكز للتدريب العسكرى فى كل المحافظات والمناطق للشباب والكهول والشيوخ من غير الطلاب كالموظفين والعمال والفلاحين، مع التوفيق بين التدريب والعمل الذى يؤديه المواطن، ويرتزق منه.

وبذلك تستعيد الأمة هويتها التائهة الضائعة، وتعيش قوية شامخة بروح الجهاد الحقيقى، ترهب عدو الله وعدوها، فلا ينال منها فى دينها، أو عرضها، أو أرضها.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤٧.

(٢) كانت مصر رائدة فى تدريس مادة التربية العسكرية (الفتوة) فى مدارسها بعد قيام انقلاب يوليو ١٩٥٢. وبعد عدة سنوات ألغيت المادة لأسباب لا يتسع المجال لذكرها.

الخاتمة

فى فصول هذا البحث وصفحاته وقفنا، وصاحَبْنا حلقتين من حلقات الزمن هما الماضى، والحاضر، رأينا فيهما طوائف التضليل، ومذاهبه، وأساليب المضللين فى التخريب النفسى، والخلقى، والعقدى، وفى خاتمة هذا البحث **أذكّر القارئ بنقاط، ومعالم مهمة، فصلنا فيها القول فيما مضى، وهى :**

١ - أن الفِرَق والطوائف التى تعادى الإسلام، وتحاربه خُفْية أو علانية، قديما وحديثا، بأساليب، وآليات متعددة، لا يكاد المستقرئ يجد بينها خلافا إلا ما يفرضه فارق الزمن من فروق فى « الأزياء »، و « الأسماء »، مع بقاء الجسوم والمسميات بجِرْمها وأبعادها و « جوّانيّتها »، فالأساليب بجواهرها ممتدة على مدار التاريخ، وأشير فى هذا المقام إلى بعض الأمثلة من وسائل أعداء الإسلام فى محاولة القضاء عليه :

أ - التخلص من « صاحب الرسالة » وهو النبى ﷺ : وقد عرفنا فى الفصل الأول من هذا البحث كيف تعرض الرسول ﷺ للقتل غيلة على أيدى الكفار، وكذلك على أيدى المنافقين، وكذلك على أيدى اليهود .

وهى وسيلة ظلت ممتدة إلى وقتنا الحاضر ففى أوروبا وأمريكا اغتال الصليبيون والصهاينة عددا من الدعاة المسلمين، ونقرأ أن « الصرب » يستهلون مذابحهم ضد المسلمين بقتل العلماء، وأئمة المساجد .

ب - التقول بالافتراءات والأكاذيب على الرسول، والقرآن، والمسلمين، والسخرية منهم، مازال ذلك قائما، وعلى نحو أشد، وإن سُمى فى الحاضر باسم « الحرب النفسية »(١)، ولنذكر قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ** ﴾ [المطففين : ٢٩ - ٣٢] .

---

(١) من أساليب سخرية الصهاينة فى الولايات المتحدة من المسلمين وخصوصا العرب منهم تخصيصهم بكلمتين هما (mob) أى سوقة أو غوغاء . و (mop) ومعناها : الخرقة أو الممسحة التى تنظف بها الأرض . ولنتذكر أن المنافقين كانوا يسخرون من فقراء المسلمين من المهاجرين بوصفهم بأنهم « جلابيب قريش » .

جـ - أسلوب الإغـراء بالمال والجـاه والمناصب. **وهناك حاليا وكالات ومؤسسات «تدفع» بسخاء شيطانى كبير.**

وهذا التشابه الذى يصل إلى حد «التوأمية» فى بعض الملامح يسهل للمسلمين الإفادة من الماضى للوقاية من خطر أعداء الحاضر، بل ضربهم فى مقاتلهم. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بوعى تاريخى راق، وفكر بصير قادر على تحليل العلائق بين الماضى والحاضر، واستخلاص ما فى كل أولئك من دروس نافعة.

٢ - أن التضليل والتخريب المعنوى فى الوقت الحاضر يضطلع كثير من «التنويريين» بنصيب وافٍ منه، وهم للأسف يحملون أسماء إسلامية مثل «سيد» و«أحمد» و«خليل».. إلخ، وأصبح ما يقدمونه يجد تشجيعا، وتلميعا، لا أقول على مستوى محلى فحسب، بل على مستوى عالمى كذلك. وآخر ما ظهر على الساحة المصرية:

أ - أستاذة - مكتوب فى خانة الديانة ببطاقة هويتها: مسلمة - تدرس لطلابها وطالباتها فى الجامعة الأمريكية - فى مادة الأدب والنقد - رواية بعنوان (الخبز الحافى) **لكاتب مغربى**، كلها من أولها لآخرها وصف تفصيلى لعمليات جنسية شاذة قذرة فى بيوت الدعارة قام بها المؤلف نفسه؛ لأن الرواية تمثل سيرة ذاتية له(١). ودافعت «الأستاذة» عن نفسها، بعد أن ضج الآباء والأمهات بالشكوى «أن هذه موجة جديدة فى الأدب، يجب أن يستوعبها الطلاب». يا عجبا!، هل أصبحت الدعارة مادة دراسية جديدة تمثل حاجة حيوية وثقافية؟.

ب - واحد من المتشاعرين التنويريين ينشر فى مجلة أدبية قومية قصيدة بعنوان «الوشم الباقى» تنهج نفس النهج، وتزيد عليه كتابة «الأصوات» الجنسية «شعرا»، وهى أصوات محترفات الدعارة.. والمتشاعر لا يبالى..

---

(١) نشرت صحيفة الجيل المصرية الأسبوعية الفصل الثالث من هذه الرواية، فلم أستطع أن أكمل قراءته لنوبة القىء التى انتابتنى. لكن الجزء الذى قرأته يعطى الحكم الذى سجلته بأمانة.

جـ - و« سيد » وهو يصر على أنه « دكتور » يكتب عن الفتح الإسلامى لمصر، ويصف جيش عمرو بن العاص رضى الله عنه بأنه « حملة » غزو واحتلال .

د - كاتبة « تنويرية » تحمل اسم « أمينة » تكتب مقالا تصف فيه طالبات الجامعة المحشمات اللائى لا يبدين شيئا من زينتهن بأنهن « لابسات أكفان » وتصف الاحتشام بأنه « ردة حضارية » .

هـ - وآخر ما كتبته الدكتورة (ن . س)، وما صرحت به فى تحقيق صحفى أن « الختان » عملية وحشية، واعتقدتُ أنها تتحدث عن ختان البنات، فقلت فى نفسى لا عتاب، فبعض العلماء فى مصر صرحوا فى أجهزة الإعلام بأنه من « أعمال العادات »، وليس من « تكاليف الشرع »، ولكن أخذنى الذهول والدوار حين وجدتها « تحرم » ختان الذكر، وتقول بالحرف الواحد فى ثورة هائجة « كيف تقطع هذه الجلدة مع أنها لها فوائد متعددة »؟!! .

ومن ثم يجب أن يُبذل قدر وافٍ من الجهد للتصدى لأمثال هؤلاء الضالين بأسلوب علمى مدروس .

* * *

٣ - أن القضاء على الأضاليل والمفتريات، والشبهات، ووسائل التخريب المعنوى التى يتبعها أعداؤنا يجب أن يعتمد على مخطط إعلامى علمى شامل، موظفاً أرقى أنواع التقنية وأحدثها وأقواها . . وكجزء من هذا المخطط يجب التعرف على جانبين مهمين هما :

أ - « مناطق التهجم » التى يلح أعداؤنا على غزوها، والإلحاح على معاودة الكرّ عليها، وأعنى بمناطق التهجم الجوانب التى يحلو لهم النيل منها فى ديننا وسلفنا . حتى يكون دفاعنا منهجيا علميا لا ثغرة ولا نقص فيه .

ب - فهم العقلية الغربية، والتعرف على كيفية التسلل إليها، وإقناعها، فأسلوب الدعوة إلى الله يختلف باختلاف حظ المتلقى من الثقافة، والمكانة الاجتماعية،

وغير ذلك. فالغربى مثلا قد لا يقتنع بالإسلام إذا عرضت ما فيه من بطولات وانتصارات حربية فائقة، ولكنه قد يقتنع به إذا عرضته من زاوية ما فيه من قيم إنسانية منها الرحمة بعامة، والرحمة بالحيوان بصفة خاصة(١).

* * *

ولكن يبقى هناك سؤال يفرض نفسه ومؤداه: **إذا حققنا هذه الدرجة العالية من توظيف وسائل التقنية، وحشد العلماء للدعوة، وتفنيد دعاوى الضالين المضلين، هل يكفى هذا لتحقيق الأمل المنشود الذى نصْبو إلى تحقيقه؟.**

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال أذكر فى هذا المقام حكاية واقعية نشرتها إحدى المجلات العربية من عدة سنوات، وملخصها أن عظيما من «ذوى الحيثية» الأجانب قرأ عن الإسلام، وأعجب به أيما إعجاب، واتجه إلى بلد عربى، ونزل فندقاً فاخرا، وأعلن إسلامه على يد عالم كبير من علماء هذا البلد، وأشاع العالم خبر إسلام هذا الكبير، وهو يكاد يطير فرحا، وخرج «موكب» ضخم من رجال الطرق الصوفية، وهم يحملون راياتهم الضخمة بألوانها الزاهية، وطبولهم الصاخبة، وهم يتطوحون على قرع الطبول بما يسمى «حركات الذكر» إلى أن وصلوا إلى فندق الرجل الذى أطل من شرفته، فعلا صخب الطبل والمزامير، وحُمّت حركات الذكر، وسأل الرجل العالم الذى صعد إليه فى فرح واستبشار.. ما هذا؟ فأجابه: إنهم المسلمون، تركوا أعمالهم، وجاءوا يحتفلون بك، قال الرجل: ولكنى قرأت أن الإسلام يدعو إلى احترام العمل، وعبادة الله فى خشوع، لا فى رقص وطبل وزمر..

وأرتج على العالِم.. ويقال إن الرجل عاد إلى نصرانيته من جديد.

* * *

وقد يكون فى القصة شىء من المبالغة اقتضاه الفن الصحفى، ولكنها حتى بصورتها هذه تقودنا إلى حقيقة مرّة، وهى أن المسلمين - **فى غالبيتهم** - **بأوضاعهم الراهنة لم**

(١) وقد أسلم فعلا عدد من الضباط والجنود الأمريكان أثناء حرب الخليج حين وظف أحد الدعاة هذا الجانب من الإسلام فى دعوتهم إليه، حتى أن أحدهم بكى والداعية يسمعه الترجمة الإنجليزية لحديث رسول الله ﷺ «عذبت امرأة فى هرة حبستها...» وكيف أن الله غفر لرجل لأنه ملأ خفه ماء وسقى كلباً كاد يموت عطشا.

يعودوا «تطبيقا عمليا» للإسلام، وكأن بينهم وبينه سدا، وما أولاهم أن يستجيبوا لقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٦].

وهذه الاستجابة تقتضيهم أن يعلموا، ويؤمنوا بعدل الله، والذى جعل «تغيير» الحال مرتبطا بسلوكيات البشر، وجهدهم، وجهادهم، وصلاحهم، أو فسادهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...** ﴾ [الرعد: ١١].

ومن ثم لابد أن «نغير ما بأنفسنا» إلى ما هو أنقى وأرقى وأطهر، حتى نستطيع أن نغير نظرة الآخرين إلينا بعد أن «**نزع الله من قلوب أعدائنا المهابة منا**».

وحتى نكون موضع تقدير وتوقير، لنكون «نماذج» عملية لما ندعو إليه. فالنجاح إذن على المستوى العام محليا وعالميا يبدأ من «دائرة الذات» فإذا ما تعانق النظرى والعملى، أى اتفق القول والفعل، فلا تناقض، ولا افتعال، استطعنا أن نحقق «هويتنا» الإسلامية المتكاملة، وأن نحقق أطيب النتائج لا فى مجال الدعوة فحسب، ولكن فى كل مناحى الحياة ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والحمد لله رب العالمين

د. جابر قميحة

المراجع

١ - **آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم**: د. جابر قميحة - رابطة العالم الإسلامى - مكة ١٤١٢ - ١٩٩١.

٢ - **ابن تيميه**: محمد أبو زهرة . دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٩١.

٣ - **أبو هريرة وأقلام الحاقدين**. عبد الرحمن عبد الله الزرعى - دار الأرقم - الكويت - الطبعة الثانية - صفر ١٤٠٥ - ١٩٨٤.

٤ - **أثر العرب فى الحضارة الأوروبية**: عباس العقاد . دار المعارف. القاهرة . ط ٨ - ١٩٧٣.

٥ - **أثر وسائل الإعلام على الطفل**: د. عبد الفتاح أبو المعالى - دار الشروق - عمان - الأردن - الطبعة الأولى.

٦ - **أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى اللغة العربية**: د. جابر قميحة - النادى الأدبى بالمدينة المنورة ١٤١٨.

٧ - **أدب الخلفاء الراشدين**: د. جابر قميحة . دار الكتاب المصري اللبناني - القاهرة ١٩٨٥.

٨ - **أدب الرسائل فى صدر الإسلام - الجزء الأول.. عهد النبوة**: د. جابر قميحة - دار الفكر العربى القاهرة - ١٩٨٦.

٩ - **الأدب الشيوعى**: ماهر نسيم - دار المعارف القاهرة (د. ت).

١٠ - **الأديب وصناعته: دراسات فى الأدب والنقد لعدد من النقاد الغربيين** - اختارها وترجمها جبرا إبراهيم جبرا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٣.

١١ - **الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب**: د. كرم شلبى - مكتبة التراث الإسلامى. القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٢ - ١٩٩١.

١٢- **الإرهاب: التهديد والرد عليه**: إريك موريس، وآلان هو ترجمة د. أحمد حمدى محمود- الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ٢٠٠١.

١٣ - **أزمة التعليم المعاصر**: د. زغلول النجار - المعهد العالى للفكر الإسلامى - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٠ - ١٩٩٠.

١٤ - **أسباب النزول**: الواحدى (أبو الحسن على بن محمد الواحدى النيسابورى) - تحقيق الدكتور السيد الجميلى - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٤١٢ - ١٩٩١.

١٥ - **الإسلام والحضارة الإنسانية وواقع العالم الإسلامى**: أبو الحسن الندوى - دار القلم- الكويت ١٩٩٥م.

١٦ - **الإسلام والمسيحية**: أليكس جورافسكى. ترجمة خلف محمد الجراد - (عالم المعرفة ٢١٥) الكويت. نوفمبر ١٩٩٦.

١٧- **الاشتراكية والشيوعية**: على أدهم - مطابع دار القلم - القاهرة (د. ت).

١٨- **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**: د. قاسم السامرائى - دار الرفاعى للنشر - الرياض ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

١٩- **الاستشراق: المعرفة - السلطة - الإنشاء**: إدوارد سعيد - نقله من الإنجليزية إلى العربية كمال أبو ديب - مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨٤.

٢٠- **الاستيعاب فى أسماء الأصحاب**: ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبى المالكى (بهامش الإصابة لابن حجر) - دار الفكر - بيروت (د. ت).

٢١- **الإسلام السياسى**: محمد سعيد العشماوى - سينا للنشر - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٧.

٢٢ - **الإسلام والرد على منتقديه**: محمد عبده - المكتبة التجارية - القاهرة ١٣٤٦ - ١٩٢٨.

٢٣- **الإسلام والعلمانية وجها لوجه (رد علمى على الدكتور فؤاد زكريا وجماعة العلمانيين)**: د. يوسف القرضاوى - دار الصحوة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠٨ - ١٩٨٧.

٢٤ - **الإسلام وحقوق الإنسان.. ضرورات لا حقوق**: د. محمد عمارة - الكويت ١٩٨٥.

٢٥ - **الإصابة فى تمييز الصحابة**: ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد العسقلانى ثم المصرى الشافعى - دار الفكر - بيروت (د. ت).

٢٦ - **أصول التشريع الإسلامى**: على حسب الله - مكتبة الجامعة - القاهرة - ١٩٥٢.

٢٧ - **أصول الدعوة**: عبد الكريم زيدان - مكتبة المنار - بغداد - ١٤٠١.

٢٨ - **إعلام الموقعين عن رب العالمين**: ابن القيم: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر - دار الجيل - بيروت (د. ت).

٢٩ - **الأعمال الكاملة**: للإمام الشيخ محمد عبده. تحقيق وتقديم د. محمد عمارة - دار الشروق . ط ١ - القاهرة ١٤١٤ - ١٩٩٣.

٣٠ - **الأغانى**: أبو الفرج الأصفهانى: على بن الحسين بن محمد القرشى - تحقيق وتعليق إبراهيم الأبيارى - دار الشعب - القاهرة (د.ت).

٣١ - **أفيون الشعوب.. المذاهب الهدامة**: عباس محمود العقاد - مكتبة الإنجلو المصرية - القاهرة (د. ت).

٣٢ - **الإمامة والسياسة**: ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم الحلبى. القاهرة - ١٩٦٣.

٣٣ - **إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع**: المقريزى: تقى الدين أحمد بن على - تحقيق وتعليق محمود شاكر - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤١.

٣٤ - **أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب**: د. صلاح عبدالفتاح الخالدى - دار المنارة - ط ٥ - جدة ١٤١١ - ١٩٩١.

٣٥ - **الانترنت الشبكة العالمية للمعلومات**: فاروق سيد حسن - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٨.

٣٦ - **إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية)**: على بن برهان الدين إبراهيم بن أحمد الحلبى - دار المعرفة - بيروت (د. ت).

٣٧ - **إنهم يستهدفون العالم المعاصر** : فرانسوا فوكوياما - ترجم في (الأهرام) ٢٩/١٢/٢٠٠١ . عن النيوزويك (ديسمبر ٢٠٠١ - فبراير ٢٠٠٢)

٣٨- **البداية والنهاية** : أبو الفداء ابن كثير : إسماعيل بن عمر القرشى . تحقيق أحمد فتيح - دار الحديث . القاهرة ١٤١٤ .

٣٩- **بين الكتب والناس** : عباس محمود العقاد - دار الكتاب العربى - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٦٦ .

٤٠- **تاريخ الأدب العربى** : أحمد حسن الزيات - دار الثقافة - بيروت - الطبعة ٢٦ .

٤١- **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها فى مصر** : د . نفوسة زكريا سعد - دار المعارف- القاهرة - ١٤٠٠ - ١٩٨٠ .

٤٢- **تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)** : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة ١٩٧٧ .

٤٣- **تأملات فى سيرة الرسول ﷺ** : د . محمد السيد الوليل . دار مكة للنشر - مكة المكرمة ط ١ ١٩٩٠ .

٤٤- **تخريب منظم لعقول الناشئة فى المجتمعات الإسلامية** : د . نبيل صبحى - مجلة الأمة القطرية - العدد ٥٠ - السنة الخامسة .

٤٥ - **التدافع الحضارى بديلا عن الصراع** : د . مجدى قرقر - دارسة فى مجلة المنار الجديد - العدد ١٧- يناير ٢٠٠٢ .

٤٦ - **تراث الإسلام** : تصنيف جوزيف شاخت - كليفورد بوزورث ترجمة : د . حسين مؤنس - د . إحسان صدقى العمد (عالم المعرفة ٢٣٤) الكويت - يونيو ١٩٩٨ .

٤٧ - **التراث والمعاصرة** : د . أكرم ضياء العمرى - كتاب الأمة رقم ١٠ - الدوحة - قطر - شعبان ١٤٠٥ .

٤٨- **تفسير الجلالين** : جلال الدين محمد بن أحمد المحلى - وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى - دار المعرفة - بيروت (د . ت) .

٤٩- **تفسير القرآن العظيم** : ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشى

البصروى ثم الدمشقى أبو الفدا عماد الدين – مكتبة الإيمان – المنصورة – مصر – الطبعة الأولى ١٤١٧ – ١٩٩٦.

٥٠- **التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى** (الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى مدينة **جلين آيرى** بولاية **كولورادو** فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٨) ونشرته دار MARC للنشر بعنوان :

The Gospel and Islam A. 1948 Compendium.

٥١ - **تنصير قبيلة الفولانى فى غربى أفريقيا** : عبد الرحمن عثمان – مجلة الأمة القطرية – العدد ٥٦ – السنة الخامسة.

٥٢ - **تهذيب سيرة ابن هشام**: عبد السلام هارون – دار الرسالة – بيروت – الطبعة السابعة عشرة – ١٩٨٨.

٥٣- **جامع البيان عن تأويل آى القرآن (تفسير الطبرى)** : أبو محمد بن جرير الطبرى – تحقيق صدقى جميل العطار – دار الفكر – بيروت ١٤١٥ – ١٩٩٥.

٥٤ - **الجامع الصحيح (سنن الترمذى)** : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سودة – تحقيق إبراهيم عطوة عوض – دار الحديث – القاهرة (د. ت).

٥٥- **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى)** : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى – دار الشعب – القاهرة (د. ت).

٥٦ - **جاهلية القرن العشرين**: محمد قطب – دار الشروق – القاهرة – ١٤٠٩ – ١٩٨٩.

٥٧ - **الجمالية الماركسية**: هنرى أورفون – ترجمة جهاد نعمان – دار عويدات – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٧٥.

٥٨- **جمهرة رسائل العرب** : أحمد زكى صفوت – مطبعة مصطفى البابى الحلبى . ط ٢ – القاهرة ١٩٧٣.

٥٩ - **الحرب التنصيرية فى الجزائر** : خديجة بقطامش – مجلة الثقافة الجزائرية – العدد ٦١ السنة الحادية عشرة.

٦٠- **حرب قذرة (قصة إبادة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا)**: كليف تورنبل . ترجمة حسن فؤاد الأهوانى دار الهلال - القاهرة ٢٠٠١ .

٦١- **الحرب النفسية فى صدر الإسلام (العهد المدنى)** : د. محمد بن مخلف بن صالح المخلف - دار عالم الكتب - الرياض - الطبعة الأولى - ١٤١٣ - ١٩٩٢ .

٦٢ - **الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين**: د. صبحى الطويل - كتاب الأمة ٣٢ - الدوحة - قطر.

٦٣ - **الحضارة**: د. حسين مؤنس . عالم المعرفة الكتاب رقم ١ الكويت.

٦٤ - **حضارة العرب**: غوستاف لوبون - ترجمة : عادل زعيتر الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠٠ .

٦٥- **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**: عباس محمود العقاد - دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٦٦ .

٦٦ - **حوار الحضارات: إشكالية التصادم، وآفاق الحوار**: عطية فتحى الويشى. مكتبة المنار الإسلامية - الكويت ٢٠٠١ .

٦٧ - **الحوار أو خراب الديار**: محمد جلال كشك - مكتبة التراث الإسلامى - القاهرة ١٩٩٣.

٦٨- **حياة محمد**: دكتور محمد حسين هيكل - دار المعارف القاهرة - الطبعة الثالثة عشرة - ١٩٧٥ .

٦٩ - **الخراج**: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم - دار الاعتصام القاهرة ١٩٨١ .

٧٠- **الخلافة الإسلامية**: محمد سعيد العشماوى - دار سينا - القاهرة - ١٩٩٦ .

٧١ - **خطيئة المذاهب**: طلبة زايد - دار النصر للنشر - القاهرة ١٤٠٦ - ١٩٨٥ .

٧٢ - **دائرة معارف القرن العشرين**: محمد فريد وجدى - دار المعرفة - بيروت - ١٩٧١.

٧٣- **ديوان بدر شاكر السياب**: المجلد الأول من الأعمال الكاملة - دار العودة - بيروت ١٩٧١.

٧٤- **الرسول حياة محمد**: ر. ف. بودلي - ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار - مكتبة مصر - القاهرة - الطبعة الثانية.

٧٥- **روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى**: الألوسى: أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسى البغدادى - دار الفكر - بيروت - ١٤١٧ - ١٩٩٧.

٧٦ - **سارتر والوجودية**: د. مصطفى غالب - دار ومكتبة الهلال - بيروت - ١٩٨٦.

٧٧ - **السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى**: د. مصطفى السباعى - المكتب الإسلامى - دمشق - الطبعة الثانية - ١٣٩٨ - ١٩٧٨.

٧٨- **سنن ابن ماجه**: الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى - دار الحديث - القاهرة - ط١ - ١٩٩٨.

٧٩- **سنن أبى داود**: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى - دار الحديث - القاهرة ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

٨٠ - **سنن الدارمى**: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى - تحقيق د. مصطفى ديب البغا - دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية - ١٤١٧ - ١٩٩٦.

٨١- **سنن النسائى**: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن بحر بن سنان بن دينار النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى - عناية عبد الفتاح أبى غدة - مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب - الطبعة الرابعة ١٤١٤ - ١٩٩٤.

٨٢ - **السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية**: عبد الوهاب خلاف - دار الأنصار - القاهرة - ١٩٧٧.

٨٣- **سيرة عمربن الخطاب**: على الطنطاوى وناجى الطنطاوى المكتبة العربية. دمشق (د. ت).

٨٤ - **السيرة النبوية**: ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافرى - تحقيق وضبط مصطفى السقا وآخرين - مكتبة مصطفى البابى الحلبى - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٧٥ - ١٩٥٥.

٨٥- **الشعر والشعراء**: ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم - تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثالثة.

٨٦ - **شمس العرب تسطع على الغرب**: زيفريد هونكه. ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقى، در الآفاق الجديدة - بيروت طره - ١٩٨١.

٨٧ - **الشيوعية نظرياً وعملياً**: كاريو هنت - دار الكتاب المصرى - القاهرة (د. ت) (ودون ذكر اسم المترجم).

٨٨ - **الصارم المسلول على شاتم الرسول**: ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن تيمية - تحقيق محيى الدين عبد الحميد - المطبعة العربية - لاهور - باكستان (د.ت).

٨٩ - **صحيح مسلم**: الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى بشرح النووى: الإمام يحيى بن شرف بن مرى حسن بن حسين بن حزام - دار الشعب - القاهرة (د. ت).

٩٠ - **صدام الحضارات**: صمويل هنتنجتون - المقال المنشور سنة ١٩٩٣ ملحق بكتاب: حوار الحضارات لعطية فتحى الويشى.

٩١- **صداماالحضارات وإعادة صنع النظام العالمى**: The Clsh of Civilizations and the Remaking of World Order: Samuel P. Huntington. ترجمة: طلعت الشايب - دار اللواء للطباعة ط. ٢ القاهرة ١٩٩٩.

٩٢- **الصديق أبو بكر**: د. محمدحسين هيكل. مطبعة مصر ط ٢ - القاهرة ١٣٦٢.

٩٣ - **صفوة التفاسير**: محمد على الصابونى - دار القرآن - بيروت - الطبعة الرابعة ١٤٠٢ - ١٩٨١.

٩٤- **صلاح الدين الأيوبى**: عبدالمنعم ماجد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٩.

٩٥ - **الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد - تحقيق حمزة النشرتى وآخرين - المكتبة القيمة - القاهرة (د. ت).

٩٦- **الطريق إلى بيت المقدس**: د. جمال عبدالهادى محمد د. وفاء محمد رفعت - دار

التوزيع والنشر الإسلامية ط ٢ – القاهرة : ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م

٩٧- الظاهرة الجمالية فى الإسلام: صالح أحمد الشامى – المكتب الإسلامى – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٧ – ١٩٨٦ .

٩٨ – ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها: محمد فتح الله الزيادى – المنشأة العامة للنشر – طرابلس – ليبيا – الطبعة الأولى – ١٣٩٢ – ١٩٨٣ .

٩٩- عبقرية خالد: عباس العقاد – دار الهلال – القاهرة – ١٩٥٧ .

١٠٠- عبقرية الصديق: عباس العقاد – دار الهلال – القاهرة – ١٩٥٥م .

١٠١- عبقرية محمد: عباس العقاد – دار نهضة مصر – القاهرة (د. ت) .

١٠٢ – العرب قبل الإسلام: أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حضارتهم: د. محمود عرفة محمود . دار النيل – القاهرة ١٩٩٧ .

١٠٣- عصر حروب المسلمين: صموئيل هنتنجتون . مقال ترجم في الأهرام بتاريخ ٢٢/١٢/٢٠٠١ عن « النيوزويك : ديسمبر ٢٠٠١ . فبراير ٢٠٠٢ » .

١٠٤ – عقائد المفكرين فى القرن العشرين: عباس محمود العقاد – مكتبة غريب – القاهرة (د. ت) .

١٠٥- العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها فى الحياة الإسلامية المعاصرة: سفر بن عبد الرحمن الحوالى – دار مكة للنشر – مكة المكرمة – الطبعة الأولى – ١٤٠٢ – ١٩٨٢ .

١٠٦- العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق: د. محمد البهى – مطبعة الأزهر – القاهرة – ١٩٧٦ .

١٠٧- العلمانية ونهضتنا الحديثة: د. محمد عمارة – دار الشروق – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤٠٧ – ١٩٨٦ .

١٠٨ – غارة تبشيرية جديدة على أندونيسيا: أبو هلال الأندونيسى – دار الشروق – جدة – الطبعة الرابعة – ١٤٠٠ – ١٩٨٠ .

١٠٩ – الغارة على العالم الإسلامى: أ . ل – شاتيليه – ترجمة محب الدين الخطيب

ومساعد اليافى – مكتبة أسامة بن زيد – بيروت (د. ت).

١١٠ – **الفاروق عمر**: د. محمد حسين هيكل – مطبعة مصر – القاهرة ١٣٦٤.

١١١ – **فتح البارى بشرح صحيح البخارى**: الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى – تصحيح ومراجعة محمد فؤاد عبد الباقى وقصى محب الدين الخطيب – دار الريان للتراث – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

١١٢ – **فتح القدير (الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير)**: الشوكانى: محمد بن على بن محمد – راجعه وعلق عليه هشام البخارى وخضر عكارين – المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٧ – ١٩٩٧.

١١٣ – **فتوح الشام**: الواقدى: أبو عبدالله محمد بن عمر – مطبعة مصطفى البابى الحلبى – القاهرة ١٩٦٦.

١١٤ – **فجر الإسلام**: أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ط ٧ – ١٩٥٥.

١١٥ – **الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى**: د. محمد البهى – مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٧٧.

١١٦ – **فلسفة الاستشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر**: د. أحمد سمايلوفتش – دار المعارف – القاهرة ١٤١٦ – ١٩٩٦.

١١٧ – **فى الرد على العلمانيين**: د. محمد يحيى – الزهراء للإعلام العربى – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٠٥ – ١٩٨٥.

١١٨ – **فى ظلال القرآن**: سيد قطب – دار الشروق القاهرة – ١٩٧٨.

١١٩ – **فى العمل الإسلامى الرسمى**: د. عباس المحجوب – الأمة القطرية – العدد ٥٧ – السنة الخامسة.

١٢٠ – **القاديانية**: أبو الحسن الندوى وأبو الأعلى المودودى ومحمد الخضر حسين – رابطة العالم الإسلامى – مكة المكرمة (د. ت).

١٢١ – **القاديانية**: إحسان إلهى ظهير – إصدار إدارة ترجمان السنة – لاهور – باكستان (د. ت).

١٢٢- **القاموس المحيط**: الفيروزابادى: مجد الدين محمد بن يعقوب - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الرابعة - ١٤١٥ - ١٩٩٤.

١٢٣- **القانون الدولى العام فى وقت السلم**: د. حامد سلطان - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٨.

١٢٤- **قصة الحضارة**: ول ديورانت - ترجمة محمد بدران - دار الجيل - بيروت ١٤٠٨ - ١٩٨٨.

١٢٥- **القضايا الكبرى فى الإسلام**: عبد المتعال الصعيدى - مكتبة الآداب بالجماميز - القاهرة (د. ت).

١٢٦ - **القومية والعلمانية والدين (قراءة فى الخبرة الغربية)**: دراسة للدكتور عبد العزيز صقر - مجلة المنار الجديد - القاهرة - العدد الثانى - ذو الحجة ١٤١٨ - أبريل ١٩٩٨.

١٢٧ - **الكامل فى التاريخ**: ابن الأثير. عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيبانى مراجعة وتصحيح د. محمد الدقاق. دار الكتب العلمية - بيروت ط ٣. ١٩٩٨.

١٢٨- **الكامل فى اللغة والأدب**: المبرد - أبو العباس محمد بن يزيد - مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٥١.

١٢٩- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل**: الزمخشرى: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى- دار الفكر - بيروت (د.ت).

١٣٠- **لا شيوعية ولا استعمار**: عباس محمود العقاد - دار الهلال - القاهرة - كتاب الهلال - رقم ٨٠ - نوفمبر ١٩٥٧.

١٣١- **لباب النقول فى أسباب النزول**: السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر - دار إحياء العلوم - بيروت - الطبعة الثامنة - ١٤١٤ - ١٩٩٤.

١٣٢- **لسان العرب**: ابن منظور: عبد الله محمد بن المكرم بن أبى الحسن بن أحمد الأنصارى الخزرجى - دار المعارف - القاهرة (د. ت).

١٣٣- **اللغة العربية عبر القرون**: د. محمود فهمي حجازي - دار الكاتب العربي - القاهرة ١٩٦٨.

١٣٤- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟**: أبو الحسن الندوي - دار القلم - الكويت - الطبعة السابعة عشرة - ١٤١٢ - ١٩٩٢.

١٣٥- **الماسونية - عقد المولد وعار النهاية**: محمود ثابت الشاذلي - مكتبة وهبه - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠٦ - ١٩٨٦.

١٣٦- **الماسونية - ماضيها وحاضرها لغاية عام ٢٠٠٠**: سعيد الجزائري - دار الجيل - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤١٦ - ١٩٩٦.

١٣٧- **الماسونية في المنطقة ٢٤٥**: أبو إسلام أحمد عبد الله - الزهراء للإعلام العربي - الطبعة الثانية - ١٤٠٨ - ١٩٨٧.

١٣٨- **ما يقال عن الإسلام**: عباس العقاد - دار الهلال - القاهرة ١٩٥٩.

١٣٩- **مجمع الأمثال**: الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري - مكتبة عبد الرحمن محمد - القاهرة ١٩٥٢.

١٤٠- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: الحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي، بتحرير الحافظين: الحافظ العراقي وابن حجر- دار الكتاب - بيروت - وهي طبعة مصورة عن النسخة المنيرية - الطبعة الثانية ١٩٦٧.

١٤١- **محمد رسول الله**: إيتين دينيه وسليمان إبراهيم الجزائري - ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود - الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٩٥٩.

١٤٢ - **المدخل إلى القيم الإسلامية**: دكتور جابر قميحة - دار الكتاب المصري اللبناني - القاهرة ١٩٨٤.

١٤٣- **مذاهب فكرية معاصرة**: محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - الطبعة الأولى- ١٤٠٣ - ١٩٨٣.

١٤٤- **المسألة الشرقية (دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية: ١٢٩٩ - ١٩٢٣)**: محمود ثابت الشاذلى - مكتبة وهبة - القاهرة - ١٤٠٩ - ١٩٨٩.

١٤٥- **المستدرك على الصحيحين**: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى - دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى - ١٤١١ - ١٩٩٠.

١٤٦- **المستشرقون**: نجيب العقيقى - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الرابعة.

١٤٧- **المستشرقون والإسلام**: إبراهيم عبد المجيد اللبان - مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ١٩٧٠.

١٤٨ - **المستشرقون والتاريخ الإسلامى**: د. على حسن الخربوطلى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٨.

١٤٩ - **مستقبل الإسلام فى أفريقيا**: د. الطيب زين العابدين - محاضرة نشرت فى الأمة القطرية - العدد ٦٥ - السنة السادسة.

١٥٠ - **المسند**: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل - شرحه ووضع فهارسه أحمد محمد شاكر - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤١٦ - ١٩٩٥.

١٥١- **مسند أبى يعلى الموصلى**: أحمد بن على بن المثنى التميمى- دار المأمون - دمشق (د.ت).

١٥٢ - **المسيحية**: د. أحمد شلبى - مكتبة النهضة المصرية. ط ٦ - القاهرة ١٩٧٨.

١٥٣- **معجم البلدان**: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى - دار صادر - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٩٥.

١٥٤ - **معجم مصطلحات الأدب**: د. مجدى وهبه - مكتبة لبنان - بيروت - ١٩٧٤.

١٥٥ - **مفتاح كنوز السنة** - وضعه بالإنجليزية: أ. ى - فنسنك ARENT SAN WENSINK. ونقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقى - دار الحديث - القاهرة - الطبعة الثالثة - ١٤١٦ - ١٩٩٦.

١٥٦ - **مفتريات اليونسكو على الإسلام**: محمد عبد الله السمان - دار المختار الإسلامى - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٩٦ - ١٩٧٦ .

١٥٧ - **مفتريات على الإسلام**: أحمد محمد جمال - مؤسسة دار الشعب - القاهرة - ١٣٩٥ - ١٩٧٥ .

١٥٨ - **المفردات فى غريب القرآن**: الراغب الأصفهانى أبو القاسم الحسين بن محمد - تحقيق وضبط محمد عيتالى - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٨ - ١٩٩٨ .

١٥٩ - **المفصل فى تاريخ الأدب العربى**: أحمد الإسكندرى وآخرون - مطبعة مصر - القاهرة - ١٩٣٤ .

١٦٠ - **من أجل تأمل فاحص وحوار خصيب**: د. صلاح قنصوه - دراسة صدر بها كتاب صدام الحضارات لهنتنجتون .

١٦١ - **من أسرار اللغة**: الدكتور إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - الطبعة السادسة - ١٩٧٨ .

١٦٢ - **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه**: ابن الجوزى أبو الفرج عبدالرحمن بن على بن محمد . تحقيق زينب إبراهيم - دار الكتب العلمية - بيروت ط ٣ - ١٤٠٧ - ١٩٨٧ .

١٦٣ - **مهمة الإسلام فى العالم**: محمد فريد وجدى - إصدار الأزهر . ط ١ - القاهرة ١٩٨٩ .

١٦٤ - **موجز تاريخ العالم**: هـ. ج. ويلز . ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٩ .

١٦٥ - **موسوعة السياسة**: د. عبد الوهاب الكيالى وآخرون - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٩٠ .

١٦٦- **الموسوعة الشوقية**: أحمد شوقى – جمع وترتيب وشرح إبراهيم الإبيارى – دار الكتاب العربى – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٥ – ١٩٩٤ .

١٦٧ – **موسوعة المستشرقين**: د. عبد الرحمن بدوى – دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٩٩٣ .

١٦٨ – **الموطأ**: مالك بن أنس – صححه ورقمه وخرّج أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى – دار الشعب – القاهرة (د. ت) .

١٦٩ – **موقف الأدب الإسلامى من المذاهب الأدبية المعاصرة**: د. محمد مصطفى هدارة – دراسة قدمت لندوة الأدب الإسلامى العالمية التى عقدت فى كلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة فى المدة من ١١ إلى ١٣ من شوال ١٤١٢ .

١٧٠ – **نحو مذهب إسلامى فى الأدب والنقد**: د. عبد الرحمن رأفت الباشا – جامعة الإمام محمد بن سعود – الرياض ١٤٠٥ – ١٩٨٥ .

١٧١ – **النزعة النصرانية فى قاموس المنجد**: د. إبراهيم عوض دار الفاروق – الطائف – ١٤١١ – ١٩٩١ .

١٧٢ – **النظريات السياسية الإسلامية**: د. محمد ضياء الدين الريس – دار التراث – القاهرة – الطبعة السادسة – ١٩٧٦ .

١٧٣ – **النظم السياسية – الدولة والحكومة**: د. محمد كامل ليلة – دار النهضة العربية – بيروت ١٩٦٩ .

١٧٤ – **الوافى فى شرح الأربعين النووية**: د. مصطفى البغا – محيى الدين ديب مستو – دار الكلم الطيب – دمشق ط ٨ – ١٤١٥– ١٩٩٥ .

١٧٥ – **اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى**: غوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – بيروت – ١٩٧٢ .

١٧٦ – **اليهودية**: د. أحمد شلبى – مكتبة النهضة المصرية ط ٥ – القاهرة ١٩٧٨ .

١٧٧ - **اليهود والماسونية فى مصر (دراسة تاريخية)** : د. على شلش - الزهراء للإعلام العربى - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤٠٧ - ١٩٨٦ .

١٧٨ - **اليهودية والماسونية**: عبد الرحمن الدوسرى - دار السنة - الخبر - السعودية - الطبعة الأولى ١٤١٤ - ١٩٩٤ .

١٧٩ - **يوميات**: عباس محمود العقاد - دار المعارف - القاهرة - المجلد الأول : الطبعة الثالثة ١٩٧٦ - والمجلد الرابع (د. ت) .

الدوريات :

١ - الأمة (قطرية شهرية) .

٢ - الانترنت (مصرية شهرية) .

٣ - الثقافة (جزائرية شهرية) .

٤ - المسلمون (سعودية أسبوعية) .

٥ - المنار الجديد (مصرية فصلية) .

٦- الأهرام (مصرية يومية) .

٧- الوفد (مصرية يومية) .

٨- الرسالة (مصرية) .

٩- القدس (القاهرية) .

الفهـرس

الفصل الثالث (١٤٣-٢٠١)

من وسائل التضليل والتدمير

الفصل الرابع (٢٠٣-٢٤٨)

حديث الإفك

إسلام إرهاب وتخلف حضارى

الفصل الخامس (٢٤٩-٢٦٣)

من وسائل الوقاية والعلاج

الكاتب فى سطور
دكتور جابر قميحة

من مواليد مدينة «المنزلة» بشمال دلتا النيل بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٣٤م.

حاصل على المؤهلات الآتية:

- ليسانس دار العلوم التربوى من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.
- ليسانس الحقوق - من كلية الحقوق بجامعة القاهرة.
- دبلوم عال فى الشريعة الإسلامية - من كلية الحقوق جامعة القاهرة.
- ماجستير فى الأدب العربى الحديث من جامعة الكويت.
- دكتوراه فى الأدب العربى الحديث - من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

عمل بالتدريس فى الكليات والجامعات الآتية:

- كلية الألسن - جامعة عين شمس.
- جامعة (يل) Yale بولاية (كنكتكت) بالولايات المتحدة.
- الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).
- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (قسم الدراسات الإسلامية والعربية) - الظهران المملكة العربية السعودية.

حضر كثيراً من المؤتمرات العالمية، ومنها:

- مؤتمر الشباب العربى بمدينة (سبرنج فيلد Spring Field) بالولايات المتحدة.
- مؤتمر شباب الجامعات الإسلامية بإسلام آباد.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية - باسطنبول - تركيا.
- مؤتمر «ظاهرة ضعف اللغة العربية فى التعليم الجامعى» جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بالدار البيضاء بالمغرب.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بأغادير بالمغرب.

عضو فى:

- اتحاد الكتاب المصريين.
- رابطة الأدب الإسلامى العالمية.

الكتب المطبوعة:

١- منهج العقاد فى التراجم الأدبية.
٢- أدب الخلفاء الراشدين.
٣- أدب الرسائل فى صدر الإسلام.
٤- التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى.
٥- صوت الإسلام فى شعر حافظ إبراهيم.

٦- الشاعر الفلسطينى الشهيد عبد الرحيم محمود، أو: ملحمة الكلمة والدم.
٧- التراث الإنسانى فى شعر أمل دنقل.
٨- فى صحبة المصطفى.
٩- المدخل إلى القيم الإسلامية.
١٠- المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق.
١١- الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف.
١٢- آثار التبشير والاستشراق فى الشباب المسلم.
١٣- الزحف المدنس (ديوان شعر).
١٤- لجهاد الأفغان أغنى (ديوان شعر).
١٥- حديث عصرى إلى أبى أيوب الأنصارى (ديوان شعر).
١٦- لله والحق وفلسطين (ديوان شعر).
١٧- أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى اللغة العربية.
١٨- الإمام الشهيد حسن البنا بين السهام السوداء وعطاء الرسائل.
١٩- رواية وليمة لأعشاب البحر: فى ميزان الإسلام والعقل والأدب.
٢٠- أدبيات الأقصى والدم الفلسطينى.
٢١- الابتلاء وأثره فى حياة المسلمين.
٢٢- عزة المسلم.

البحوث المنشورة فى مجلات:

عشرات من البحوث والمقالات نشرت فى المجلات الآتية:

١- مجلة الدارة (سعودية فصلية محكمة).
٢- مجلة الدراسات العربية (مصرية فصلية محكمة).
٣- مجلة الدراسات الإسلامية (فصلية باكستانية محكمة).
٤- مجلة الشعر (مصرية شهرية).
٥- مجلة الفيصل (سعودية شهرية).
٦- مجلة الحرس الوطنى (سعودية شهرية).
٧- المجلة العربية (سعودية شهرية).
٨- مجلة المنهل (سعودية شهرية).
٩- مجلة الوعى الإسلامى (كويتية شهرية).
١٠- مجلة المجتمع (كويتية أسبوعية).
١١- مجلة المنتدى (تصدر فى دبى - شهرية).
١٢- المسلمون (سعودية أسبوعية).

والحمد لله رب العالمين

دار الطباعة والنشر الإسلامية
مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس: ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة: مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسى ت: ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس: ٤٠١٧٠٥٣